
عبدالله الخنيزي
نسيم وزوبعة
مكتبة
مؤمن قريش

نسيم وزوبعة

❊ ❊ ❊

الطَّبعة الأوْلى

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطَّبعة الثَّانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

***

الحمد لله الذِيْ خَلقَ النَّسْمة : رخيَّةً ناعمةً ، لِتَتَفَتَّحَ بها الأزاهيرُ الضَّاحكةُ ، والورودُ النَّضِرةُ ، فَتَنْقِلَ فوَّاح الأرج ، وفاغِمَ العِطر . . .

وخلق الزَّوبعة باطشةً غضبَى ، لِيَكْسِرَ أنفةَ الدَّوحةِ المتعاليةِ ، ويُطامِنَ مِنْ كبريائها الشَّامخةِ . . .

وصلاتُهُ وسلامُهُ على رسولِه ، الذِيْ استعارتِ الأزاهر بعضاً ، مِنْ رقَّة أخلاقه ، حتَّى أسْبَغَ عليها خالقُهُ صفةَ « العظمة » . . . وارْتَفَعَ عن الفظاظة والغِلظة ، لئلَّا ينفضَّ مِنْ حولِهِ الخَلْقُ .

وعلى آلِهِ الهداةِ ، الذين كانُوْا المثلَ الأعلى ، والنُّسخةَ الكاملة منه ، فِيْ : مميِّزاته ؛ وهدْيه .

وعلى كلِّ مَنْ أخذ مِنْ هدْيِهم بنصيب ـ جيلاً بعد جيل ـ لِيفتح ، أمامهُ مِن الحياة ، دروبهَا الخيِّرة ؛ وطريقتَها المُثلى . . .



المؤلّف

الإهداء

إليكِ - يا مَنْ نفضتِ مِنْ عينيكِ النوم، لأتلذّذ بغفوةٍ...

إليك - يا مَنْ أجهدتِ نفسكِ، كي أستريح...

إلى تلك اليد الكريمة، التي هزّت بلا مَهْدي، وأنتِ تُناغيني بأعذب لحنٍ...

إلى أحلى نغمٍ في الوجود...

إلى أُمّي

فهذه ثمرة، أرجو بها أنْ قدْ حقّقتُ بعض ما عقدتِ بِهِ مِنْ أملٍ، على إحدى ثماركِ المباركة.

ولدك
عبد الله الخنيزي

النجف الأشرف: ١٨/٤/١٣٩٧هـ
٠٧/٤/١٩٧٧م

في اسم الكتاب

قَدْ يبدُو ـ لأوَّل وهْلةٍ ـ أنَّ فِيْ اسْم الكتاب « نسيمٌ ، وزوبعةٌ » شيئاً مِنَ التَّناقض . . . ذلك أنَّ النَّسيم والزَّوبعة : لفظتان متضادَّتان .

فكيف يجتمع الضِّدَّان على صعيدٍ واحدٍ . . . ؟ !

وأين النَّسيم النَّدِيُّ ، مِنَ العاصفة الغضوب . . . ؟ !

ولكن فليس يعنِيْ العنوانُ : اجتماعَ الضِّدَّين ، على صعيدٍ واحدٍ . أيْ : لا يُوحِيْ العنوان بأنَّ النَّسيم يُداعب الورد ، فِيْ الحين الذِيْ تكسر فيه العاصفةُ القصبةَ .

ولكنَّه يعنِيْ : أنَّ النَّسمة النَّديانة ، تطوف على بعض الصفحات ، لِتُودع فيها : النَّبضةَ الهادئةَ ، والخلجةَ اللَّيِّنةَ ، واللَّمسةَ الرقيقةَ ، والمداعبةَ النَّاعمةَ . . .

فَهِيَ تشبه ـ فِيْ طوافها هذا ـ طواف نسمة الفجر النَّاعمة ، على فم الزَّهرة الضحوك ، لِتُقبِّل فمَها المبسام ، وتحمل منها العَبَق الفوَّاح . . .

ثمَّ تُعقب ذلك ـ وقَدْ تلاشتِ النَّسمة ـ زوبعةٌ نكراءُ ، لِتَطبع على بعض الصفحات الأخرى : أثراً ممَّا تحمله العاصفة ، مِنَ القوَّة ، والبطش . . .

فَهِيَ تشبه ـ فِيْ ذلك ـ عَصْفَ الزَّوبعة ، إذ تمرُّ على القصبة المزهوَّة ، فتكسر منها : هذا الشُّموخَ المدلَّ ، والخُيَلاءَ المتعالية ، والغرورَ النَّزِقَ . . .

والإسْم يعنِيْ ـ فِيْ عبارةٍ أُخرى ـ أنَّ بين ما تضمُّه الدِّفتان : مواضيعَ فيها مِنَ الَّلين ، ما يشبه النَّسمة فِيْ رخاوتها ورقَّتها . . . ومواضيعَ فيها مِنَ الشِّدَّة ، ما يشبه الزَّوبعة فِيْ القوَّة والبطش . . .

***

أمَّا النَّسمة ، فَهِيَ : المواضيع ، التِيْ كتبتُها ، بعْد ما أقرأُ ما يطبع فِيْ نفسِيَ الرِّضا والقبول . . . فأتناول اليراع ، لأسجِّل هذه الخلجةَ الحيَّةَ ، والنَّشوةَ الطيِّبةَ ، والرعشةَ الَّلذيذة . . .

وقَدْ يُخلِّف هذا الأثرَ الطِّيبَ ، شيْءٌ ممَّا قرأتُ ، أو سمعتُ .

. . . أو أجد ممَّا يعرضه شريط الحياة ، ما يُبقِيْ الصَّدى البعيد فِيْ نفسِيْ . . .

أو غير هذا وذاك ، ممَّا فِيْ الحياة مِنْ صُوَرٍ ، وما فِيْ الوجود مِنْ عِبَرٍ .

ومِنْ ثمَّ يُسجِّل اليراع ، ما يكون اعترافاً بالفضل ؛ أو مشاركةً فِيْ الشُّعور ؛ أو تجاوباً مع الوعْيِ الباطن ؛ أو ترديداً للصَّوت الهامس . . .

فالنَّسمة ، هنا ، تعنِيْ أنَّها ـ بذلك ـ تنقل الأرج المِعطار ، مثل ما تنقله النَّسمة النَّديانة ، مِنْ صميم الزَّهرة المتفتِّحة . . .

***

وأَمَّا الزَّوبعةُ : فمواضيعُ نقديَّةٌ ، فيها : قوَّةٌ ، وصراحةٌ ، وجرأةٌ ؛ كتبتُها على إثْر ما أقرأُ مِنْ آثارٍ ، لا تنال منِّيَ الرِّضا ، أو أكون وما تهدف إليه على خلافٍ . . .

أو كانتِ انْعكاساً لجانبٍ ، مِنْ جوانب شريط الحياة ، حين ما يعـرض ناحيتَها المؤْلمة ، ممَّا يستثير فِيْ جوانب النَّفس شعـورَ الألم النَّاهش ، والسُّخط العميق . . .

والإشـارةُ إلى مواطن الضَّعف ، والنِّقـاط المتـداعيـة ، مِنَ الأثـر الفنيِّ ـ أوِ : النَّقـد النَّزيـه ، فِيْ عبارةٍ مـوجـزةٍ ـ هـو : غـايـة مـا يـطلبـه الأديب الصَّادق ، لِيَدفعه إلى التَّجويد ، فِيْ أثرٍ جديدٍ ، ويشقَّ لـه لاحبَ الطَّريق ، فِيْ زمنٍ مقبلٍ .

وبـذلك . . . يتجنَّب مـا يدفعـه للإنـزلاق فِيْ سيره ، إذا عـرَف : أنَّ وراءه أقلاماً تُحاسبه على الخطإِ ، وتعدُّ عليه الخُطى . . .

والنَّقـد الأدبيُّ ، رسالـةٌ فِيْ عنق كلِّ أديبٍ ؛ عليـه أنْ يقوم بهـا مخلصـاً صادقاً . . . لا يهدف لسوى الحقِّ ، وحده ، لا لغايةٍ دونٍ . . .

ومثله النَّقد الاجتماعِيُّ الذِيْ يُعالـج أدواء الإنسانيَّـة ، ويكشف الستر عنِ الخبيْءِ منها . . . لِيَضَعَ العلاجَ النَّاجعَ لها ، والحلولَ الصَّائبةَ لمشـاكلها المستعصية . . .

فإنَّ ذلك لَوَاجبٌ على كلِّ إنسانٍ ، مخلصٍ لإنسانيَّته ، قادرٍ على العمل فِيْ سبيلها . . .

***

فمواضيعُ الكتاب ـ إذن ـ هِيَ مزيجٌ مِنْ : تقريظٍ ، ونَقْدٍ . . .

وليس فِيْ تقريظِـيْ ، ومدحِيْ هذا : شيْءٌ مِنْ تزلُّفٍ ، أو مجاملةٍ . . .

كما أنَّه ليس فِيْ نقدِيْ : قصْدٌ لتجريحٍ ، أو تشهيرٍ . . .

بـل شئتُ ـ فِيْ النَّوعـين ـ أنْ يكـون خـاليـاً مِنَ العـاطفـة المسـيَّرة ، أوِ الجمـوح ؛ وما قصـدتُ بـه ، سـوى وجـه الحقِّ وحـدَه . . . فـأجلو وجـه الحقيقة ، حسْب ما يبدُوْ لِيْ ، وحسْب ما أراه هو الحقُّ

وأنا ـ بعْد ذلك ، أو قبْله ـ عرضةٌ لأنْ أُصيب ، أو أخطأ . . .

فإنْ كان الصواب نصيبِيْ ، فذاك غاية رجايَ . . .

وأمَّا أنْ يكون الخطأُ ، فهو غاية الجهد . . . ولكن فَقَدْ يشفـع لِيْ : أنِّيْ لم أقصدِ الخطأ والخطَل . . .

وقبْل هذا وبعْده ، أستمدُّ مِنَ الله العون ، وأسأله التَّوفيق والسَّداد .

القطيف : ١٦/٠٤/١٣٧٤ هـ
١٣/١٢/١٩٥٤ م

المؤلِّف

عبدالله الخنيزيُّ





مِـــنْ قريـبٍ

نشرتها مجلّة الكتاب - المصريَّة - فِيْ جزئها الثامِنِ ، مِنْ مجلّدها العاشر - محرَّم ١٣٧١ هـ ، أكتوبر ١٩٥١ م .

قَدْ يرى القارئُ الكريم ـ متى وَقَعَ نظَرُه على هذا العنوان ـ أنَّ فيه شيئاً ـ لعلَّه غير قليلٍ ـ مِنَ الابتعاد . . . حتَّى أنَّه لَيَعود ، وهو يظنُّ ـ منذ النَّظرة الأوْلى ـ أنَّ العنوان يتباين والمحتوى ، ولا يلتقِيْ معه فِيْ منحَى . . .

قَدْ يظنُّ ذلك . . . حين ما يرانِيْ : أُدير هذا الموضوع ، حول شكرٍ ، لأديبةٍ ، لها قيمتها السَّامية ، فِيْ عالمنا الأدبِيِّ العربِيِّ (١) .

. . . فيرى البُعْد الممتدَّ ، والفاصل المنفسح ، بين : مصر ، والقطيف . . .

ولربَّما يرى أنَّ عنوان « مِنْ بعيدٍ » ـ وهو عنوان الكلمة التِيْ دفعتنِيْ ، لهذا المقال ـ أصحُّ وأدقُّ . . .

ولكنِّيْ أُخطِّأُه إنْ رأى ذلك ، أو حَبِل به ظنُّه . . . فإنَّه حبَلٌ ، غير صادقٍ . وسيتبينَّ له : أنِّيْ على حقٍّ ، وأنِّي مِنَ الحقِّ فِيْ الصميم . . .

إنِّي أرى للبلاد الإسلاميَّة والعربيَّة : وحدةً ، لا تعترف بالحدود ، ولا تُقيم للأبعاد وزناً . . . فَهِيَ وحدةٌ ، لا تتجزَّأُ حقيقتها .

---

(١) راجع ـ في صفحة ٤٨٩ ، ج ٥ ، م ١٠ مِنْ مجلَّة الكتاب الأغرِّ ـ مقال الدكتورة بنت الشاطىء ، تحت عنوان « مِنْ بعيدٍ » ، الذي سجلَّت فيه انطباعاتها الجميلة ، وشكرها الموفور ، على ما لقيته ، في القطيف مِنْ ترحابٍ ، وحرارة استقبالٍ ، لها وللبعثة الجامعيَّة ـ التي كانت هي رأسها ، مع زوجها الأستاذ الخولي ، والدكتور العبَّادي ، وسواهم .

ومـا نراه مِنْ فـروقٍ وتجزءاتٍ ، فتلك ليست غـير طوارىءَ سيـاسيَّةٍ ، أرادها المستعمِر ، وتـولَّى رعايتهـا ، لأنَّ فيها ضمـانَ مصالحـه المستغلَّة لهذه الشُّعوب . . .

لكنَّــا لا نعـترف بهــذه الفـوارق ، ولا نُحسُّهــا ؛ بـل إنَّ مِنْ صميم اعتقادنا ، ومِنْ أساس مبدئنـا : هذه الأخـوَّة ، المتينة الأُسُس ، الـواشجة الأصول ، الممتدَّة الفروع : إنَّ المسلم ، أخو المسلم . . . ولا يـزال العربيُّ للعربيِّ ركناً . . .

فليس بين : العراق ، والشـام ؛ أو بين : القـطيف ، ومصر ؛ أو بين البـلاد العـربيَّـة ـ بـأسرهـا ـ فـرْقٌ ، أو حـدٌّ . . . فكـلُّ أرضٍ إذا يَمَّمتُهـا وطنيْ . . .

وهذا الشُّعور الطَّيِّب ، هو مِنْ أُسُس النُّظُم الإسلاميَّة ، ومِنْ تعاليمـه الرَّفيعة . . . فما جَعَلَنَا الله قبائلَ وشعوباً ، إلَّا لِنتَعَارف .

والآن ـ يا قارِئي ! ـ وقَـدْ أوضحتُ لكَ قصـدِيْ ، فلعلَّك عدلتَ عن رأْيكَ ، وتبنَّيت رأْيِي . . .

***

أُمسيـةٌ . . . تدبُّ فيهـا الحياة متـدفِّقةً قـويَّةً ، مـرَّت كإشراقـةِ الخيال المحلِّق ، أو كطيف حلمٍ لذيذٍ . . .

مرَّت علينا ، وما نشعر بالسَّاعات تدور ، وبالوقت يُـطْوى ؛ بل كـدنا نظنُّ أنَّ الكون كلَّه أوقَفَ حركاتِـه . . . وكلُّه آذانٌ مرهفـةٌ ، تُصغِيْ إلينا ، وعيونٌ محدِّقةٌ ، تحدجنا بنظراتٍ رزينةٍ ، تدلُّ على إعجابٍ وإكبـارٍ ؛ وقلوبٌ

خافقةٌ ، قَدْ تفتَّحَتْ ، فِيْ ابتهاجٍ لِمَا يدور فِيْ قطعةٍ مِنَ الأرضِ . . .

هناك . . . فِيْ بستان الصَّديق الأديب السيِّد « عبدالله إخوان » ، وقَدْ ظلَّلتها النَّخيل الباسقة ، بسعفها المخضوضِرِ ، وحاطتها بعض الأشجار مِنْ جميع جوانبها ، وغطَّتِ الأعشابُ والحشائشُ الأرضَ ، فبدت : قطعةً خضراء ، تُشيع فِيْ النَّفس : البهجة والاطمئنان . . .

دَلَفَتِ الشَّمس للمغيب ، وكادت تُرسل نظرة وداعٍ لذلك اليوم ، متسلِّلةً تحت سعف النَّخيل ، ومِنْ بين أغصان تلك الأشجار النَّضرة . . .

. . . وهي تودُّ لو وقفتِ الأرض عن دورتها لحظةً ، لئلاَّ تنحدر ، أكثر ممَّا انحدرت إليه ، مخافة أنْ تُعكِّر على تلك القطعة هدوءها ، أو يضَّطرب اطْمئنانها . . .

ولكنَّها ـ بعْد لحظاتٍ ـ انسلَّتْ مِنْ تلك القطعة ، وقَدِ انتحرتْ بمدية اللَّيل الأفحم ، فلطَّختِ السَّماء بدمها الأحمر ، حتَّى تبدَّى لنا ما ندعوه بالشَّفق ـ أو دم الشَّمس القانِيْ ـ فكادت تمتزج حمرته ، بتلك الخضرة الزَّاهية . . .

ثمَّ انسكبتْ أشعَّةٌ باهتةٌ ، مِنَ القمر ، وهو فِيْ اللَّيلة الثالثة ، وفِيْ أوَّل بزوغه ؛ غير أنَّها ضاعت بين هذا وذاك . . .

وما هِيَ إلاَّ لحظاتٌ ، إلاَّ واللَّيل يجثم على صدر النَّهار ، فيُغطِّيه بردائه الأدكن ، ويُخفيه تحت جلبابه القاتم ، فَتَنْقطع زغْردة العصافير التِيْ كان لها ـ قبْل لحظاتٍ ـ صدىً جميلٌ ، وموسيقى وداعٍ ناعمةٌ ، وهِيَ دالفةٌ إلى أعشاشها ، منتظرةً خيطَ الفجر ، أنْ يمتدَّ فِيْ الفضاء ، مِنْ جديدٍ . . .

أمَّا المجلس ، فلم يمرَّ به الظَّلام الكفور ، ولم تطأْ له فيه قدمٌ ، فما كادتِ الشَّمس تغيب ، إلَّا والمشاعل تُرسل إشعاعَها المنير . . .

فما شعرنا بمغيب الشمس ، ولا بتخييم سحابة اللَّيل القاتمة . . . فالمجلسُ يسبح فِيْ عالمٍ ، لا سابق له به ، مِنْ ذِيْ قبْل ، وفِيْ بهجةٍ واطمئنانٍ ، يملآن له فراغَه العميق ، ويُبدِّدان وحشة اللَّيل المرعبة . . .

* * *

تلك أُمسيةٌ ، لم تحسِبِ « القطيف » لها حساباً ، ولم يدُرْ في خلدها : أنَّها ستمرُّ عليها ـ بمثل هذه المفاجأة ـ مثلُ هذه الأمسية الماتعة الملذَّة . . . التِيْ لم تُسجِّلها فِيْ سابق تأْريخها . . .

وإنَّها ـ وهِيَ تشهدها ـ لَتُسائل نفسَها :

أهِيَ فِيْ يقظةٍ ؟ ، أم هو الحُلُم والخيال ، يُصوِّران لها ما ترى . . . ؟ !

هل ما تُشاهده هو الواقع ؟ ، أوهِيَ سابحةٌ فِيْ عالمٍ ، غير واقعها . . . ؟ !

فتمتدُّ يدها بهدوءٍ ، وتتحرَّك أصابعها بسكينةٍ ، لِتفرك عينيها برفقٍ ، كَمَنْ بَقِيَ فِيْ عينيه خفقةٌ مِنْ نعاسٍ . . ؟

ثم تُحدِّق ببصرها ، فِيْ ما ترى . . . فماذا ترى . . . ؟

وإذا هِيَ ترى : أنَّها فِيْ الواقع ، ومِنَ الواقع فِيْ صميمه . . . وما مرَّ بها حُلُمٌ ، ولا مرَّت بخيالٍ ؛ ولم يطُفِ الكرى لها بجفنٍ . . .

ولكنَّ الدَّهشة والغبطة ـ وحدهما ـ هما صوَّرا لها ما ترى ، حتَّى كادا

يُلبسان عليها الواقع ، بقناعٍ مِنْ أقنعة الوهم . . .

همساتٌ . . . وتمتماتٌ . . . واسْتباقٌ إلى مِنصَّة الخطابة ، عبَّر بعض الأدباء ـ كُتَّاباً ، وشعراء ـ عمَّا يكنُّون مِنْ إخلاصٍ وتقديرٍ ، لأبناء الكنانة . . . وكلٌّ يلقِيْ تحيَّةً وعتاباً ـ كما عبَّرت الدكتورة ـ لأبناء النِّيل الكرام . . .

ولم تكد أبناء القطيف ، تُؤدِّيْ تحيَّاتها الأدبيَّة هذه . . . وإذا بها تنطبع فِيْ قلوب أبناء مصر : انطباعاً عميقاً . . .

وإذا بنا نسمع صدى ذلك ، مِنْ فم الدكتورة بنت الشاطىء ، قَدْ حَمَلَ أعذب شُكرٍ ، وأنْبَلَ عاطفةٍ ، وأرقَّ تحيَّةٍ ، وأعمقَ إخلاصٍ . . .

وهِيَ تكاد تتعثَّر بكلماتها ، وتشرَق بريقها ، ممَّا ألمَّ بها مِنْ أثرٍ عميقٍ ، خلَّفه ما شاهدت مِنْ ثروةٍ أدبيَّةٍ ، ما كانت تحسب لها حساباً ، حيث لم يدُر فِيْ خلَدها : أنَّها ستشهد فِيْ هذا البلد الضَّائع المغمور ، مثل هذا الأدب الرَّفيع . . .

وما مرَّ بظنِّها تلك اللَّحظة : أنَّ التَّأْريخ يُعيد نفسه . . . غير أنَّها ما شاهدت ذلك ، حتَّى أنشدت لطرفَة مستهلَّ معلَّقته :

لِخَولةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِيْ الْوَشْمِ فِيْ ظاهِرِ اليَدِ

كأنَّها ـ بهذا الإنشاد ـ تقول : إنَّ الأحفاد ورثة الأجداد ، ولا تزال تلك الثَّروة الأدبيَّة ، تنتقل مِنَ الجدِّ ، إلى الولَدِ ، ومنه إلى الحفيد . . .

وإنَّ القطيف ، التِيْ أسهمت فِيْ الحركات الفكريَّة : علميّاً ، وأدبيّاً ـ أمسِ ـ لم تزَلْ تُسهم ، حتَّى فِيْ عصرنا الحاضر . . . برغم ما تلقاه مِنْ

تجاهلٍ ، مِنَ الأقطار الشَّقيقة ـ كما عبَّرت ـ عن مثل ذلك ـ الدكتورةُ ، فيْ مقالها ، بعدئذٍ . . .

ولعلَّ ممَّا زاد فيْ إعجاب الوفد ، بالأدب القطيفِيِّ : أنَّه ـ أيِ : الأدب القطيفِيُّ ـ نبْتُ الطَّبيعة الحيَّة . . . كالعشب ، الذِيْ ينبت فِيْ الصَّحراء ، لمروو ديمةٍ سخيَّةٍ . . .

فهذا الأدب لم تُنتجه ، سوى المدرسة الذَّاتيَّة . . . أيْ : كلٌّ يُدرِّس نفسَه ، ويحثُّها . . . ولعلَّ له فضْل البقاء ، لأنَّ الشَّجرة البريَّة أصْلبُ عوداً ، وأبطأُ خموداً ـ حسْب تعبير إمام البلاغة ، أبِيْ الحسن ، عليه السَّلام .

وما لبثنا ـ ساعتها ـ حتَّى وجدنا لصوت ابنة الشاطىء ، ما يُجاوبه ، ويُضارعه فِيْ نفس زوجها ، الأستاذ الكبير ، أمين الخولِيْ . . . فيقف : خطيباً ، معبِّراً عن ضميره ومشاهداته . . .

وكأنَّ الدكتورة ، أحسَّت ـ وذلك مِنْ كرَم خُلُقها ـ أنَّها ورفقاءها ، لم يُؤدُّوا لإخوانهمُ القطيفيِّين ما يحقُّ لهم ، فلا تلبث أن تُكرِّر مثل هذه الجملة :

« لَقَدْ غمرتمونا بالجميل . وإنَّنَا مدينونَ إليكم . وسوف لا ننسى حقَّكم ، حتَّى الموت »

وراحت تغمرنا « هِيَ » ، بمثل هذا الفضل ، حتَّى غمرتنا موجةٌ ، مِنَ : الخجل ، والحياء . . . وموجةٌ أُخرى ، مِنَ : الإعجاب ،

والإكبار ، لهذا الخلُق الرَّضيِّ الفاضل . . .

***

إنَّها أُمسيةٌ ، نُكبرها ، ونعجب بها ، ولا نُقيِّمها ، ونزن قيمتها . . . هذه الأمسية الجميلة ، عادت بنا إلى مطاوِيْ التأْريخ ، وأعادت لنا صورةً ، واضحةَ الخطوط والمعالم ، لِمَا نقرأُه ونسمع به ، عن سوق « عُكاظ » ، وعن أثرها فِيْ الأدب العربيِّ القديم ، وكيف يتبارى ـ هنالكَ ـ الخطباء والشعراء ، ليحوز كلٌّ منهم قَصَبَ السَّبق ، وجائزةَ التفوُّق . . . حتَّى وجدنا صحَّة القول : التأْريخ يُعيد نفسه . . .

وما انفضَّ الحفل ، عندما أزمع الضُّيوف الكرام على الرَّحيل ، إلَّا وموجةٌ مِنْ تمتمة الدُّعاء : أنْ لا تكون هذه الزِّيارة ، الولدَ الوحيد ، مِنْ هؤلاء ـ بخاصَّة ـ ومِنَ الأدباء الزُّوَّار لهذه المنطقة ـ بعامَّة .

والدكتورةُ بنت الشاطىء ، عندما مدَّتْ يدها للوداع ، فاهتْ بهذا الوعد الصادق :

سوف نلتقِيْ على صفحاتِ الصُّحف .

ثم أتبعتْ بالسؤال ، عنِ المجلَّة المصريَّة ، التِيْ تصلنا بانتظامٍ ، فخصَّصنا لها مجلَّة « الكِتاب » الزَّاهرة ، فأعادتْ :

سوف نلتقِيْ على صفحات « الكتاب » .

وأردفت : وفِيْ القطيف ـ إنْ شاء الله .

***

طُوِيَ بساط تلك الجلسة الممتعة ، وفِيْ نفس كلٍّ منَّا ـ مصريِّين ، وقطيفيِّين ـ صورةٌ ، خُطَّتْ بقلمٍ بدعٍ ، ورُسمتْ بريشةِ صَنَاعٍ ، لا تُمحى ، ولا تزول . . .

ودار الزَّمَنُ ، دورةً قصيرةً . . . فما كدتُ أصدِّقُ ما أرى ، وأنا أقرأُ هذه الجملة ، مِنْ رسالةٍ ، تسلَّمتُها مِنْ صديقِيَ الأديب ـ اللُّبنانيِّ ـ الكبير ، الأستاذ « بولس سلامة » :

« سرَّنِيْ ما كتبتْه الدكتورة بنت الشاطىء ـ فِيْ العدد الأخير ، مِنْ مجلَّة الكتاب ـ عنِ القطيف ، وشكرتُها فِيْ نفسِيْ ، كما لو أنشأتْ هذا المقال ، عن قريتِيْ (بتدين الَّلقش) .

إيْ والله ! هذا هو شعورِيْ بالقطيف اليوم ، وخصوصاً (القلعة) [1] ، وما كنتُ أعرف عنها شيئاً منذ سنواتٍ » .

أوَفَت بنت الشاطىء ، وبرَّت بوعدها . . . ؟

فشكراً للأوفياء الصَّادقين . . . !

* * *

ها هِيَ ذِيْ « الكتاب » تُطالعنا ، فنقرأُ فيها مقال بنت الشاطىء ـ « مِنْ بعيدٍ » ـ وما منَّا إلاَّ مَنْ حمَّلته جميلاً ، على ردِّ الشُّكر والإكبار ، وافرين لشخصها الكريم ، وخُلُقها الرَّفيع . . .

---

(١) القلعة ، هي : عاصمة القطيف .

وما منَّا ، إلَّا مَنِ ارتسمت على وجهه آيـات الإخلاص والـودِّ ، ليدهـا البيضاء هذه . . .

وما منَّا ، إلَّا مَنْ قرأها ، بلذَّةٍ ، وبهجةٍ ، وسرورٍ . . .

وعادت بنا مجلَّة « الكتـاب » ، تنشر الصَّفحة الـرَّائعة ، التِيْ سجَّلتهـا الأمسية الحبيبة . . .

ابنة الشاطىء : برَّت بوعدها ، وعـبَّرت عن عاطفـةٍ صادقـةٍ ، كريمـةٍ نبيلةٍ ، وعن شعـورٍ طـاهـرٍ رفيـعٍ ، فلهـا آيـاتُ الشُّكـر ، والـولاء والإعجاب . . .

ابنـة الشاطىء : وَفَتْ ، وحقَّقت طـرفاً مِنَ الـوعد . . . ولكنِّيْ أهمس لها ، مع نسمات الإخلاص والإعجاب :

هل تبُرِّين بوعدكِ ، وتفين بالطرف الثانِيْ منه ، بزيـارتكِ لـوطنِيْ ـ مرَّةً أُخرى . . . ؟

ولأقُل : بزيارتكِ لوطنكِ ، ما دامتِ العروبة ، تجمع بيننـا ، وتربـطنا برباطها المقدَّس . . .

لَقَدْ أبديتِ ـ أيَّتها الدكتورة السيِّدة ! ـ إعجابكِ الوافر بالقطيف . . .

ويـدلُّ مقالـكِ على : أنَّـكِ ما كنتِ تـأْملين أنَّنا نعـرف شيئاً قليـلاً عن مصر ، وعن أدبها وحركاتها . . . وإذا بنا نعرف عنها ، ما قَدْ يجهله كثيرٌ مِنَ المصريِّين أنفسِهم ، لم تستثنِيْ مِنْ ذلك ، سوى القلَّة المتعلِّمين . . .

أجل ! إنَّنا نتتبَّع آثاركم ونقرأُها . . . ولَقَدْ قرأنـا لكِ الشيْء الكثـير ،

وأُعجبنا بك ، قبْل أنْ نراكِ . . . وقرأنا لكِ معاركك النَّقديَّة . . .

* * *

لَقْد طال بِيَ الحديث - أيَّتها الدكتورة ! - فِيْ حين أنِّيْ لم أشرع يراعِيْ ، إلَّا لأهيب بوطنِيَ « القطيف » على شكر ابنة النِّيل الوفيَّة - ابنة الشاطىء العربيَّة . . .

ولكن قَدْ تشعَّب الحديث - والحديثُ ذو شجونٍ ، كما يقولون . . .

وما ذلكَ إلَّا مِنْ فضْلِ تلك الأمسية ، ومِنْ صداها الخالد ، الذِيْ يُرجِّعها وجودنا بلحنٍ جميلٍ . . .

القطيف : { ٢٠ / ٨ / ١٣٧٠ هـ
٢٧ / ٥ / ١٩٥١ م }

القطيف

في

مهرجان العرفان

***

بمناسبة عزْم طائفةٍ على إقامة

الحفل الخمسينيِّ لمجلَّة العِرفان

***

نشرتها مجلَّة العِرفان ـ الصَّيداويَّة ـ فِيْ
عددها السَّابع ، مِنْ مجلَّدها الثَّامِنِ
والثَّلاثين ، رمضان ١٣٧٠ هـ ـ
حزيران ١٩٥١ م .

صـدىً عميقٌ متجـاوبٌ . . . مـلأ شعـاب قلبِيْ ، وشـاع فِيْ خـلايـا دماغِيْ ، حتَّى استقرَّ فِيْ عميق الفكر ، إلى جانب فكـرةٍ ، حَبَلَ بهـا عقلِيْ ، فكانا توأمين . . .

لا . . . ! فكـان متمِّـماً لِخَلْقِ تلك الفكـرة ، التِيْ لايـزال الفكــر بهـا حابلاً ، حتَّى حان ـ اليوم ـ ميلادها . . .

إنَّه صدىً صميمٌ . . . وليس بالصَّدى الأجوف . . .

ذلــك الصَّـدى المتجــاوب ـ فِيْ نفسِـيْ ـ نتيجـةً لـدعــوة الأستــاذ الحومانِيْ[1] ؛ لإقـامة « اليـوبيل الـذَّهبِيِّ » لمجلَّة الجيل الـواعِيْ ؛ والجهاد الصَّامت النَّاطق « العِرفان » ، أهاب فيها الحومانِيُّ بـالمهاجـرين ـ خاصَّـةً ـ وبالأدباء ـ عامَّةً .

وإنِّي لأشكره على هذه الدَّعـوة ، المنطويـة على أَنْبَـل شعورٍ ، وأصـدق عاطفةٍ كريمةٍ . . . وأُقدِّر له دعـوته هـذه ، فَقَدْ نجحت هـذه المقالـة ، لأنَّها صادفتْ لها هوىً فِيْ قرارة قلبِيْ . . . وستجد هذا الهوى فِيْ قلبٍ واعٍ . . .

ولست مدَّعياً دعوةً باطلةً ، لو قُلت :

قَدْ خامرتنِيْ فكرةٌ ، إنْ لم تكن هـذه الفكرة بعينهـا ، فَهِيَ فكرةٌ تقـترب منها فِيْ الروح ، وإنِ اختلفتا فِيْ المظهر . . .

---

(١) ص ٤٤٤ ، ج ٤ ، م ٣٨ مِنَ العِرفان .

وقَدْ خرجتُ بتلك الفكرة ، إلى حيِّز الوجود ، قبْل أنْ أقرأ دعوة الأستاذ الحومانيْ . . . ولكنيِّْ لا أُنكر أنَّ دعوة الحومانيْ كانت أشْملَ نطاقاً ، وأوفى دلالةً ، وأصرحَ مِنْ دعوتيْ . . . وهنا نقطة الخلاف ، بين : دعوته ، ودعوتي .

وفِيْ الحقِّ : إنَّ كلتا الدَّعوتين ، قَدْ أخذت طريقاً ، غير الأخرى . . .

***

إنَّـه واجبٌ علينا أنْ نَفِيَ لكـلِّ ذِيْ حقٍّ ، بمقـدار طـاقتـه . . . ونُقَـدِّر جهوده ، بمقدار ما أسداه إلى الإنسانيَّة ، مِنْ خدمةٍ وإحسانٍ .

فإنَّ فِيْ هذا الوفاء ، وهذا التَّقدير : حافزاً قويّاً ، يدفع بالمرء للسير نحو مُثُله ، وتحقيق أهدافه وغاياتـه ، وإنفاذ خـططه ، لأنَّ فيه شيئـاً كثيراً ، مِنَ التَّطمين ، بأنَّ مشروعه قَدْ أخذ طريقه للقلوب ، وذاق حلاوة ثمر جهوده .

إنَّنا نجد بطلاً باسلاً ، فِيْ حومـة ميدانٍ محتـدمٍ ، يُجاهـد مدافعـاً دفاعَ المستميت ، عن مبدئِه ومعتقدِهِ ، الذِيْ يعتنقـه ، ونُبْدِيْ لـه كلمةً ، تحمـل شيئاًمِنَ التَّشجيع ، أو نرمقه بنظرةٍ ، تدلُّ على إكبارنا له . . .

. . . فإنَّا لا نلبث أنْ نجد أثر هذه الكلمة ، أو هـذه النَّظرة ، قَـدْ نَفَذَ إلى قلبه ، وَبَعَثَ فيه الدفْءَ والطُّمَأْنينة ، فأخذتْ قوَّته تتضـاعف وتقوى ، دافعـةً بـه نحـو طـريقـه ـ بكـلِّ جـدٍّ ونشـاطٍ ، واطمئنـانِ قلبٍ ، وهـدوءِ فكرٍ . . .

وكـذا الحال فِيْ الجهـاد القلمِيِّ الذِيْ يتسـاوى ـ إنْ لم يزد ـ مـع الجهـاد السَّيفِيْ . . .

* * *

إنَّ الوجود لَيُبرهن لنا ، على وجود شخص ٍ ، ثبت فِيْ ميدان الكفاح ، عنِ : الوطن ، والعروبة ، والإسلام . . .

. . . وكـابَدَ فِيْ نضـاله : ضروب المحن ، وألـوان العذاب ، ومـرارة التَّشريد ، وأنماط الهوان . . .

. . . وأُودع قـاتم السُّجـون ، فِيْ عهــود : الـظُّلم ، والاستبــداد ، والاستعمار ، وأحفادها . . .

. . . وقاسى ما هو مصير كلِّ حرٍّ مجاهدٍ ، رَفَعَ مشعل الحريَّة . . . ذلك المصـير المحتوم ، لهؤُلاء النَّفـر ، الذين يحملون اسم « مجـاهدٍ حـرٍّ » ـ بكلِّ مـا تنطوِيْ عليـه لفظة « مجـاهدٍ » مِنْ معنىً ، وكـلِّ ما تنـطوِيْ عليـه لفـظة « حرٍّ » مِنْ طاقةٍ . . .

وإنَّ الـوجود ، الـذِيْ يبرهن عـلى وجود هـذا الشخص ، هو بـذاته ، الذِيْ يُشير بهذا البرهان ، إلى : الشيخ أحمد عارف الزَّين .

وكما يُبرهن ، ويُشير . . . فإنَّـه ـ أي ِ : الوجـود ـ يُبرهن أيضـاً ، على مجلَّةٍ صامدةٍ ، ثبتت فِيْ ميدان الصَّحافة الصَّاخب . . .

وإنها ـ أيْ : تلك المجلَّة ـ قَدِ احتفظتْ بتوازنها ، فِيْ وجه الأعـاصير ، فكانت مدرسةً سيَّارةً ، لا تزال تُطلع تـلامذةً ممتـازين . . . وضربتِ الرَّقم

الفياسِـيَّ فِيْ التَّضحية ، فِيْ سبيل المبدإِ المتين . . .

* * *

تجتاز صحافتنا العربيَّة ـ اليوم ـ مرحلةً ، هِيَ مِنْ أشدِّ المـراحل تعقيـداً وحـراجةً ، أُصيب فيهـا بعض الصحف ، بنكسةٍ ، هـوت بهـا إلى القـرار السَّحيق . . .

وأثقلتِ الأزمات خطواتها ، فبدت كظالعةٍ . . . وأسدلتِ المادَّةُ عليهـا غيمةً سوداء كثيفةً ، إنْ أخرجت يدها ، لم تَرَها . . .

ولم تكـد تنجو مِنَ الـوقـوع ، فِيْ هـذه الهـوَّة السَّحيقـة ، وتُحـافظ عـلى طابعها ، إلَّا « القلَّة » الخيِّرة ـ « والخيِّرون قليلُ » .

وفِيْ هذه القلَّة برهانٌ على : أنَّ الوجود لا يخلو مِنْ ثلَّةٍ صـالحةٍ ، يهمُّهـا الإشادة بالمبدإِ ، والصُّدوع بالرِّسالة .

ولا شـكَّ أنَّ فِيْ طليعة هـذه المجلاَّت ، الثَّـابتـة عـلى المبـدإ القـويم ، الـرَّاسخة القـدم : مجلَّة العِرفـان الغرَّاء ، التِيْ امتـازت بصلابـة المعتقـد ، وأصالة الرأْيِ . . .

فوقفتْ نفسها على الجهاد ، نصف قرنٍ ، أو كاد ، لم تُطِحْ بها عواصف العهود المظلمـة ، ولم تأْبـه لِمَا يعـترض طريقهـا ، ويقف دون تحقيق هدفهـا الذِيْ مِنْ أجله خُلقتْ . . . بل راحت تصدع برسـالتها ، دون أنْ تحـول ، أو تتبدَّل . . .

* * *

ومِن الخير أنْ أُشير إلى « ظاهرةٍ » ثانيةٍ فِي العِرفان . . . ليس فَتْحَها باب النَّقد على مصراعيه . . . فتلك ظاهرةٌ أُوْلى .

ولكن هذه الظَّاهرة الأخرى هِيَ تجنُّبها خُطط الإقليميَّة التِيْ تلعب ـ اليوم ـ دوراً كبيراً . . . حيث يُمثِّل هذا الدَّور المخزِيْ ، على صفحات بعض الصُّحف ، التِيْ أُريد منها وسيلةً للثَّراء . . . لا غايةً لرسالةٍ روحيَّةٍ ، أو لدعم كيانٍ أدبيٍّ . . .

بهذه الظَّاهرة ومثلها ، تبوَّأتِ العِرفان : كلَّ قلبٍ ، عامرٍ بالإيمان : الإيمان بالقِيَم ، والمُثُل العليا . . .

* * *

وإنه لَمِنَ المُؤْسف حقّاً : أنِّيْ أرى طلائع ودلائل ، تُشير إلى نهايةٍ سيئةٍ . . . ! أخشى أنْ أُنظَمَ فِيْ سلك التَّشاؤُميِّين ، لو جهرتُ بها . . .

ولكنِّيْ سأدعها فِيْ سرِّيْ . . . وسأرفع يدِيْ ، مبتهلاً : أنْ لا تكون العِرفان هِيَ الوحيدة التِيْ تبقى فِيْ هذا الميدان : ميدان الحريَّة ، والجهاد . . .

ولعلَّكَ ـ يا عزِيزيَ القارِيء ! ـ فهمتَ ما وراء هذا الابتهال . . .

* * *

وبعْدُ . . . فإنَّ مِنْ دواعِيْ الغبطة : أنْ تُقام المهرجانات ، وأنْ تُضفر على مِفرق العِرفان أكاليلُ المجد ، وأنْ يُزان صدرها بوسام التَّقدير .

وكم كنتُ أتمنَّى أنْ يتَّسع الوقت ، فأُشير إلى : ميزات العِرفان ، وصاحبها ، وخصائصه . . .

ولكن أين هو . . . ؟

* * *

وبعْدُ ـ مرَّةً ثانيةً . . . فهذه كلمةٌ انبثقت عن عِرفان بـ « العِرفان » ، قلتُها على أنَّها حسٌّ ووعْيٌ ، وحاجةٌ نفسيَّةٌ ، وكلمةُ حقٍّ ، لوجه : الحقِّ ، والعلم ، والأدب ، فقط . . .

القطيف : { ١٣٧٠ هـ
١٩٥١ م }

صُلْحُ الحَسَنْ

عَلَيْهِ السَّلَامُ

[صُلح الحسن عليه السَّلام] :

عنوان كتابٍ ، بقلم سماحة العلاَّمة المغفور له ، الشيخ راضِيْ ، آل ياسين .

يقع الكتاب فِيْ [٣٧٢] صفحةً ـ عدى الفهارس ـ مِنَ القطع الكبير .

طُبع بمطبعة « الزَّهراء » ببغداد ـ عام ١٣٧٢ هـ ـ على نفقة جماعةٍ ، مِنْ أهل القطيف .

موضوع « صلح الحسن » ـ مِنْ حيث التأْريخ ـ موضوعٌ شائكٌ ، له مساسٌ حسَّاسٌ بتأْريخنا الحافل بالتَّضحية .

ولكنَّه ـ للأسف الشديد ـ كان كالمتاهة ، بالنَّسبة لبعض الشَّباب ، المتطرِّفين ، الذين هم مِنَ المعتقد على رجراجٍ . . . أُولئك السَّطحيُّون العجزة ، الذين لا يعرفون موطأ أقدامهم ، ولا ينظرون لأبْعد مِنْ أطراف أُنوفهم . . .

ومع هذا ، فهم يحكمون على الحقائق التأْريخيَّة ، حسْب شهواتهم الحمقاء ، وحسْب ما تُغَرِّرهم به الآراءُ السَّوداءُ ، دون أنْ يقوموا بمهمَّة المطَّلع ـ بلْهَ المحقِّق . . .

إنّهم لَيُرسلون أحكامهم بجرأةٍ فذَّةٍ ، إلى حدود الوقاحة ؛ وتطرُّفٍ عجيبٍ غريبٍ ، إلى حدود الخيال والوهم .

وهذا . . . وذاك . . . إنْ دلَّ على شيءٍ ، فعلى : العقليَّة العفنة ، والفكر الحجرِيِّ ، والجهل المطبِق ، والطُّفولة العابثة . . .

إنهم لا يعرفون أيَّ طرفيهم أطول . . . ! ولكنَّهم يحكمون على كلِّ النواحِيْ ، حكمَهُمُ المهزوز المرتجل .

فصلاحيتهم فِيْ الأحكام العرجاء شاملةٌ ، ليست مقصورةً على ناحيةٍ ، فهم لا يعرفون حدوداً ، ولا يعترفون بوجودٍ لها . . .

فما عليهم ، إلَّا أنْ يُرسلوا أحكامهم ! ؛ أنْ يقولوا كلمتهم ! ؛ وليس يهمُّهم موقعها ، أو محلُّها مِنَ : الحقّ والواقع . . . !

عليهم إصدار الحكم ! ، وليس عليكَ أنْ تسأل عن مصدره . . .

هـل استمـدُّوه مِنَ الـواقـع ، أو مِنَ الخيـال ؟ ' ، مِنَ الحقِّ ، أوِ الباطل ؟ ! ، مِنَ الصِّدق أوِ الكذب ؟ ! .

فحـين ما يحكمـون على قضيَّـةٍ تأْريخيَّـةٍ ـ مثلاً ـ ليس لـك أنْ تسأل عنِ الوقائع والخطوط ، التيْ استمـدُّوا منها صـورة حكمهم الحاسم . . . أو عنِ المقدِّمات ، التيْ ابتنت عليها نتيجة الحكم . . .

. . . لأنَّهم ـ فيْ الـواقع ـ لا يعـرفون مِنْ ذلـك شيئاً . . . وليست لَهُمُ الإحاطة ، بمقدِّمات الحكم ، فضـلاً عن أنْ تكون لهم قـابليَّة الاستنتـاج ، أو إصدار الحكم . . .

ولأنَّ الـواقـع ـ نتيجـة ذلـك ـ ليس فيْ قبـالهم ، طـوال الخط ؛ فهم يسيرون فيْ غير مجرى الْحقِّ ، ويُعاكسون وجهة سيْر الواقع . . .

* * *

مِنْ بـين تلك الأحكـام المـرتجلة : حكمهم عـلى قضيَّـةٍ ، ذات مجسٍّ حسَّاسٍ فيْ تأْريخنا الإسلامِيِّ ، هِيَ : صلح الحسن عليـه السَّلام ، الإمـام الحقِّ ، للمنتـزِيْ عـلى الحكم معـاويـة ؛ وتنـازل هـذا الإمـام عن حقِّـه الشَّرعِيِّ ، فيْ الخلافة ، لهذا الجائر .

ومـا ذاك سوى نتيجـةٍ حتميَّةٍ ـ حسْب حكمهمُ المتـطرِّف ـ لِجُبْنِ نفسيَّة

الحسن ، وخوفه مِنْ خوض غمار الحـرب . . . وإلاَّ فواجبـه المحتمَّ أنْ ينزل حومة الـوغى ، ويضرم فيها الَّلظى ، حتَّى تصيبـه شرارةٌ مِنْ لهبها ، فـتُرديه شهيد الواجب ، فِيْ معترك العقيدة المقدَّس . . .

وإنَّه ، وقَدْ تأخَّر ، فلم يقدح زناد النَّـار ، التِيْ تلتهم الهشيم ، وتقتلع الجذور ، وتفتُّ الوحدة ، وتجتثُّ دعامة الإسلام . . . فـإنَّه لـذلك الجبـان الخـوَّار الرِّعـديد ؛ الـذِيْ تهاون ـ وأستغفـر الله ! ـ فِيْ واجبه ، إبقـاءً عـلى نفســه ، وخـوفـاً مِنْ لهيب الحـرب المنتــظرة ، التِيْ يحتم الـواجب عليــه إذكاءها . . . ! ! !

وإنَّهم لا يقفـون عند هـذا الحدِّ المسرف ، مِنَ الهـراء الطائش ! . بـل يُوغلون فِيْ الجهل ، وينفذون إلى غورِه الكدِر ؛ فَلا يُبقـون منه ، حتَّى عـلى الحثالة . . . !

والـواقع : إنَّ ممَّـا لا يـردُّ مِنْ هؤُلاء المتـطرِّفـين طيشَهم ، ويُلملم منـه تمـاديَه ، ويقف بهم عنـد حدِّهم ، إنْ لم يـأْخذ بيـدهم للصِّراط السَّـوِيِّ ؛ ويهديهم بالنُّور الأبلج ، لِيُلمسهم الوقائع ممَّا يجهلون . . .

إنَّ باعث ذلك ، هو : عدم اعتناء الأدباء المعـاصرين ، بعرض أبعـاد هـذه الحادثـة المؤْلمة ، وفلسفـة هذه التَّضحيـة الفذَّة . . . فلم يتنـاول أحـد الأقلام القويَّة الحرَّة ، النَّابضة بـالحياة ، طـرفاً مِنْ هـذه النَّاحيـة ؛ فيُحلِّلها على ضوء الواقع ، متجرِّداً مِنَ الأهواء الشَّائنة ، والأغراض السُّود .

* * *

ولكن بينا نحن نأْلم ـ أمضَّ الألم ـ لإهمال هذه النَّاحية ؛ ونأْمل ـ أقـوى

الأمـل ـ مَنْ ينبعث لها ، فيُـزيل عنهـا ما علق بهـا مِنْ : إهمـالِ المهملين ، ووضْعِ الوضَّاعين ، ودسائسِ الهدَّامـين ، وجهْلِ الجهـلاء ، ليُعيد لهـا : الـرُّواء ، والنَّضارة ، والإشعـاع ، فتنزاح تلك الأكنَّـة ، عن تلك القلوب المِـراض ، وتتمزَّق هـذه الغشاوة ، عن هـذه العيون العمشـاء . . . ويعود بالضُّلَّال مِنْ تيههم الأبدِيِّ ، إلى حيث الطَّريق الألحب . . .

بينا نحن نألم ونأمل . . . وإذا بشعلةٍ تمتـدُّ ، فتفرِيْ تلك الـزَّحمة ، مِنَ الـظَّلام المحلولـك ، لتكـون أوَّل قبسٍ ، شـعَّ فَـوَصَـلَ إلى أعـماق هـذه الحقيقة ، وأرانا ما فِيْ عمقها ، مِنْ صفاء لْألاءٍ ؛ وامتدَّ ، فَعَرَضَ أبْعاد هذه التَّضحيـة الفـذَّة ، فِيْ روعتهـا ، بمـا فيهـا مِنْ قيـامٍ بـالـواجب ، فِيْ تفـانٍ وإخلاصٍ نادرين ، للمبدإ الرَّسيخ الأسُس ، والمتين الـدَّعائم ، والقـويم التَّعاليم . . .

فـ « صلح الحسن » ـ لـلإمـام « الـرَّاضِـيْ » مِنْ آل يـاسـين ـ فـذٌّ فِيْ موضوعه ، ووحيدٌ ـ أيضاً ـ ليس له ثانٍ ، حتَّى اليوم .

وإنَّـا لَنَأْمـل أنْ يكون لـه إخوانٌ ـ لا أخٌ فحسْب ـ فتتجـرَّد أقلامٌ حـرَّةٌ نزيهةٌ ، وقويَّةٌ نشطةٌ ، وتعود لجلاء هذه النَّاحية ـ مرَّةً أُخرى ! .

ذلـك أنَّ موضـوعاً لـه هذه الآثـار البعيدة ، فِيْ تـأْريخنـا الإسـلامِيِّ ، والمسـاس العميق ، فِيْ عقيدتنـا ، لا يكفِيْ ـ لعرضـه ـ كتابٌ واحـدٌ ، فِيْ هذا المستوى الرفيع . . .

فكيف . . . والموضوع امتدَّت له يـد الزَّيف والتَّحـريف ، ومشت فيه الأهواء ، وما فيها مِنْ : شينٍ ، وضلالٍ . . . ؟

فهو يحتاج إلى كتابٍ وكتابٍ ، تتناول مِنَ الموضوع كلَّ أبعاده ، وتعرض كلَّ خطوطه ، وتتناول كلَّ صُوره ، فِيْ : تحليلٍ رائعٍ ، واستقصاءٍ فذٍّ ، وعرْضٍ نزيهٍ . . .

ولَقَدْ شاء الله أنْ يكون للقطيف يدٌ فعَّالَةٌ ، فِيْ رفْع هذا القبَس ، لِيستنيرَ به التُّيَّاه ، حيث كانتِ السَّبب المباشر ، لإخراج هذا الكتاب القيِّم ، إلى الأفُق الأوسع . . . !

***

لَقَدْ تألَّمتُ ـ ولا أكتم ما فِيْ نفسِيْ ـ حين ما ساهم أُناسٌ لِطَبْع هذا الكتاب ـ فِيْ البدءِ ـ لأشياءٍ كثيرةٍ . . .

منها : إنَّ المساهمين فيه ، ساهموا ، وهُم لا يعلمون ما « الكتاب » ، فضلاً عن هذا الكتاب بالذَّات ، فإنَّهم لم يُلقوا عليه حتَّى نظرةً واحدةً . . . ولو قُدِّر لهم ، فهم لا يعرفون ما بين السُّطور . . .

ومنها : إنَّ عند هؤلاء كتباً قيِّمةً ، لعلمائهم وأُدبائهم ، وقَدْ ذهب بعض أصحابها فِيْ ذمَّة التأْريخ ، بعْد ما قاموا بواجبهمُ الإنسانِيِّ ؛ والبعض الآخر لا تقدر يدُه على الامتداد . . .

فلو أنَّ هؤلاء قَدْ قاموا بواجبهم ، فمدُّوا يدهم فِيْ سبيل إخراج هذه الآثار ، لكان خيراً لهم ، وأخْلَص لوجه الله ، مِنْ هذا الوجه ، الذِيْ قَدْ لا يرجو بعضهم ـ مِنْ ورائه ـ سوى الاسم الرنَّان . . . (1) .

---

(1) نعترف ـ هنا ـ بأنَّ بعض الأيدي الخيِّرة ، امتدَّت ـ بعدئذٍ أكثر مِنْ مرَّةٍ ـ فساعدت في سبيل إخراج بعض تلك الكُتُب القيِّمة ، فنرجو لها مزيداً مِنَ التَّوفيق . . .

علـى أنَّ هـذا الكتـاب ، لن يبقى رهـين الـرَّفّ ، فِيْ مـا لـو تـأخَّـرت أيـديهم ، عنِ الإسهـام ، فـإنَّ أيَّ رجـلٍ خـيِّرٍ ـ مِنْ ذلـك القـطر ـ أو أيَّـة مـطبعةٍ ، تـرجو الـرُّبح ، ستـدفع بـالكتـاب لأيـدِيْ القـرَّاء ـ إنْ آجـلاً ، أو عاجلاً .

أمَّا هذه الآثار الوطنيَّة ، فإنَّها ستبقى تُصارع الفناء ، وتُشـاهد معـارك الدُّود ، يُمزِّق منها الصَّفحات ، ويسمها بميسم العدم . . .

أمَّا ثالثة الأثافِيْ . . . فَدَعْهَا فِيْ ضمير الغيب ! .

لَقَـدْ كنتُ أفكِّر فِيْ هـذا ، وأتألَّم . . . ولكن شـاء الله أنْ تتنـاول يـدِيَ الكتـابَ ، وأخذتُ أقـرأُ فيه ، فـإذا بسَورة هـذه الحدَّة ، قَـدْ أخذت تهـدأُ وتقرُّ . . .

ثم بـدأتْ فِيْ التَّـلاشِـيْ ، ليحـلَّ ـ بعـدهـا ـ شيءُ مِنَ الـطُّمـأْنينـة والاستقرار . . . وشيءُ مِنَ الرَّجـاء الحلو ، والأمل الخميـل . . . فعسى أنْ يبعث الله بعض الأيدِيْ النَّديـانة ، فتـزفَّ إلى القرَّاء : بعض هـذه الآثار ، لِيُكتب لها البقاء والخلود . . . ويعمَّ منها النَّفع المرجوُّ .

***

كتاب « صلح الحسن » ـ كما قلتُ ـ فـذٌّ فِيْ موضـوعه ، لا ثـانِيَ له حتَّى اليوم .

فطلوعُه قَدْ سدَّ هُوَّةً عميقةً ، ذات غورٍ سحيقٍ ، وأتمَّ نقصاً شائناً ، فِيْ المكتبة العربيَّة . . . وقَدْ كانت ـ مِنْ قبْل ـ فِيْ مسيس الحـاجة ، لتـلافِيْ هذا النَّقص ، وسدِّ هذه الهوَّة . . .

وطالما سبَّب هذا النَّقص الشائنُ : أنْ يضلَّ كثيرون ، مِمَّنْ دَفَعَهُمُ التِّيه لتلك الهـوَّة ، وهم يخبـطون فِيْ محلولِـكِ الـظُّلمــة ، لا قبسَ يـدلُّهم عــلى الـطَّريق ، بـإشعـاعـةٍ مِنْ وهجـه . . . فسرعـان مـا تـدحـرجـوا فِيْ عميق الهوَّة . . . !

فهـو ـ اليوم ـ قَبَسٌ ، يستنـير بـه مَنْ أراد استـطلاع خفـايـا الصُّلح ، وما فيه مِنْ معانٍ ، هِيَ : مثالُ التَّضحية الفذَّة ، والجهاد الباسـل ، ونكران الذَّات ، والثورة على الأنانيَّة ، لتنحلَّ فِيْ المجمـوع ، والصَّالـح العامِّ . . . فما الصُّلح ، سوى إصلاح الأمَّة . . .

والكتــاب ـ إلى ذلــك ـ فِيْ الــذِّروة ، مِنْ حيث الأسلوب الــرَّشـيق النَّـدِيْ ، والتَّعبير الـرَّفيع الـرَّصـين ، والأداء الفنيِّ المتنـاسق ، فِيْ : عميقِ فكـرةٍ ، وشمولِ عـرْضٍ ، وخلوصِ نتائـجَ ، تحتكم للعقـل والمنـطق ، ولا تتباين ومقدِّماتها . . .

. . . فهـو : تحفةٌ أدبيَّـةٌ ، مشرقةُ الفكـرة ، صـافيـةُ العـرض ، تُحيط بأبعاد الفكرة ـ فكرة الكتاب ـ كما يحوط السِّوار بالمِعصمِ . . .

موضوع الكتاب ـ كما يُقرأُ مِنْ عنوانه ـ هو : صلح الإمـام الحسن عليه السَّلام ، للتَّاجر الوصوليِّ معاوية . . .

وهـو ـ فِيْ عبـارةٍ أُخـرى ـ يبحث النُّقـطة الحـرجـة ، مِنَ التـأْريـخ الإسلامِيِّ ؛ يبحث نهايةَ الخلافة ، وبدايةَ المُلك العَضُوض . . .

ولكنَّه لِيُحيط بالفكرة ، « كالسِّوار بالمِعصم » ـ كـما قلتُ ـ فإنَّـه يبحث فِيْ كلِّ ما يتعلَّق بالموضوع ، وما يمتُّ إليه بسببٍ قريبٍ ، أو بعيدٍ . . .

يُحـاول الكتـاب أنْ يعـرض « صلح الحسن » ـ كـما حتمتْــه الـظُّروف السَّوداء ، وفرضتـه المِحن المريـرة ، وحكمتْ به الخيـانات ، التيْ اختـطَّها معاوية ، فِيْ شراء الضَّمائر ، وبيْع العقائد .

يُحـاول أنْ يعرضـه فِيْ حلَّته القشيبـة ، لم تمتدَّ إليـه يـدٌ بـزيفٍ . . . أنْ يعرض جوهـرَه الأصيل ، وفكـرتَه الخـالصة قبْـل أنْ يُلَوِّثها الـوضَّاعـون ، ويُضفوا عليها تُهَمَهُمُ البغيضة ، التيْ تُمليها الأغـراض الشَّائنـة ، والضَّمائـر الزَّنخة . . .

فهو يعرض هـذا الحدَثَ ـ أو هـذا التحوُّلَ الخـطير ، الذِيْ انـطوتْ به صفحـة الخلافـة مِنْ واقعنـا التَّـطبيقِيِّ ، عـلى صعيـد الحيـاة . . . لِتَنفتـح صفحاتٌ داميةٌ فِيْ مُلكٍ عضوضٍ يمتدُّ بـه الشَّوط ، حتَّى يستكلب ، لِتُهـدر فيه الكرامات ، وتُمتهن الحرِّيَّات .

يعرض الكتابُ هذا الحدثَ ، عرْضَ الحرِّ النَّـزيه ، الَـذِيْ لا يميل مـع الهوى . . . عرْضَ الحاكم العدْل ، الذِيْ يأْخذ بالأحداث الثَّابتـة ، ويقف عـلى الأدلَّة القـويَّة ، مِنْ جـوانبها : دفـاعـاً ، وهجـومـاً ؛ لِيُصـدر الحكم الصَّائب ، بعيداً عنِ الارتجال ، منزَّهاً عنِ الميل والهوى . . .

* * *

لِمَ ذا صالح الحسنُ عليه السَّلام معاويةَ ، وتنازل له عنِ الخلافـة ، التيْ هِيَ المنصِب الإلهِيُّ له ، والتيْ هِيَ محرَّمةٌ على الطُّلقاء وأبنائهم ؟ ! .

هذا سؤالٌ قَدْ يحـار البعض فِيْ الجواب عليـه . . . هذا إذا لم تُمـلِ عليه الإرادة الموجِّهة أنْ يُجيب عليه ـ كما تُريد ! .

ولكنَّ هذا الكتاب الفذَّ ، يُجيب عليه الجواب الحاسم ، ويُقـدِّم الحكم الفصْل ، الذِيْ لا يدع للدَّسائس مكمناً ، حيث يجلو عنِ الحقيقةِ الغطاءَ ، وقَدْ شاء مَنْ شاء إسدالَه ؛ وجاء مَنْ جاء ، فما اهتدى إلى الجانب المتـداعِيْ منه ، والنَّاحية المتمزِّقة . . .

وبقِيَ ـ نتيجـة تلك الأهـواء ـ يحجب عنِ الأعـين ، نـورَ الحقيقـة الأبلج ، ويطبع على القلوب بالرَّين . . .

وبقِيَ النَّـاس ـ إلى ذلـك ـ منسـاقـين للمشيئـة ، لم يُحـاولـوا هتْـكَ الحجـاب ، ولا مزْقَ الغـطاء . . . ولم يمـرَّ الإعصـار ، الـذِيْ يجتـاح هـذا الضَّباب المتلبِّد الأدكن . . .

وجاء الكتاب ـ وهو الإعصار ، الـذِيْ اجتاح هـذا الضَّباب الأفحم ؛ وهو الطُّوفان ، الذِيْ غَسَلَ مِنَ القلوب درنَها . . .

جاء ، فَمَحَّصَ الحقيقة البيضـاء ، وأعاد لهـا : رُواءَها ، وصفـاءَها ، ووهجَها . . . وألمسها كلَّ مَنْ رِيْنَ على قلبـه ، وكسر منها الأقفـال ، إلَّا مَنْ قُدَّ قلبُه ، ومِنَ الصَّخر الصَّليد ، فلستَ بهـادٍ مَنْ تُحبُّ ؛ « وَلَكِنَّ الله يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ » . . . ![١] .

❊ ❊ ❊

وهناك ـ بين تلافيف الكتاب ـ فكَرٌ قَدْ نُخالفه فِيْ تحليلها .

ولعلَّ أوَّل هذه النِّقاط ، هِيَ الفكرة التيْ عرضها فِيْ[ص ١٢] . فإنَّنا

---

(١) القصص : ٥٦ .

نُخالف العلاَّمة المؤلِّف فِيْ الرأْي ، حول تَعليله تلك « الظَّاهرة » ، مِنْ تأْريخ الإمام السِّبط .

فإنَّنا لا نرتضِيْ منه أنْ يُعلِّل زواج الحسن الزكِيِّ ، بهذا التَّعليل ، حين ما يُرجعها لتحليل « المطلَّقات » لأزواجهنَّ ، ليس إلاَّ . . .

قَدْ يكون هذا واقعاً ، فِيْ بعض الحوادث ، لا فِيْ كلِّها .

وقَدْ كنَّا نودُّ أنْ يُحلِّل هذه « الظَّاهرة » تحليلاً أدقَّ ، ويعرض لها بتركيزٍ أعمق ؛ فيتناولها بالعرض المبسَّط ، مثل ما تناول المواضيع الأخرى مِنَ الكتاب .

. . . وكان الأفْضل لو عَرَضَ للموازنة ، بين : كثرة زواج السِّبط المجتَبى ، وكثرة زواج الجدِّ المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، الذِيْ ضمَّ تحت جناحه تسعاً مِنَ الزَّوجات ، حتَّى اختار الله له دارَه الباقية .

وليس بخفِيٍّ المغزى السياسِيُّ للرَّسول الأقدس صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، مِنْ هذه الزِّيجات الكثر .

وليس بخفِيٍّ ـ أيضاً ـ أنَّ هذه النَّاحية ، مِنْ حياة الرَّسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، قَدْ أشار إليها المغرضون « بالانتقاد والغمز » ـ كما يقول المؤلِّف ، عنِ الإمام السبط .

* * *

وهناك أشياءُ تتعلق باللُّغة ، كقوله : [وجوهه الثَّلاث] ـ ص ٧٩ ـ والصحيح : « الثَّلاثة » . وقَدْ تكرَّرت هذه ـ ص ٩١ ـ [الخطوط

الثَّلاث] . و ـ ص ٩٢ ـ [الأقطار الثَّلاث] .

وقَدْ تكرَّر هذا الخطأُ ، فهو منتشرٌ بين تضاعيف الكتاب .

ووجود أمثال هذا الخطإ ، هو كدليلٍ مجدَّدٍ ـ وإنْ كان قائماً بذاتـه ـ على أنَّ الكمال المطلَّق ، لله وحدَه . . . !

القطيف

حَــوْل

« حَديْثِ العَشِــيَّة »

نُشر جــانــبٌ مـنــه فِيْ مجـلَّة الأديـب
ـ البيروتيَّة ـ فِيْ عددها الثَّامِنِ ، مِنْ
عــامـهــا العــاشر ـ أغـســطس
١٩٥١ م .

كنتُ ـ فِيْ اليوم الأوْل [١] ، الذِيْ نزلتُ فيه « المصحَّ » [٢] ـ على فراغ يدٍ ، مِنَ الكُتُب ؛ فأنا منها على الفقر المدقع . . .

ولكنِّي ـ فِيْ اليوم الثانِيْ ـ كنتُ : ثريّاً ، مِنْ هذه النَّاحية . . . ثراءً فكريّاً ، لا ثراءً ماديّاً ، ممَّا يصل ـ عند بعضهم ـ إلى حدِّ البشَم ، فيُرهقون أعصابهم ، ويُثقلون ضمائرهم ـ إنْ كانت لدى كلِّهم ضمائرُ ، لا زالت على حسٍّ .

وليسُوْا يجنون سوى الجمْع بين تعَبِ : الجسم ، والقلب ، فِيْ ما هم يسعون وراء بريق الذَّهب ، ورنين الفضَّة .

وهل يُعقب هذا التَّعبَ راحةٌ . . . ؟ !

إنَّ قاموس حياتهم ، لا يضمُّ ـ بين دفَّتيه ـ كلمةً ، تُسمَّى « راحةً » ؛ وليس فِيْ حياتهم لها مِنْ موضعٍ . . . ولا لجسمهم منها نصيبٌ . . . !

---

(١) كان في النِّيَّة : أنْ يكون هذا الموضوع ، الحلقة الثَّانية ، في مذكِّراتٍ أضعها عن هذا الإستشفاء .
ولكنِّي عدلت عن ذلك ، بعد تمام هذا الموضوع ، فأهملت ـ لذلك ـ حلقته الأوْلى .
وإنَّما أبقيت هذه ، لأنَّها ذات موضوعٍ مستقلٍّ .

(٢) مستشفى شركة الزيت ، « العرميركيَّة » ، بالظَّهران . . وهو مستشفى ضخمٌ ، مزوَّدٌ بالوسائل الفنيَّة .

وقد مكثت في هذا المستشفى ، قرابة شهرٍ ونصفٍ ، أستشفي عن « داء الصُّفرة » ـ اليرقان ـ بعد أنْ قضيت قرابة نصف شهرٍ ، أتَرَدَّد على مستوصف القطيف . . . ، فلم يُجدِنِي فائدةً .

بل تطوَّر ، وكان العلاج خاطئاً ومعاكساً ، مما كانت له ردود فعلٍ سيِّئةٌ ؛ ولكن الله ـ سبحانه ـ سلَّم .

إنَّهم ـ فِيْ موازنةٍ ماديَّةٍ ـ لَيُعطون للفَلْس الواحد ، قيمةً ، لا تُساويها ما يُعطونه لقطراتٍ مِنْ دم حياتهم ، الدَّافق ـ فِيْ عروقهم ـ بالحياة .

وإنَّ قطعةً مِنْ قلبهم ـ فِيْ لونها الأدكن ـ لا تُساوِيْ بريق قطعةٍ ، مِنَ الذَّهب ، يخطف بريقُهَا الأبصارَ . . . فما القلب كلُّه ، سوى قطعةٍ ، مكوَّنةٍ مِنْ : لحمٍ ، ودمٍ ، لا رنين لها ، ولا بريقَ . . .

أصبحت ثريّاً . . . ولكن ثروةً ، لا تجرُّ أذىً ، ولا تحمل تبعةً .

* * *

كان أوَّل ما انتفعتُ به مِنْ ثرائِيْ ، بعْد ذلك الفقر ، أنِ امتدَّت يدِيْ إلى اليراع ، لأخطَّ رسالةً لصديقِيْ « بولس سلامة » .

ولكن ما هو الدَّافع لذلك ، هنا ، وأنا على سرير المرض . . . ؟ !

ليس سوى الشُّعور الباطنيِّ ، بأنَّ هذا المريض ، يبثُّ شكواه ، لذلك المُقعَد ، فلعلَّه يجد ـ فِيْ ذلك ـ ما يحدُّ به مِنْ سَوْرة الألم النَّفسِيِّ .

أجل ! صديقٌ يصف حالة مرضه ، لصديقٍ أقعدته الآلام ـ والدَّهر عدوُّ العبقريَّة .

إنَّه عداءٌ ثابتٌ ، منذ القِدم . . . لا تزيده الأيَّام ، إلَّا جدَّةً ، وامتداداً . . . ولكنه عدوٌّ ، لا يزال خاسر المعركة .

العبقريَّة « جوهرٌ » . والألم « مادَّةٌ » . ومِنَ الثابت إلى حدِّ اليقين : أنَّ المادَّة دون الجوهر ، فلا يتأثَّر الأعلى بالأدنى .

وحيث لا يتأثَّر الجوهر بالمادَّة . . . فإنَّ المادَّة أعجز ما تكون أنْ تتغلَّب

على الجوهر . . . وما الألمُ ، إلاَّ بوتقةً ، تُصهر فيها العبقريَّةُ ، فتتوقَّد . . .

مِنْ هذه المحاولة ، تبيِنْ لنا هذه النَّتيجة :

إنَّ العبقـريَّة ، تسـير في طريق ، لا يمـرُّ بهـا الألم ، فـإنْ صـادفهـا ، لم يزدْها ، إلاَّ قوَّةً ومضاءً ، وصفاءً ونُضجاً .

ولعلَّ أكبر دليلٍ ، على ما نذهب إليـه : عبقريَّـة هذا المُقْعَـد ـ بولس ـ تلك العبقـريَّة ، التِيْ شعَّتْ فِيْ جَـواء الأدب ، وعملتْ فِيْ حقله ، وحاولتْ أنْ تُعبِّـد منـه طـريقـه الشَّـائـك ، وتُبـدِّد ـ مِنْ جـوِّه المكفهِـرِّ ـ تلبُّـدَه بالضَّباب . . .

إنَّ جسمـه « هدفٌ » ، وجَّـه إليه الـدهر سهـامَه المـدميـة . . . ولكنَّ عبقريَّتَه المتفتِّحة ، وذهنَه المتوقِّد ، محاطان بسياجٍ حصينٍ ، تـرتدُّ عنـه هذه السِّهام . . .

وإنِ انبعث منهـا « شررٌ » فَلِنَـطَّلِعَ ـ بهذا الـوهـج ـ عـلى امتـداد هـذه العبقريَّة ، وعمقها ، دون أنْ نقف منها على النِّهاية .

* * *

كُتُبٌ وافـرةٌ ، تتناول يـدِيْ : ذاك ـ تارةً ـ وأُخـرى : هـذا . . . وأنـا عـاكفٌ على المـطالعـة ، بِنَهَمٍ شـديـدٍ ، كجـائـعٍ سـاغبٍ ، أو عـطشـانٍ ولهـانٍ . . . ليس لِنَهَمٍ جوعـه ، مِنْ شِبَعٍ ، ولا لِلَهبـة ظمئِه مِنْ رِيٍّ . . . فـما همـا بعـطشٍ ، أو جـوعٍ مـادِّيَّين . . . إنَّهما جـوْعُ العقـل ، وعـطَش الرُّوح ؛ وهما لا يشبعان . . .

أتـذكَّر : إنَّنِيْ ابتـدأْتُ فِيْ القـراءة ، بعـددٍ مِنْ أعـداد مجلَّة « الهـلال »

ـ المصرِيَّة ـ وثنَّيتها برواية [فِيْ سبيل التَّاج] ، « للمنفلوطيّ » . وقرأتُ بعض مؤلَّفات « سلامة موسى » . . . وقَدْ طافت بفكرِيْ « خواطرُ » ، حول ما قرأتُه لسلامة موسى . . . !

خواطُر « متباينة » ، طافت بفكرِيْ ، حَول ما قرأتُ . . . فخاطرةٌ : تحبيذٌ لِمَا قرأتُ . وأُخرى : تجعلنِيْ أقف موقف الحياد . وثالثةٌ : تدعونِيْ لتفنيد ما أجده مِنَ : الإفتئات ، والإدِّعاء الكذوب . . . وفضْح ما هنالك مِنْ زيفٍ وتناقضٍ . . . (١)

وإنِّي لَشديد الأسف ! ، لأنِّنِيْ لم أُدوِّن هذه الخواطر ، وقتئذٍ . . . ولم يبقَ منها ـ فِيْ « لوحة ذاكرتِيْ » ـ سوى خطوطٍ باهتةِ الظِّلِّ . . . لم تبرح أنْ مرَّت عليها يد النسيان ، فمحت منها ما بقِيَ يُصارع الفناء . . .

غير أنَّ شيئاً واحداً ـ مِنْ بين ذلك ـ لا يزال فِيْ الذَّاكرة على قرارٍ ، قَدْ رُسم بحرفٍ مشعٍّ . . .

---

(١) في كتب سلامة موسى ، أكثر مِنْ جانبٍ مِنْ جوانب الهدم والتَّضليل .

وهو أحد الكتَّاب الذين يحملون وزر عددٍ كبيرٍ مِنَ الشَّباب ، الذين انساقوا وراء أضاليله ، قبل أنْ يشتدَّ منهمُ السَّاعد ، أو يستقلَّ منهمُ الفكر .

وهو أحد المستعمَرين فكريّاً ، سواءٌ أفي مواضيعه الإلحاديَّة ـ وله مواقفُ مفضوحةٌ ، أشرنا لبعضها ، دون ذكرٍ لاسمه ، في موضوعٍ مِنْ مواضيع غير هذا الكتاب ـ في « أدواؤنا » (*) .

. . . أم في موقفه المعادي للُّغة العربيَّة الفصحى ، وادِّعاءاته ضدَّها . . .

ويأخذ منِّيَ العجب غايتَه ، أنْ ينخدع به ، حتى بعض مَنْ له اتِّجاهٌ قوميٌّ ، فيتغاضى عن موقفه الشَّائن مِنَ اللُّغة العربيَّة ، لأنَّ هناك جامعاً مشتركاً بينهما ـ هو الإلحاد ـ مما يجعله يتناسى موقفه المخزي هذا ، مِنْ أوَّل روافد القوميَّة : اللُّغة .

. . . .

(*) صرَّحنا باسمه ، في هامشٍ ، في الطَّبعة الثَّانية .

« شيءٌ » . . . لا أظنُّ يد النِّسيان ، بـالتِي تستطيـع أنْ تمتدَّ إليـه ـ مهما دار الزَّمَنُ بدُولابه ، المغذِّ فِي السَّير ـ لتمحو منه الحروف . . .

ذلك هو شوقِيَ الملتهب ، لقراءة « حديث العشيَّة » .

كنتُ أنتـظر هـذا الكتـابَ ، بفـارغ الصَّـبر ؛ هـو وكتـاب « بـولس سلامة »[1] ، عندما حملها إليَّ « البريد » ، كما قَـدْ حَمَلَ ، غـيرَ مرَّةٍ ، مثـل هذه الهديَّة ، مِنْ مؤلَّفات ذلك الصَّديق . . .

و « حـديث العشيَّة » ـ ذلـك الكتاب المنتـظَر بـالشـوق ـ كـان المؤْنس والسلوة ـ مضافاً لغذائه الفكرِيِّ . . .

ويـزداد الأنس ، وتتضاعف السلوة ، كـلَّ مـا طـافتْ بمخيلتِي صـورة مؤلِّفـة . . . وَبعبارةٍ أصـحَّ : صورة آلامـه ، وما وجَّـه إليـه الـدهـر ، مِنْ قاسِـيْ سهامه . . .

لعـلَّ مِنْ حُسن الحظ : أنْ يُواجهنِي طبيبِيْ ـ فِيْ اليـوم ، الذِيْ أخـذتُ أقـرأُ فيه « حـديث العشيَّة » ـ بهـذا الحكم القاسِـيْ : ألَّا أبـرح السريـر ، لحظةً . . . !

ولأختصر ما وراء هذا الحكم . . . ببيت الأستاذ بولس نفسه :

---

(١) هـذا الكتـاب يضم مـا أُلقي في الحفلة التَّكـريميَّـة التي أُقيمت لبـولـس ، بعـد إخـراجـه « ملحمـة عيـد الغدير » ، وما قيل في هذه المناسبة ؛ وبينها مقالٌ لي .

وقد كان هذا المقال فاتحة مرحلةٍ جديدةٍ ، مِنْ حياتيَ الأدبيَّـة ، حيث كان بـاكورة آثـاري ، التي طلعتُ بها في الصُّحف . وإنْ كنت قد وأدته ـ بعد ـ في ما وأدت مِنْ آثارٍ ، تتَّسم بدور اللَّانضج ، حيث تُسجِّل مرحلة الطُّفولة الأدبية .

إنَّ حَـظِّيْ مِـنَ ٱلْحَـيَـاةِ سَرِيـرٌ   صِـرْتُ مِنْهُ ، فَلَمْ يَعُـدْ خَشَبِيّـاً [1]

ولكنـه فـرقٌ بـين : مَنْ لا يستـطيـع أنْ يـبرح السَّريـر . . . وبـين مَنْ يستطيع ، فلا يبرحه . . . ! أو لا يُسمح له بذلك . . . !

* * *

هذا كتابٌ جديدٌ ، يُضيف به « بولس سلامة » ، إلى المكتبـة الفلسفيَّة العـربيَّة : « ثـروةً » ، ويسدُّ « فـراغاً » . . . فهـو كتـابٌ لا غنى عنـه لأيِّ أديبٍ ، متطلِّعٍ إلى الحياة .

كتـابٌ ، يجمـع إلى بسـاطـة الأسلوب ، وقـوَّة الأداء : عمقَ الفكـرة ـ لحدٍّ مَّا ـ ووضوحَ الدَّلالة . . .

وإخراجُه بهذا النَّمط ، عن قصدٍ وإرادةٍ مِنَ المؤلِّف ، ليكون « حديث العشيَّة » : كتاب الجميـع ، لا كتاب « فئـةٍ » بعينها . . . وهـذا ما نحمـد المؤلِّف مِنْ أجْله . . .

ولا تأْخُذْ « تواضع المؤلِّف » ـ فِيْ تصديره ـ اعْترافاً ، تُدينه به ، كأنَّـكَ قاضٍ ، وهو خصمٌ .

لا . . . ! فـإنَّ « حـديث العشيَّـة » ، أجـلُّ مِنْ أَنْ يخـدعَ « تـواضـعُ

---

(١) هذه صورةٌ اختارها ـ أنا ـ لهذا البيت الباكي : وهي :

« صارَ منِّي فلمْ يعُدْ خشبيًا »

وأذهب إلى أبعد مِنْ هذا . . . فأزعم : أنّه في هذه الصُّور أشعر وأروع . . . والمبالغة التي يرمي إليها الشَّاعر أتمّ . . . فالشَّاعر يُريـد : أنَّ إلفة السـريـر الطويلة صيَّرت سريره قـطعةً منـه . . . لا أنَّ الشَّاعـر صار قـطعةً مِنَ السرير . . .

هذا رأيي ، وللشاعر رأيه .

مؤلِّفه » ، عمَّا فيه مِنْ ميزاتٍ وخصائصَ . . .

« حديث العشيَّة » : يُغذِّيْ منكَ العقل ، بما فيه مِنْ حيويَّـة فكرٍ . . . ويُملِيْ عينيكَ بما فيه مِنْ عنـاصر جمالٍ . . . تنـال منه كـلَّ ما تُـريد ، وفـوق ما تُريد ـ دون مشقَّةٍ ، أو عناءٍ .

إنَّه كتابٌ قيِّمٌ مفيدٌ ، جاءت مواضيعه منسجمـةً ، لا تنافـر بينها . . . وهـو لم يقصد ـ آنَ كَتَبَ مـواضيعه ـ أنْ « يُؤلِّف بـين الشَّتيتين » . ولعلَّه لـو كَتَبَ ، مـا كَتَبَ ، عن قصْدٍ ، لَمَـا استـطاع أنْ يُؤلِّـف ، أكـثر ممَّـا هـو عليـه ـ الآن ـ مِنْ تآلفٍ وانسجامٍ ، دقيقين .

ولربَّما يُقلِّل مِنَ الأداء الفنيِّ ، والتَّسلسل الموضوعِيِّ ـ إنْ أُسلوباً ، وإنْ فكرةً ـ إذا كان الباعث على ذلك ، غير « باطنيٍّ » .

فلو واجهنِيْ طلَبٌ ـ مهما كان نـوعه ـ لأنْ أكتُب مـوضوعـاً مَّا ، فلعـلِّيْ أتصوَّر عقباتٍ ، قَدْ تكون غير ذات موضوعٍ خارجِيٍّ ، أو أثرٍ واقعِيٍّ . . .

ولعلِّيْ أشعر ـ نتيجة هذا التَّصوُّر ـ بالعِيِّ والعجز . . . وقَدْ لا يبعد هذا الشُّعور الطارِىء ـ أو هذا الظنُّ الخـاطِـىء ـ أنْ يتجسَّد حقيقـةً صارخـةً ، تسدُّ عليَّ مسْلك القول والحديث . . .

وجائزٌ أنْ يكون ذلك بالعكس ، فِيْ ما لو أقدمتُ على تحبير مـوضوعٍ ، يكـون فيه هـذا الإقدام : إجـابةً لهمسٍ « بـاطنيٍّ » ـ أيْ : تلبيةً لنـداءٍ غير مشتركٍ ؛ تلبيةً لنداءٍ خاصٍّ بنفسِـيْ ، منبعثٍ مِنْ أعمـاقِيْ . . . فَقَدْ أُجـوِّد فيه ، حيث أنَّ أسباب التجـويد كلَّهـا تتوفَّـر ، وتدعـو للتَّجويـد ، وتدفـع إليه .

أمَّا الذِيْ يُجوِّد فِيْ مثل تلك الحال ـ يُجوِّد فِيْ مواضيع ، حبَّرها تلبيةً لنداءٍ بعيدٍ عنِ النَّفس ؛ أو لنداءٍ « مشتركٍ » بين : النَّفس ، والغير . . .

. . . فـذلك ـ وبـالأخصِّ الأوَّل ـ عـلى نـدرةٍ فِيْ الـوجـود ، وعـزَّةٍ فِيْ المنال . . . إنَّها « ظاهرةٌ » ، لا تمتاز بها إلَّا أفرادٌ ، على قلَّة عددٍ[1] .

ولستُ بالذِيْ يقول : إنَّ الأستاذ بولس ، حبَّر مواضيع كتـابه ـ هـذا ـ لمجـرَّد نداءٍ ، بعيـدٍ عن نفسه ، فحسْب ! . إذ مِنَ الجـائـز ـ بـل ولعلَّه مِنَ المحتوم ـ أنَّه تلبيةُ نداءٍ « مشتركٍ » ، بين : النَّفس ، والغير . . .

ولكن هـذا « الإشتراك » ـ مـع فرضـه ـ يُبرهن لنـا ، على : خصبٍ فِيْ الفكر ، وامتدادٍ فِيْ الخيال ، وعمْقٍ فِيْ العبقريَّة .

***

هذه ناحيةٌ ـ مِنْ نواحِيْ الكتـاب ـ ضُمَّ إصبعاً لـكَ ، كإشـارةٍ إلى أوَّل نـاحيـةٍ ـ مِنْ نـواحِيْ الكتـاب ـ فلعلَّنـا نحتـاجهـا ، عـمَّا قـريبٍ ، أو عـمَّا بعيدٍ . . .

***

وناحيةٌ أُخرى :

دعْنـا نفترض ـ وهـو الواقـع ـ أنَّ بولس ، كـان مِنْ أُولئك : النـادرِيْ

---

(١) نستثني ـ مِنْ بين هؤلاء ، بالطَّبع ـ « شعراء المناسبات » ، الذين لا يُـواتيهم الشِّعر ، إلَّا عنـد الطَّلب ؛ بـل لا يُحسـنون النَّظم ، إلَّا عنـد الطَّلب . . . وشعـرهم ـ وبالأصح : نـظمهم ـ في غير المنـاسبـة : هـذيـان المحموم . . .

الوجود ، العزيزِيْ المنال ، القليلِيْ الأفراد . . .

ولكن هل بإمكان أحد هؤلاء : أنْ يُجوِّد ـ رغم تلبية هذا النِّداء « البعيد » ، أوِ « المشترك » ـ مع تحديدٍ للظَّرف الزَّمنِيِّ . . . ؟

ولعلِّيْ عنكَ ـ يا قارئِيْ ! ـ مبتعدٌ بفكرتِيْ هذه . . . فلأدِّنِيْ منكَ شيئاً ، ولتدِّنِيْ أنتَ ـ أيضاً :

يتألَّف هذا الكتاب مِنْ مواضيع ، أُذيعت مِنْ محطَّة « راديو الشَّرق » ، التِيْ كلَّفته أنْ يُوافيها بمحاضراتٍ ، تُذاع منها ، بالنِّيابة عن كاتبها . ولكنَّها مقرونةٌ بشرطِ : ألَّا يتجاوز الحديثُ دقائقَ معدودةً . . .

فلأفرض نفسِيْ : أنِّيْ مِنْ أُولئك : « القليلين ، النادرين ، العزيزين » . . . الذين بمقدرتهم تلبية النِّداء « البعيد » ، أوِ النِّداء « المشترك » . . .

ولو فرضتُ نفسِيْ منهم ، فلعلِّيْ ـ فِيْ ما أحْسَب ـ أنْ أجدنِيْ فِيْ الموضوع ، الذِيْ أُؤدِّيه فِيْ صفحةٍ واحدةٍ ، لا أكتفِيْ ـ هذه اللَّحظة ـ بصفحاتٍ مضاعفةٍ . . . لأنِّيْ قَدْ أفقد الأداء الفنِّيَّ ، وقَدْ اتجنَّب الطَّريق السوِيَّ ، وأفتقد القدرة على الإيجاز . . . وقَدْ تجمح مِنْ بين يدَيَّ العباراتُ الفنيَّة ، الموجزةُ المقطع ، الواضحةُ المقصد . . .

وكلُّ هذا يدعونِيْ لِمَا لا يرتضيه الفنُّ الأدبِيُّ ، ويدفع بِيْ لمجانبة الأداء الفنِّيِّ . . .

ولاِخْتلاف المواضيع ، التِيْ أكتبها ـ لحظتئذٍ ـ أثرٌ محسوسٌ ـ أيضاً ـ ينعكس أثره على الموضوع .

إذن . . . فـالـذِيْ يُلبِّيْ طلَبـاً « بعيـداً » ـ أو « مشـترَكـاً » ـ مشروطـاً بشـرطٍ ، كهذا . . . فيُلبِّيْ هـذا النِّـداء ، بـرشـاقـةِ أُسلوبٍ ، ووضـوحِ فكـرةٍ . . . فـإنَّ هـذا الفنَّ ، لَيَستحق كـلَّ هـذه العنـايــة ، وكـلَّ هــذا الإحتفال . . .

* * *

هذه ناحيةٌ ثانيةٌ احتفظْ بها ـ يا قارئِيْ ! ـ مِنْ نواحِيْ الكتاب . . .

أمَّـا أنـا فيكفينِيْ دليـلاً عـلى علوِّ منـزلـة الكتـاب السَّـامقـة ، هـاتـان النَّاحيتان .

* * *

هـذا رأْيِيَ « الإيجابِيُّ » ، فِيْ كتـاب صديقِيْ « بـولس سـلامـة » . . . ولستُ أفرض عليك ـ يا قارئِيْ ـ الأخذَ به « فرضاً » . . . ولا أُحاول التأْثير عليكَ ، بالاقتناع بما أذهب إليه فيه . . .

غير أنِّيْ أقول : إذا لم تطمئنَّ إلى حكمِيْ ، فَلْتَطُفْ بمواضيع الكتـاب ، وتَسبر غوره . . . فإنَّكَ لن تعدمَ نواحِيَ أُخرى ، غير هاتين . . .

وإنِّيْ لعلى ثقةٍ : أنْ ستعود ، وأنت تُشاطرنِيَ الإعجاب بهذه العبقريَّة ، المنتجة المِخصاب . . .

وأنـا إذْ لا أحفـل بـالتَّـدليـل ، عـلى مـا أذهب إليـه . . . فـلأدفعـكَ ـ يا عزيزيَ القارِىء ! ـ لِتَتمتَّع بهذا التَّطواف بين صفحات الكتاب ، تسبر مـواضيعـه ، كَيْ مـا تستفيـد منـه ، وتنهـل مِنْ ينبـوعـه الـثَّرِّ ، العـذب العميق . . .

وليس يُعوزنيَ التَّدليل ـ لو أردتُه . . . فنظرةٌ واحدةٌ ـ فِيْ الكتاب ـ تكفل لِيْ إثبات ما ذهبتُ إليه ، وما ارتأيتُه فِيْ الكتاب .

ولكن . . . فلعلَّه خيرٌ أنْ أُشير إشارةً ، ولو مِنَ الشَّاطىء البعيد ، إلى ما يضمُّه الكتاب ـ بين دفَّتيه ـ مِنْ مواضيع :

يتألَّف الكتاب : مِنْ فصولٍ أربعةٍ :

« لمحاتٌ فِيْ الفلسفة » .

« نفسيَّةُ الجماهير » .

« بحثٌ فِيْ الأديان القديمة » .

« شوارد » .

وكلُّ واحدٍ مِنْ هذه الفصول ، يضمُّ مواضيعَ مختلفةً . . . ولكنَّها لا تتعدَّى الدَّائرةَ ، والخطوط الأوْلى ، التِيْ رُسمت إليها . . . وإنْ تباينتِ الخطوط الثَّانوية ، واختلفت : شكلاً ، ووضعاً . . .

القطيف

يَومٌ في الأحسَاء

فيِ الطَّرِيق

مـا كـان لِيْ ـ ولـرفيقَيَّ ـ عـزمٌ قطُّ ، أنْ نخـرج عن حـدود القـطيف « الجغرافيَّة » ، والسيَّارةُ تدبُّ بنا فِيْ طريقهـا إلى « الدَّمَّـام » ، والغايـة هِيَ « الظَّهران » . . . [1]

ولكنَّ عزماً جديداً ، وُلد لرفيقَي الرِّحلة ، فِيْ « الدَّمَّـام » ، بأنْ نـزور « الأحساء » . . . ولم تُجْدِ مقاومتِيْ فتيلاً . فرأيتُ اللِّياقـة تفرض عَـلَيَّ : أنْ لا أقف فِيْ سبيل عزمهما . . . فتمَّ ما أراداه ، بدون مشقَّةٍ وعسرٍ . . .

وصلْنَا « الظَّهـران » ، وفِيْ نيَّتنا ، حسْب مخطَّط الرِّحلة الجـديد : أنْ نبرحها غداً ، بعْد أنْ نقضِـيَ سواد هذه اللَّيلة هنا . . .

ولكنَّ عزماً آخر ، قَدْ طرأ منهما ، فحكم بالسَّفر ، بعْد ثلاث سـاعاتٍ ونصفٍ ، على غروب الشَّمس . . . !

واعـترضتْ دربَنَا عـوائقُ ، لم تلبث أنْ تـلاشت أمـام قـوَّة هـذا العـزم الجارف . . .

---

(١) حـدود القـطيف الجغـرافيَّة ، تصـل إلى مـا فـوق « أبقيق » مِنْ نـاحيـة الجنـوب . و « أبقيق » ، و « الظَّهران » ، و « الخبر » ، و « الدَّمَّام » كلُّها مدنٌ قطيفيَّةٌ جغرافياً .

وحقول الزَّيت ـ في هذه المنطقة ، عدى نزرٍ يسيرٍ منها ـ كلُّها في حدود القطيف الجغرافيَّة .

ويأْتِيْ فِيْ طليعة تلك العوائق ، التِيْ تخطَّيناها ، رغْم مساسها بعـاداتٍ مأْلوفةٍ ، ليس مِنَ الميسور التَّهاون بها :

إنَّ الأحسـاء ، لا تزال تـرى فِيْ لُبْس « البِشْت » - « العباءة » - ضربـة لازبٍ ، ومِنَ الظَّروريَّات الأوْلى ، المتمِّمة لرجولة الرَّجل الكـامل ! . ومَنْ فَقَدَ تمام رجولته ، فكأنَّه انظمَّ إلى « نادِيْ العراة » . . . ! ! !

وإنِّيْ ، وأحد الرفيقين ، عاريان مِنْ هذا « الكمال » المزعـوم . . . لأنَّنا قَدْ خلَّفناه وراءنا ، فِيْ بيتنا . . . فماذا نعمل ؟ .

إذن لا بدَّ لنا أنْ نتخـلَّى عن هذا « الكـمال » المزعـوم ! ، ونتحمَّل - فِيْ سبيل ذلك - عَنَتَ التَّجديد ، ونحمل عبءَ مسؤُوليَّة المجدِّد . . .

أخذتِ السَّيارة طريقَها للأحساء . وبعْد أنْ مرَّت بنا على « غـونان » ، و « بقرة » ، و « أبقيق » - وفيها فروعٌ لشركة الزَّيت « العرميركيَّة » - ودَّعنـا القـطيف ، فِيْ آخـر حـدودهـا الجغـرافيَّـة ، واستـقبلنـا الأراضِـيَ الأحسائيَّة . . .

عندئذٍ أخذتِ السَّيارة ، تتعثَّر فِيْ الطَّريق ، بين : التِّلاع ، والـوِهاد ، بعد ما خرجنا مِنْ « أبقيق » . . . حيثُ انْقطع بنا - بخروجنا مِنْ « أبقيق » - الطَّريقُ المعبَّدُ .

إنِّيْ لَمَشُوقٌ لِغفْوَةٍ ، لَعَلِّيْ أنسى - خلالها - آلام هزَّات السَّيارة - فِيْ سيرها المتعثِّر - وأستريح مِنْ ضجَّتها ودويِّها ، وصفير الهواء ، الذِيْ ينـثر الرِّمـالَ ، فيسدُّ الفضاء . . .

وكـلَّ ما استسلمتُ لغفـوةٍ ، أفزعتنِيْ حـركةٌ مفـاجئةٌ ، يَفـرضها عـلى

السَّيارة ، هذا الارتفاعُ ، أوِ ذاك الهبوطُ ، حين ما تعترضها هذه التِّلاع ، أو تلك الوِهاد ، أو هاتيك الأكمات والتِّلال ، فيفرُّ النَّوم فزِعاً ، وأستيقظ مرْعباً . . .

وبعْد أنْ قضينا أكثر مِنْ ثلاث ساعاتٍ ، فِيْ الطَّريق ، وصلنا الأحساء ـ أيْ : بعْد مضيٍّ سبع ساعاتٍ ، على الغروب ـ فاستسلمتُ لنومٍ عميقٍ ، ولم أستيقظ فِيْ الصباح ، إلاَّ على صوت أحد الرِّفاق . . .

وبعْد تناول طعام الإفطار ، أخذْنا نطوف فِيْ « الهَفُوف » ـ عاصمة الأحساء ـ ثمَّ طفنا بـ « الكُوْتِ » : أكبر محلَّةٍ فِيْ « الهفوف » ، وفيه قصْرُ الإمارة الضَّخم . . .

فِي جَبَلِ القَارة [1]

« القَارَةُ » : إحدى مدن الأحساء ، مِنَ الجهة الشرقيَّة ؛ وفيها جبلٌ شامخٌ ، أخذ شهرةً واسعةً ، حيث يتَّجه إليه نظَرُ الزَّائر للأحساء ، مِمَّنْ يُحبُّ الوقوفَ على ما يُلفت النَّظر ،ويستحقُّ الحديث . . .

فِيْ ضُحى ذلك اليوم ، اكْترينا سيَّارةً ، لِنَزور هذا الجبلَ الجبَّار ، وبعد سيرٍ يقرب مِنَ السَّاعة ، طالعنا الجبل مِنْ بعيدٍ ، وهو جاثمٌ بكبرياءٍ وشموخٍ ، يسخر مِنَ الأحداث ، ويبتسم للعواصف ، هازءاً بها . . .

مِنْ قبْل أنْ نزور الأحساء والسُّمَّار ، مِمَّنْ زاروها يقولون ـ إذا جرَّهُمُ الحديثُ عنها ؛ وبالأصحِّ : عن أهلها ـ إنَّ الأحسائِيَّ ، تسِم حياتَه ظاهرةُ الشَّاعريَّة ، وروحُ القصَّاص . . .

وها نحن أُولاء ، نجد ـ اليوم ـ أحد المصاديق .

* * *

رافَقَنَا ـ فِيْ زيارة هذا الجبل ـ أحسائِيٌّ ، تفضَّل بأنْ يقطع ، مع

---

(١) يكتنف جبلَ القَارَة ، مدنٌ ثلاثٌ ، ويُكوِّن بينها أداة وصلٍ ، و « القارة » إحدى هذه المدن الثلاث ، التي سُمِّي الجبل بها ، دون أُختيها .

السَّائق ، أُجرة ذِهابنا وإيابنا ، فدعوناه لِمُرافقتنا ، فأجاب .

ومـا إنْ أخذتِ السَّيـارة طريقهـا ـ حتَّى راح يقصُّ علينا ، مِنْ غـرائب وعجائب هذا الجبل العجيب ، ممَّا يُثير الدَّهشة ، حتَّى كأنَّـه نَقَلَنا إلى مـدينةٍ مِنْ مُدن الأساطير . . . !

إنَّ فيه « عين الحياة » ، وهِيَ عينٌ تكفل الخلود ، لكلِّ مَنْ شرِب منهـا جرعةً واحدةً ، فالموتُ لا سبيل له عليه ؛ فـالجرعـة الواحـدة ، تمنح الخلودَ الدَّائمَ .

ولكنَّهـا صعبةُ المنـال ، والوصـولُ إليهـا أوَّلُ المستحيـلات ؛ وإنْ قُـدِّر لـواحدٍ أنْ يتغلَّب عـلى المستحيل ، فيصـل إليها ، فـإنَّـه لن يبلغ مِنْ أُمنيتـه ما يُريد . . .

ذلك أنَّ أحد مَنِ استهوته هذه الأمنية ، وأغـراه الطَّمـع فِيْ استمراريَّـة الحياة ، بَحَثَ عنها فِيْ هذا الجبل ، حتَّى تاه فيه ، التيه الأبدِيَّ . . .

وبعْد أمدٍ قضاه فِيْ البحث والتَّنقيب ، أشرف فيه عـلى التَّهلكة ، ورأى المـوت الـرَّهيب ، يمـلأ عينيـه ، ويُـرفـرف ـ فـوق رأْسـه ـ بجنـاحيـه المُخيفين . . .

بعْد ذلك كلِّه ، رأى ضالَّتَهُ المنشودة ، وها هـو ذا عند « العـين » . . . فما عليه إلَّا أنْ يغرف بيده جرعةً ، لتكون ضمان الخلود .

ولكنَّـه ـ فِيْ هذه اللَّحـظة الحاسمـة ـ فُـوجِىء بـأنْ خـرج مِنْ أعـماقهـا « رجلٌ » ـ وهو مِنْ جماعة [بِسْمِ الله وَبِالله] . أيِ : الجنّ ، « طبعاً » .

ويَصيح الجنيُّ ، فِيْ وجه الحالِمِ بالحياة الخالدة ـ بصوتٍ مرعبٍ ـ يُزلزل منه الرُّوع ، لِيَقطع عليه حلمَه اللذيذ ، ويُبعثر عليه أُمنيَّته الحالمة ، وأمله الخميل ، وقَدْ كاد يتجسَّد الخيال ، واقعاً ملموساً . . .

فكأنَّ الخلود محظورٌ على الإنسان .

ولكن ماذا كان بعْد . . . ؟ ، وهل شرب ، ؟ أم لَا . ؟

هنا . . . يصمت المحدث ، ولا يزيد ، ولا يُعلِّق بشيْءٍ . . . وقَطْعُ صلة الحديث ، يحلُّ ـ لنا ـ « الُّلغز الخفِيِّ » . . . !

***

ولعلَّ هذه العقيدة « الأسطوريَّة » ، شائعةٌ عند كثيرٍ مِنَ الأحسائيِّين ـ ولا أقول : كلَّهم .

فكلُّ مَنْ كان معنا ـم ، قَدْ صدَّقَ القصَّاص ، فِيْ ما قصَّ . . . وكأنَّه لا يتكلَّم ، إلَّا بشيْءٍ ثابتٍ ، لا غرابةَ فيه ؛ وحقيقةٍ مسلَّمةٍ ، لا جَدَلَ فيها . . . كَمَنْ يُقرِّر الواقع الرَّهين ، وكما تقول لرفيقكَ : إنَّ الشمس طالعةٌ ، والنَّهار منيرٌ . . . وأنَّ الواحد نصفُ الإثنين . . . !!!

وكان قَدْ حدَّثنا هذا « الْمُرافِق » ـ قبْل ذلك ، وهو يصف لنا قصرْ الإمارة ، فِيْ الأحساء :

أنَّه زار العراقَ ، وإيرانَ ، والهندَ ، و . . . و . . . واخْتصر الرَّجلُ حديثَه بقوله : « كلَّ مكانٍ » ـ ولكنه لم يجد بنايةً ، تُضاهِيْ فخامةَ هذا البناء . . . !

***

ها نحن أُولاء ، أمام الجبل الأشمِّ ، المتطاول بكبرياءٍ وشموخٍ . . . وها نحن أُلاء ندلِفُ إلى « الغار » ، ونتوغَّل فِيْ : منعرجاته ، وشعابه المتشعِّبة ، ونطوف بطُرُقه الضَّنكة كثيراً ، والمتَّسعة فِيْ بعض الأحيان . . .

وبين الفينة وأُختها ، ننتقل مِنَ النُّور إلى الظَّلام ، ومِنَ الظَّلام إلى النُّور . . . فكأنَّنا ننتقل ـ فجأةً ـ مِنْ دامس اللَّيل ، إلى نهارٍ منيرٍ ؛ ومِنْ مبصرِ النَّهار ، إلى ليلٍ أعمى . . . !

* * *

ولَقَدْ بعثَتْ فِيْ نفسِيْ سكينةُ الغار وهدوؤُه : الرَّهبةَ والخشوعَ ، وأثارت فِيْ نفسِيْ ذِكْريين :

ذكرى « غارِ حِرَاء » ؛ إذ تنزَّل فيه الوحْيُ ، على سيِّد الرُّسُل ، النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وإذْ خاطب المَلاكُ الأمينُ ، منقذَ البشريَّة : « **إقْـرَأْ** . . . »

فما كان إلَّا أنِ انْبثق نُور الرِّسالة ، وانتشر فِيْ الكون ضوؤُها الهادِيْ ، يفرِيْ رُكام الظَّلام الأفْحم ، ويأْخذ بيد الضُّلَّال ، إلى حيث السبيل الأَلْحب ، والصِّراط الأقوم . . . ويمحو عبادة الأصنام ، لِيُحرِّر البشريَّة مِنْ أغلال الجاهليَّة الرَّعناء . . . !

وذكرى غار ثورٍ ، حيث يأْوِيْ إليه الرَّسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، بعْد أنِ افْتقد فِيْ مكَّة النَّصيرَ ، الذِيْ عليه يعتمد ، وإليه يلجأُ ، والعشَّ الدَّافِيءَ ، الذِيْ إليه يأْوِيْ ، لِيُخفِّف أعباء الدَّعوة ، وعناء العنَت ، ممَّا يُجابهه به ضُلَّال قُريشٍ .

وإذ يفتقد النصيرَ والمأْوى ـ أبا طالبٍ ، وخديجةَ ـ لا يقرُّ له بمكّة قـرار ، فيأمره الوحْيُ بالهِجرة .

وهناكَ يُسجِّل ـ فِيْ مكَّة ـ نفسُه وأخوه أبو الحسن ـ عليه السلام ـ أعْظَمَ تضحيةٍ وفداءٍ وإيثارٍ ، عرفتها الإنسانيَّة ، أوْ سمِع بها الوجـود ، حتَّى تكون موضع فخرٍ ، فِيْ العالَم العلوِيِّ .

وحين يأْوِيْ منقذُ البشريَّة لهذا الغار ، يكون الإعجـاز على فم الغـار ، فيصِل أعداءُ الرسالة ، فِيْ طَلَبهم الحثيث إليه ، حتَّى ينخلع قلْبُ رفيقه ـ فِيْ هذه الرِّحلة الشَّـاقَّة ـ لـولا أنَّ الرَّسـول ، صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم ـ وقـدْ نزلتْ عليه مِنَ الله السكينةُ ـ يُذكِّره وجود الله معهما ، عسى أنْ يُبعثر منه هذا القَلقَ والفَزَعَ ، ويفيْءَ إلى أمْنِ الله ، بدلَ هذا الخوف الهالِع .

إنَّ فِيْ هذا الهدوء والسُّكون ، لَباعثاً للنفس ، وميقظاً لها . وإنَّ نفسِـيْ لَتَحُنُّ إلى الـوحدة كثيـراً ، لِتُسمِّر خـلالَهـا الآلامَ الثِّقـال . . . وإنَّ فِيْ هـذا الهدوء ، لَصَفَاءً للنَّفس واسْتجماماً . . . !

***

وهنـا فِيْ سؤالٍ سـاخـرٍ ، وبسمـةٍ ذاتِ غـايـةٍ ، رحتُ أسـأل رِفـاقنـا « الأحسـائيِّـين » ، عن « عـين الحيـاة » . . . ولكنَّ الجـواب ، ضـاع فِيْ « الغار » . . . !

***

يمتاز هذا الجبل ببُرودته ، فهو مصيفٌ ممتازٌ . ويُقال : إنَّه كلَّ مـا اشتدَّ الحرُّ ازْداد برودةً . ولهذا يفزع إليـه بعضُ الأحسائيِّـين ، عندمـا تثقل وطـأة

الحرِّ عندهم ؛ حتَّى أنَّ جانباً منه ، يكاد يُعرف بتخصيصه لبعض المسؤولين . . . !

كان الرِّفاق ، يُحدِّثوننا عن هذا « الغار » ، فانْبرى أحدهم ـ وهو المحدِّث الأوَّل ، الذِيْ قال : « إنَّه زار كلَّ مكانٍ » ـ محدِّثاً قائلاً :

إنَّه قَدْ حدثتْ ـ فِيْ هذا الغارِ ـ « مغارةٌ » ـ يعنِيْ : غارةً حربيَّةً ـ ذهب ضحيَّتَهَا جمْعٌ غفيرٌ ، ولا تزال إحدى جهات الغار ، تضمُّ رُفات تلك الضَّحايا ، ورِمَمَها البالية ؛ وإنَّ بعض تلك الجُثث ، لا يزال هيكلُها قائماً ـ أيْ : مومياء . . .

فما إنْ أتمَّ حديثه ، حتَّى ألححنا عليه ، بأنْ يُرينا هذه « المعظمة » ـ حسْب تعبيره ـ لنرى موضع حديثه هذا ، مِنَ الصِّدق ، أيضاً .

وإذا به يتقدَّمنا ، حتَّى وصل بنا ، إلى طريقٍ وعْرٍ ، أشدَّ الوعورة ، وأخذ يتسلَّق الجبل ـ ونحن خلْفه ـ وقَدْ كاد يُعيقنا الحذاء ، ويهوِيْ بنا إلى الغور . . .

وبعْد عناءٍ ومشقَّةٍ ، بَلَغْنَا ذِروة الجبل ، واعْتَلَيْنَا ضهرَه ، وتقدَّم بنا إلى أحد الشُّقوق ، التِيْ فِيْ الجبل ـ وهِيَ على كثرةٍ ـ والتِيْ تصل إلى قعره . . . وأشار إلينا : أنَّ هنا موضع « المعظمة » . . . ولكنَّنا لم نجد لذلك أثراً . . .

وراح يتذرَّع بعمقِ « الشِّقِّ » ، بعْد أنْ عرف مدى الخطر ، الذِيْ يُهدِّد مَنْ يحاول أنْ يُشرف على قعره . . .

ثمَّ حوَّل مجرى الحديث ، وراح يعدو ـ مسرعاً ـ لِيُرينا « عَلامةً » ، وضعتها شركة الزيت ـ هنا فِيْ ضهْر الجبل ـ ولكنَّه توجَّه إلى جهةٍ أُخرى .

ثمَّ عاد بنا إلى حيث أتينا ـ إلى أعماق « الغار » . . . !!!

***

ولَقَدْ لَفَتَ نظرِيْ منظرٌ ، لاحَ لنا ـ ونحن على ضهْر الجبل ـ ذلك هو منظر النَّخيل الخضراء الباسقة ، وقَدْ فُرشتِ الأرضُ بها ، فكانت قطعةً ناضرةً ، تبعث فِيْ النفسِ البهجةَ والسُّرورَ . . .

وقَدْ بانتِ الأرض ـ مِنْ علوِّ الجبل ـ كأنَّها مفروشةٌ بالحشائش والأعشاب ، لا بمتطاول النَّخيل السَّامق . . . وقَدِ اختفتِ الأرض وراء الخضرة ، فلا تجد لأديمها مِنْ أثرٍ . . .

إنَّه منظرٌ ساحرٌ ، يفتح القلبَ ، ويُحلِّق بالخيال ، ويُناجِيْ الشُّعور ، ويُحيِيْ الأمل ، حتَّى أنَّه لَيُوحِيْ إلى الشَّاعرِ : الشِّعرَ ، ويُغريه به ، أو يفرضه عليه . . . !

وكم كان أسفِيْ شديداً ، إذ لم أصحب معِيْ « آلَةَ التَّصوير » ، لِأحتفِظَ بصورةٍ ، لهذا المنظر الخلَّاب الممتِعِ الجميل . . . !

***

خرجنا مِنَ الجبل و « غارِهِ » ، بعْد أنْ قضينا قرابةَ السَّاعة هناك . . . وعادتْ بنا السيَّارة .

وما كِدنا نسير قليلاً ، حتَّى مررنا بأبنيةٍ ، قَدْ عاثت فيها يد الخراب والقِدَم ، وأبقت بها ثقوباً تُشير إلى : الهرم ، والفناء . . .

وهنا . . . أتمَّ محدِّثنا « الأحسائِيُّ » حديثاً ، كان قَدْ بدأه ، عندما

طفنا بهذا الموضع ـ أوَّلَ مرَّةٍ ـ قائلاً :

إنَّ هذه الأبنية ، هِيَ مدينة « القَارَة » ـ فِيْ الغابر مِنَ الزَّمَنِ ـ وكانت تضمُّ أربعين جامِعاً ـ ويُوضح : « مسجداً » ـ ولكنَّ بَطَرَ أهلِها ، الذِيْ جاء نتيجة مفرط غِناهم ، أنزل بهم نقمةَ السَّماء ، فخربتِ المنازل ، بعْد عمارٍ ؛ وأقفرت ، بعْد سَكَنٍ ؛ وسكَنت ، بعْد حركةٍ . . . !

وخيَّم صمتٌ ، لا يقطع حبْلَه ، إلَّا بعضُ الحديث المتقطِّع ، بين اللَّحظة وأُختها ، والسيَّارة تقطع الطَّريق ، لِنعود مِنْ حيث أتينا . . .

بعد تعبٍ وجهدٍ مضنيين ، عُدْنا فدخلنا المطعم المتواضِع الحقير ! ، الذِيْ أخذ شيئاً مِنَ الشَّبه ، بمصنعٍ ضخمٍ .

ولكن فليس صوتُ آلاتِه ، سوى هذا الذُّباب ، الثَّقيل الوطأة ، والذِيْ له دوِيٌّ مفزِعٌ ، صكَّ أسماعَناَ ، منذُ البارحة ، حين ما دخلناه ، وسحابةُ اللَّيل تنشر فِيْ الأفُق داكنَ الظَّلام . . . ! فكيف وضياءُ الظُّهيرة ، تُنير له الطَّريق . . . ؟ !

ولكن وجود هذا المطعم ـ على كلِّ عيبٍ فيه ، مِنْ : فقْدان عنايةٍ ، وخدمٍ على فقرٍ مِنَ الأخلاق ، بل على وفرٍ مِنَ الشَّراسة . . . ! والنَّظافةُ ، التِيْ هِيَ جزءٌ مِنَ الإيمان ـ فِيْ المحلِّ ، كما هِيَ فِيْ الخدم ـ على تلاشٍ واضْمحلالٍ ؛ بل على عدم وجودٍ . . . ! وطعامٌ سيِّءٌ ، غير حافلٍ بجودة التَّحضير ، فهو لا يعرف ذلك . . . و . . . و . . .

إلى أنْ تنتهِيَ سلسلة العيوب ، التِيْ يجرُّ بعضها بعضاً ، حتَّى تُؤلِّف حلقةً متَّصلةً . . . !

ولكن وجوده ، يُريحك مِنْ أشياء كثيـرةٍ . . . والوجـود خيرٌ مِنَ العـدم ـ كما يُقال ـ كـما لعلَّهُ مِنَ الجائـز : أنْ تمتدَّ يـدُ الإصلاح والتَّنـظيم : شيئاً ، فشيئاً . . .

عـــودة

كان لدينا مِنَ العزم أنْ نبقى هنـا أكثرمِنْ يـوم ٍ ، لِنَزور بعضَ المُـدن ، والجبـال ، والعيـون ؛ ولكنَّ نفسِـيْ قَـدْ ملَّتِ البقـاء إلى أكـثرمِنَ العصر ، فلما شارفتِ الساعةُ العاشرةَ عصراً [1] - إلَّا وأنا أُلحُّ على الرفيقين ، بالسَّفر ، فكان لِيْ ذلك . . .

لذلِكَ لم يُقـدَّر لنا أنْ نجتمـع بالشَّبـاب الأحسائِيِّ ، لِنـطَّلع على مـدى الحركة الثقافيَّة عندهم . . .

وهـل هناكَ شيْءٌ مِنَ الأدب ؟ ، ومـا قيمتُه ؟ ، ومـا اتِّجاهـه ؟ ، ومَنْ أعضاؤه . . . ؟

كلُّ ذلك لم يتسنَّ لنا . . . ! فمعذرةً منهم ! [2] .

أخذتِ السيَّارةُ ، تتعثَّربنا فِيْ طريق العودة . . .

---

(١) بالتَّوقيت الغروبيِّ .

(٢) بعد فترةٍ مِنْ هذه الزِّيارة الأوْلى ، كانت لنا صلاتٌ وصداقاتٌ مع كثيرمِنْ علمائها وفضلائها ، وأُدبائها ، ووجهائها : وشيوخاً ، وكهولاً ، وشباباً ، حيث تكرَّرت الزِّيارات ، وتمدَّد وقتها . فكانت لنا فيها ذكرياتٌ عزيزةٌ وصداقاتٌ أعزُّ . . .

وبعْد أنْ مرَّت بنا على « المبرَّز »[1] ـ مِنْ وراء السُّور ـ راحت تُوغل فِيْ الصحراء القاحلة ، وتضرب فِيْ كبدها المجدبة ، وخلائها المقفر . . .

فلستَ ترى إلَّا الرِّمال ، يُثيرها الهواءُ المتصاعِد ، فِيْ الأُفق ، لِتَحجب مِنَ الشَّمس شعاعَهَا الدَّافىءَ ، حتَّى بدت : شاحبةَ الَّلون ، باهتةَ الضَّوء ، مشوبةَ الإشراق . . .

الصَّحراء تمتدُّ ، وتمتدُّ ، فتغور العين ، فِيْ التشوُّف إلى نهايتها . . . ويرتدُّ البصر منكَ حسيراً . . .

السيَّارةُ تسير فِيْ بحرٍ مِنَ الرِّمال ، والهواءُ يصفِر فِيْ الجَوَاء ، والخلاءُ المجدِبُ يمتدُّ ، ويمتدُّ . . . !

وهكذا راحتِ السيَّارة ، تدبُّ فِيْ هذه الصحراء ، وتتعثَّر ، حتَّى وصَلْنَا « الظَّهران » ، وقَدْ جَثَمَ الَّليل على صدر النَّهار ، وانتشر الظلام ، فِيْ الأفق ، بعد ساعةٍ ونصفٍ ، على غروب الشَّمس . . .

القطيف : ٩/١٠/١٣٧١ هـ
٤/٠٧/١٩٥٢ م

(١) إحدى المدن المهمَّة فيها ، إنْ لم تكنِ الثَّانية .

عِلَلُ التشريع

نُشر فِيْ مجلَّة العِرفان ـ الصيداويَّة ـ فِيْ عددها الثَّامِنِ ، مِنْ مجلَّدها التَّاسع والثلاثين ـ شوَّال ١٣٧١ هـ ، تمُّوز ١٩٥٢ م .

بيـدِيَ العدد الـ ٦ ، م ٣٩ ، مِنْ مجلَّة العِـرفان الغـرَّاء ، وأنا أقـرأُ منه ما دبَّجته يراعة العلاَّمة الصَّديق ، الشيخ محمَّد جواد مغنية ، تحت عنوان : « إلى مَنْ يُريد أنْ يكتب فوائد الصوم » .

لَقَدْ وجَّه الـدَّعوة إلى هؤلاء . . . أنْ لا يكتب أحـدٌ مُعاراً ـ أو مُعـاداً ـ مكروراً .

وهذه قولةٌ حقَّةٌ . . . فَقَدْ أُتخمنا بـالمواضيـع المكرورة ، التِي لا تُجْـدِيْ نفعاً ، ولم تأْتِ بالجديد ، فتراها : ثقيلةَ الظلِّ ، ضحْلةَ النَّفع .

ثمَّ عَرَضَ بالتَّفنيد ، لِمَا يُعلِّلون به الفائـدة الماديَّـة ، التِيْ تنتج مِنْ أدئنـا بعض الفروض الدِّينيَّة ، فيقولون :

« إنَّ فائدةَ الصوم : تنقيةُ المعدة ؛ وفائدةَ الوضوء : النَّظافـةُ ؛ وفائـدةَ الصَّلاة : الرِّياضةُ » .

ونجد الأستاذ الصَّـديق ، لا يُقرّهم عـلى شيْءٍ ، مِنْ هذا « التَّعليـل ، والتَّحليل » .

ذلـك أنَّ حبَّـةً واحـدةً ـ مِنَ الصَّيـدليَّــة ـ تتكفَّـل بتنــظيف المعـدة ، وتنقيتها ؛ والغَسْلَ بالماء والصَّابون ، يفضـل عدداً وافـراً مِنَ الوضـوء ، فِيْ ناحية النَّظافة . . . والحـركةَ الـرِّياضيَّـةَ الفنِّيَّةَ ، تعـود على الجسم بخـيرٍ ، لا يجده فِيْ ألف ركعةٍ ، مِنَ النَّاحية الرِّياضيَّة . . .

فهو ـ بهذا ـ يقصر العبادة على الرُّوح فقط . . . باعتبار أنَّها صلةٌ بين : العبد ، وربِّه ؛ وفائدتُها أُخرويَّةٌ محضةٌ . . .

ونحن نُقرُّه على ذلك . . . أيْ : على كون العبادة صلةً ، بين : العبد ، وربِّه . . .

أمَّا أنْ نقصر الفائدة منها ، على النَّاحية الأخرويَّةِ فقط . . . وأمَّا أنْ لا يسوغ تفسيرها بأشياء دنيويَّةٍ ـ أو ماديَّةٍ ، بعبارةٍ ثانيةٍ ـ وأمَّا قطْعه الصِّلَة ، بينها وبين الحياة ، سوى : إظهار العبوديَّة ، والانقياد التَّامِّ ، والطَّاعة العمياء . . . الخ .

أمَّا كلُّ ذلك ، فنقف وإيَّاه على خلافٍ . . .

فإيُّ مَانعٍ يمنع أنْ تَحمل العبادةُ ـ فوق معناها الرُّوحِيِّ ـ معنىً ماديّاً . . . ؟

وهل هذا ممَّا يُسقط مِنْ قيمتها ؟ ، أو يُلاشِيْ أثرها . . . ؟

وليس معنى ذلك : أنْ نُجرِّد العبادة مِنْ معناها الرُّوحِيِّ ، وننظر إليها مِنَ الجانب المادِّيِّ ، فحسْب ! .

فمثلاً إذا قُلنا : إنَّ الصَّلاة فيها فائدةٌ رياضيَّةٌ . . . فإنَّنا لا نُقيم هذا الرُّكن مِنَ الدِّين ، كما نقوم بحركةٍ رياضيَّةٍ ؛ بل لا نقوم بها ، إلَّا لأنَّ فيها فائدةً رياضيَّةً . . .

كلَّا ! .

وإنَّما نُقيمها على أنَّها صلةٌ بين : العبد ، وربِّه ؛ وإذعانٌ صَارخٌ

بعبوديَّتنا لله جلَّ شأْنه ؛ واتِّصالٌ روحِيٌّ بعالَم السموِّ والرُّوحانيَّة . . .

نُقيمها ، لأنَّها تحمل هذا المعنى الرُّوحِيَّ ، قبْل كلِّ شيْءٍ ، ودونما نظرٍ إلى ما تحمله فِيْ ما بعد . . .

ولكن هذا لا يمنع أنْ نستفيد منها ـ أخيراً ـ الفائدة الرِّياضيَّة ، إلَّا أنَّها فائدةٌ « ضمنيَّةٌ » ، وليست « غائيَّةً » . . . فلم نَقُمْ بها كما نقوم بالحركة الرِّياضيَّة ، التِيْ تكون فيها الرِّياضة « غائيَّةً » . . .

على أنَّنا إذا قمنا بالحركة الرِّياضيَّة ، فالفائدةُ ـ فيها ـ مقصورةٌ على ما يعود على الجسم مِنْ نفعٍ ، فقط . . . فنفقد المعانِيَ السَّامية الرُّوحيَّة ، التِيْ نستفيدها ، عندما نُؤَدِّيْ الرَّكعة الواحدة ، التِيْ تحمل « المعنيين » . . .

وكذا القول فِيْ الصَّوم . . . فإنَّنا عند ما نتناول « الحبَّة مِنَ الصَّيدليَّة » ، لا نُحسُّ بما فِيْ الصِّيام مِنَ المعانِيْ الرُّوحيَّة الأخرويَّة .

ولا نُحسُّ بما فيه مِنَ المساواة ، التِيْ يهدف إليها الدِّين الإسلامِيُّ الحنيف ، حين يُساوِيْ بين : المِلك ، والرَّعيَّة ، والسيِّد والمسود ؛ ويُحسُّ ذو البِطنة ؛ بسغب الفقير المترَب ، الذِيْ أخذ يحزُّ الجوع فِيْ جسمه ؛ لِيهدَّ منه القوى ؛ ويأْتِيْ على البقية مِنْ حياته . . .

ويُعلِّله بعضهم ـ إضافةً إلى ذلك ـ بأنَّه تكفيرٌ عنِ الذُّنوب ، بتعذيب الجسم ، الذِيْ يقترفها . . . أو هو تطهيرٌ واستجمامٌ للجسد ، مِنْ تُخمة الطَّعام والشَّراب . . . أو هو رياضةٌ للنَّفس ، لِتَعوديها على احتمال ما تكره ، والصَّبرِ عَمَّا تُحِبُّ .

وغايةُ ما أعنيه ؛ والنُّقطةُ التِيْ يرتكز فيها الْخِلاف ، بينِيْ وبين العلَّامة

« الجواد » ، هو :

أنْ لا مانِع مِنْ أنْ نحصل على الفائدة المادِّيَّة ، ونحن نُؤدِّيْ أحد الفروض الدِّينيَّة ، بشرط أنْ لا نُؤَدِّيه ، إلَّا لوجه الله وحده ، غير ناظرين للفائدة « الضِّمنيَّة » .

ومِنَ الملحوظ : أنَّ هذا « التَّعليل والتَّحليل » ، لا يتنافى و « الطَّاعة العمياء » ؛ ولا يُخالف « الانقيادَ التَّامَّ » فِيْ شيْءٍ . . .

بل لعلَّ ممَّا يُرسِّخ الإيمان ، ويُطمئن القلب ـ فِيْ نفوس أُناسٍ ـ هو هذا « التَّعليل والتَّحليل » .

على أنَّ كثيراً مِنَ العلماء ، قَدِ استنتجوا وأوَّلُوْا ، وحلَّلوا وعلَّلوا بعض الأحكام الشَّرعيَّة ، التيْ تعود بالفائدة الدُّنيويَّة ، أو بُنيت مِنْ أجْلها ، كالفائدة مِنْ صلاة الجَماعة ، والحجِّ ، والزَّكاة .

وكما أبانُوا السِّرَّ ، فِيْ عدم طهارة الإناء ، الذِيْ وَلَغَ فيه الكلبُ ، إلَّا بالتُّراب . . . وكالسِّرِّ فِيْ : تحريم لحم الخنزير ، وتحريمِ الخمر ، والرِّبا ، والقمار ؛ وغير ذلك . . . فإنَّ فِيْ تحريمها دفْعَ ضررٍ ، وحرْزَ منفعةٍ . . .

على أنَّ الأستاذ الصَّديق نفسَه ، قَدْ حلَّل وعلَّل ، عند عرضه لحلِّية حلْقِ اللحية ، فِيْ هذا العصر . . . وذلك فِيْ ما كَتَبَ مِنَ العِرفان : « نحو فقهٍ إسلامِيٍّ جديدٍ »[1] ، بعْد أنْ قال بحرمتها « فِيْ الزَّمَنِ الأوَّل » ؛ لأنَّ حلْقها ـ آنذاك ـ مُثلةٌ . . . أمَّا اليوم فلا يرى النَّاسُ فيها ، ما رآه غيرُهم أمس ، فارْتفع التحريم . . .

---

(١) ج ٩ ، م ٣٨ ـ العِرفان الغرَّاء .

أليستِ « الطَّاعةُ العمياء » ، تحتم علينا باسْتمرار الحكم ، دون أنْ تُسَوِّغ لنا هذا « التَّعليل والتَّحليل » ؟ .

وإنَّ للأستاذ نفسه مقالاً ، ردَّ به على كلمةٍ نشرها العلاَّمة الشيخ محمَّد جواد الجزائريُّ (١) ؛ ذَهَبَ فيه الصَّديق ، إلى وجوب هذا التَّعليل ؛ لأنَّ هذا الأسلوب ، كما يقول - أيِ : التَّحليل والتَّعليل - [أجدى فِيْ إقناع الشَّباب ؛ مِنْ أُسلوب النفْيِ ، الذِيْ قَدْ يظنه البعض مِنْ مظاهر الضَّعف] (٢) .

***

وبعْدُ . . . فَقَدْ عنَّت لِيْ هذه النَّظرة ، وأنا أقرأُ مقال الصَّديق المِفضال . . . وأرى واجباً عَلَيَّ أنْ أُسجِّل له الشُّكر الجزيل ، عَلَى مواضيعه الشَّيِّقة . . . وكلِّيْ أمَلٌ أنْ يتقبَّل هذه الملاحظة ، مِنْ أجل حريَّة الفكر ، وهو ذو الرأْيِ الحرِّ ، والداعِيْ إليه . . .

القطيف : ١٣٧١/٩/٣٠ هـ
١٩٥٢/٥/٢٤ م

---

(١) ج ١ ، م ٣٤ - العِرفان .

(٢) ج ٢ ، م ٣٤ - العِرفان .

تصحيحٌ وتنبيهٌ

نشرتْه مجلَّة العِرفان - الصَّيداويَّة - فِيْ عددها الثَّانِيْ ؛ مِنْ مجلَّدها الحادِيْ والأربعين - ربيع الثَّانِيْ ١٣٧٣ هـ ، كانون الأوَّل ١٩٥٣ م .

لعلَّه مِنْ تحصيـل الحاصـل ـ كـما يُعـبِّرون ـ أنْ نصف أُسلوب السَّيِّـدة « وداد سكـاكينيْ » ، بخفَّة الـظِّلِّ ، ورشاقـة العبـارة ، وصفـاء الفكـرة ، وإنسانيَّة الموضوع .

على أنِّيْ لم أتناول يـراعِيْ ، حين أردتُ أنْ أخطَّ هـذه السُّطور ، لأجلو للقراء رأْيِي فِيْ أديبةٍ مِنْ أديباتنا اللاَّمعات ، مِنْ جنس حوَّاء « الإنسانة » .

مـا لهذا شرعتُ الـيراع ، كَيْ أنساق فِيْ بُغيتـه ، حـين يشـاءُ أنْ يفيض برشحٍ مِنَ الثَّناء ، وفيضٍ مِنَ المديح ، على أديبتنا الخصبة . . .

ولكن شاء ـ بالرَّغم ! ـ أنْ يَنمَّ عن تقديره ، لِيَراعـة الأديبة . . . وقَـدْ قُدِّر له أنْ يستظلَّ ، ونتاجَ تلك اليراعة ، بـأُفُقٍ أدبيٍّ ، رحيبٍ ، وأنْ يجتمعا على صعيدٍ واحدٍ . . .

ذلك هو الأُفُق الرَّحيب ، الذِيْ استظلاَّ به ، على صعيد « العِرفان » ، المِمراع الخصيب . . .

وقَدْ ترعرعتْ على هذا الصَّعيد ، وتحت ذلك الأُفُق : بذرةُ حبِّ النَّقـد النَّزيه ، الذِيْ تُمليُه الغاية السَّامية ، وتفرضُه الرِّسالـة الإنسانيَّـة ، على كـلِّ حـرٍّ صريحٍ ، كَيْ يُسـدِّد كلٌّ منَّـا عثرةَ أخيـه ، بدافـعٍ مِنَ الإنسانيَّـة ! ، لا بدافع الحِقد والشَّماتة ، أو حبِّ الشُّهرة والظُّهور . . .

إذن فعليَّ أنْ أخلص مِنْ هذه المقدِّمة ، التِيْ شاء أنْ يسير فيهـا يراعِيْ ،

وما أنا مِنَ العاصين له فِيْ أمرٍ ؛ أوِ المسيِّرين له ، بالطَّوع منه ، أوِ الكره . . . !

عليَّ أنْ أخلص مِنْ هذه المقدِّمة ، لأنبِّه أديبتنا الفاضلة ، لخطإٍ وقعتْ فيه ، فِيْ مقالها الشَّائق : [حديث العيد] [1] .

* * *

ولَقَدْ وقعتِ السيدة فِيْ هذا الخطإِ - ولم تتعمَّدْه بالطبع ! - عند قولها :

[وكان الحجُّ رمزاً أبديّاً لمنفعة الجزيرة العربيَّة ، حتَّى جَعَلَهَا الله وادياً غير ذِيْ زرعٍ ، عند بيته المحرَّم ، حتَّى غدت منجماً للذَّهب ، وينبوعاً للنَّفط ، الذِيْ لا يزال متصرِّفاً فِيْ مصائر الشعوب] .

لم يكنِ الحجُّ ذلك الرَّمز المادِّيَّ - وإنْ كان رمزاً معنويّاً للعالم الإسلامِيِّ - لمنفعة الجزيرة فِيْ يومٍ مِنَ الأيَّام . . . إذ ليس رمزه المادِّيُّ ، إلَّا لمنفعة مكَّة فحسْب ، التِيْ هِيَ جزءٌ ، لا كلٌّ . . .

كما أنَّ الجزيرة - ونُريد بها الكلَّ - لم يجعلها الله وادياً ، غيرذِيْ زرعٍ ؛ بل جَعَلَ فيها الواحاتِ النَّضرةَ ، والوارفة الظِّلِّ ، المكسوَّة الأديم بالعشب والشَّجر . . . وفيها النَّخيل السَّامق ، الشَّامخ بسعفه الباسق ، حتَّى ضُرب المَثَل :

---

(١) راجعِ الجزء العاشر ، مِنَ المجلَّد الـ ٤٠ ، مِنَ العِرفان .

« كَنَاقِلِ التَّمْرِ إلى هَجَرَ » .

ولسنا نُنكر : أنَّ فِيْ الجزيرة الصحارِيْ والقِفار ، تبحث فيها عَنِ الظِّلِّ ، فلا تجد سوى اللَّهب المتَّقد . . .

وتبحث عَنِ الماءِ ، فتُجهد نفسكَ ، وتتعب منقِّباً ، حتَّى يُوافيك ماءُ آسنُ ، قَدْ ركدت فيه الحياة ، ولوَّثته الجراثيم . . . وقَدْ يكون ـ إلى ذلك ـ مرَّ المذاق ، بشْع المنظر ، كريه الرَّائحة .

وقَدْ تُشرف على التَّهلكة ، وتسير وعزرائيل جنباً إلى جنبٍ ، دون أنْ تُدرك مِنَ الماء ، ما تُبَلُّ به يُبْسُ الشِّفاه ؛ بل دون أنْ تجد له أثراً ، لِتُعَلِّل نفسَك بـ :

« أنَّ البعرةَ تدلُّ عَلَى البعير » . . .

وتبحث عنِ العشب ، والشَّجر المثمر ، فتضيع نظرتك فِيْ : الخلاء الموحش ، والقفر الجديب ؛ فلا تجد غير رملٍ يثور ، ورملٍ يتوهَّج ويتموَّج ، ويستعدُّ لِيَثور ؛ فتفرُّ منه ، وهو أمامك أسرع مِنْ سيرك .

وإنْ قُدِّر لكَ ، فوجدتَ شجراً ، فهو غير صالحٍ لسوى الوقيد ، تُضرمه سلاحاً لكَ ، إنْ كنتَ فِيْ كبد القَرِّ ، وترضى عنه ، لأنَّه :

« أصْلَبُ عوداً ، وأبطأُ خموداً »

ـ كما يقول الإمام الأعظم ، عليه السلام .

* * *

ولكنَّ الذِيْ نُنازع فيه السَّيِّدة الفاضلة ، هو قولها :

إنَّ الله سبحانه ، جَعَلَ الجزيرة وادياً غيرَ ذِيْ زرعٍ .

والجـزيرة ليست تعنِيْ مـا أشارت إليـه فحسْب . . . ! فكان الـواجب عليها أنْ تخصَّ جزءاً ، مِنْ هذا « الكلِّ » . . .

على أنَّ الله سبحانه ، حين جَعَـلَ الحجاز واديـاً ، غيرذِيْ زرعٍ : قَـدْ أجاب دعوة الخليل ، يوم أتى بإسماعيل ، وأُمِّه هـاجر ، منـذ قرونٍ خَلَتْ ، كما يقصُّ علينا القرآن الخالد :

﴿ فَـاجْعَـلْ أفْئِـدَةً مِنَ النَّـاسِ تَهْـوِيْ إِلَيْهِمْ ﴾ . . . (١)

ولا هوى للأفئدة ، فِيْ الوادِيْ الفقير الجديب . . . ! فَنَبَعَ الماءُ دافقاً ، لِتَحـوم عليـه الـطَّير ، وتعشـوشِب بـه الأرض ، فيكـون ذلـك المرعى الخصيب ، لِتهوِيَ الأفئدة إليه . . .

* * *

على أنَّ الرُّقعة التِيْ كانت ـ بالأمس ـ ذلك الوادِيَ ، غيرذِيْ الـزَّرع ، لم يكنِ ـ اليوم ـ ينبوعاً للنَّفط ، وإنْ كان « منجماً للذَّهب » .

وهذه غلطةٌ مِنَ السَّيِّدة ، قَدْ تكون جغرافيَّةً ، أو تأْريخيَّةً . . . !

فإنها تظنُّ أنَّ « الظَّهران » ـ وهِيَ منطقة الزَّيت ـ مدينةٌ حجازيَّـةٌ . . . فقـالتْ قولتهـا تلك ، وأرسلتْها عـلى عواهنهـا ، دون أنْ تُحقِّق ، أو تُفكِّر فِيْ التَّبعة . . .

والواقع : أنَّ « الظَّهران » مدينةٌ قطيفيَّةٌ . وكـانت مِنَ الإقليم ، الممتدِّ

---

(١) إبراهيم : ٣٧ .

مِنَ البصرة ، إلى عُمان ، الذِيْ يُطلق عليه ـ قبْلُ ـ هذه الأسماءُ الثَّلاثة :

الْبَحْرَيْن . الْخَـطُّ . هَجَرُ .

وإلى هذا يُشير مَثَلُ : « ناقِلُ التَّمْر » .

ولسنـا نُـريـد مِنْ هـذا ، سـوى التحقيق الجُغـرافِيِّ ؛ لأنَّنـا لا نـدعـو للتَّفرقة ، أوِ التَّجزأة ، ونحن مِنْ ألدِّ أعـدائهما ، ولا سيَّـما ونحن فِيْ مسيس الحاجة ، لهذا الرِّباط المقدَّس . . .

على أنَّ القطيف ـ هـذه الرُّقعـة ، مِنْ ذلك الإقليم ، التِيْ أخـذت هذا الإسم ، تارةً ، و « الخِـطَّ » ، بفتْح الأوَّل وكسْره ، مرَّةً أُخرى ، والتِيْ مِنْ مدنها الظَّهران ، بفتْح الأوَّل .

أقول : إنَّ القطيف ، تـربطه بـالحجاز روابطُ عميقـةُ الجذور ، بعيـدةُ الغور ، سحيقةُ المدى ، تضرب فِيْ بطون التَّأْريخ ، مِنْ حيث القِدم .

حتَّى أنَّ شعـاع الرِّسـالة سَـطَعَ ـ أوَّل مـا سَـطَعَ ـ فِيْ هـذه الـرُّبـوع ، فاسْتنارت به ، وتشرَّفت باطمئنانها للدَّعوة المحمَّـديَّة ، منـذ بَعَثَ الرَّسـول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كتابَه ، إلى « المنذر بن ساوى العبدِيْ » .

ولسنـا فِيْ مقام مَنْ يعـرض لهـذه الـرَّوابط الـواشجـة ، التِيْ لم تـزدْهـا الأيَّام ، إلاَّ عمقاً وشمولاً . . .

حتَّى أنَّها ـ اليوم ـ يُظلُّها حكمٌ واحدٌ ، فاتَّحدت بذلك ، اتِّحاد : دِينٍ ، ولغـةٍ ، ويـدٍ ، ووجــهٍ ـ أيْ : إنَّ الفتى ، يجب أنْ يكـون أكــثر بُعْـداً عنِ الغربة ، التِيْ ظنَّها أبو الطيِّب .

وإنَّ هذه الغلطة ، لم تقع فيها السَّيِّدة الفاضلة وحدها . . . فَقَدَ كان لها ثانٍ ، وثالثٌ ، ورابعٌ . . . فإنْ كانت تقنع بمفاد المَثَل :

« إذَا كُنْتَ ثَانِيَ آثْنَيْنِ ، فَلَا تَنْعَ نَفْسَكَ » .

. . . فما عليها مِنْ بأسٍ . . . على أنَّنا نربأُ بها أنْ تكون مِمَّنْ يُطبِّقونه ، حتَّى فِيْ الخطإ .

وإنِّيْ أودُّ ـ هنا ـ أنْ أنْقِلَ قولةً لِيْ ، رددتُ بها على الأستاذ خالد محمَّد خالد ؛ وقَدْ وَقَعَ فِيْ هذه الغلطة بالذَّات ، وكان ردِّيْ فِيْ مقدِّمةِ كتابٍ لِيْ ، مُعدٍّ للطَّبع [1] هو : « ذكرى الزَّعيم الخُنيزِيِّ » [2] .

قلتُ فِيْ هذا المدْخل ، بعْد ما عرضتُ لموضوعٍ ، أصبح مكروراً منِّيْ ، يدور حول الإهمال الشَّنيع ، لِتراثنا الماضِيْ ، ويدعو للتَّنقيب والبحث . . . فلعلَّه أنْ تتَّصل بهما الحلقات ، بين : الماضِيْ ، والحاضر :

[ولعلَّ ما نجده مِنْ هذا الإهمال ، وهذا الفقر المدقِع ، مِنْ تراثنا الماضِيْ ، هو السَّبب الوحيد لِمَا نُلاقيه مِنْ إغفال إخواننا ، فِيْ الأقطار

---

(١) تمَّ طبْع هذا الكتاب ، في شهر ربيع الأوَّل ١٣٧٤ هـ .

(٢) هذا الكتاب ، يُسجِّل حياة الزَّعيم ، الحجَّة المغفور له الشيخ علي ـ أبو عبدالكريم ـ بن حسن علي الخنيزيِّ .

وهو غير كتابنا ، الذي لفظته المطبعة ، منذ أعوامٍ ثلاثةٍ ، بعنوان « ذكرى الإمام الخنيزيِّ » ، الذي يُسجِّل حياة الإمام الشيخ علي ـ أبو الحسن ـ بن حسن الخنيزيِّ .

ومِنَ الخير أنْ نُشير بأنَّ الإمام هذا ، عمُّ الحجَّة ذاك ـ تغمَّدهما الله برضوانه .

كما نُشير ـ بعدئذٍ ـ إلى أنَّ هذا الكتاب ، هو الآخر ، قد تمَّ طبْعه عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .

العربيَّة الشَّقيقة ، وعدم التعـرُّف علينا ، لا نستثنِيْ سـوى قلَّةٍ قليلةٍ ، خيِّرةٍ كريمةٍ] [1] .

وبعْـد عتبٍ حـول هؤُلاء الإخـوان ، الـذين لم يلتفتـوا لنـا ، أدرتُ الحديث ، حول مَنْ غلط مثل هذه الغلطات التأْريخيَّة .

فبعْد أنْ ألمعتُ إلى التَّحريف الـذِيْ وَقَعَ فيـه الدكتـور عمر حليق ، فِيْ بحثٍ نَشَرَه ، فِيْ ج ٨ ، م ١٠ ، مِنْ مجلَّة الكتاب الزَّاهرة ، ولاحظتُ عليه تحريفَه ، فِيْ الجزء الـ ١ م ١١ ، عام ١٣٧١ هـ ، مِنَ المجلَّة ذاتها [2] .

بعْد ذلك أدرتُ الحديث حول غلطة الأستاذ خالد محمَّد خالد :

[وبعضَهم يـظنُّها ـ وأعنِيْ : القـطيف ـ قـريـةً مِنْ قُـرى الحجـاز ، أو نجد .

وآخـرين ـ عـطفٌ عـلى مـا قبله ـ يـظنُّـون بعض مـدنها ، مِنْ تـوابـع الحجاز ، كما فَعَلَ الأستاذ خالد محمَّد خالد ، حين عَرَضَ للظَّهران « منطقة الزَّيت فِيْ المملكة العربيَّة السعوديَّة » ، فظنَّها مِنَ الحجاز [3] .

فالقطيف ، وإنْ تكن هِيَ والحجاز ـ أو أيُّ بلدٍ عربِيٍّ آخر ـ شقيقتين ،

---

(١) ص ١٧ مِنْ كتابنا « ذكرى الزَّعيم الخنيزيِّ » .

(٢) سيكون حلقة في هذا الكتاب ، فيُراجع في ص ١٢١ ـ ١٢٥

(٣) راجع ص ٢٠٢ (مواطنون . . . لا رعايا) فإنَّه يقول متسائلاً :

وما الظَّهران هذه ؟ .

ولا يلبث أنْ يُجيب :

[إنَّها أرضٌ بالحجاز ، بينها وبين المسجد الحرام ، ومسجد الرسـول ، مثل لمح البصر بالـطَّائرة ؛ بـل هو أقرب] .

فَيَالَهَا مِنْ غلطةٍ فاضحةٍ ! .

تُوحِّد بينهما العروبة ، وتربطهما برباطهــا المقدَّس ، إلاَّ أنَّ لهـا ـ كما لغـيرها ـ مميِّزاتها وحدودها الخاصَّة .

ولـو رَجَعَ هؤلاء الأسـاتذة الكـرام ، إلى أيِّ معجمٍ ، كمعجم بلدان يـاقوت ، أو أيِّ تـأريخٍ آخـر ، لَوَجَـدُوْا خـطأهم ولَمَسُـوْهُ بيـدهم ، ورأوْه بعينهم ، وعضُّوا أناملهم مِنَ الخجل .

وَلْيَـرْجِعِ الأستـاذ خالـد ، على الأخصِّ ، إلى أيِّ كتـابٍ تأْريخيٍّ ، أو لُغـوِيٍّ أيضاً ، فـإنَّه يُشـاهد غلْطتـه الفظيعـة ، مثل لَمْـحِ البصر ـ على حـدِّ تعبيره .

فهذا صاحب « القاموس المحيط » يقول تحت مادَّة « الظَّهر » ما نصُّه : (وظَهران قريةٌ بالبحرين) [1] .

وعسى أنْ لا يخفى على الأستاذ ما تعنيه « البحـرين » فِيْ القديم ؛ فـإنْ كان يجهله ، فإنَّه واجبٌ علينا أنْ نشرح له ذلك] [2] .

فرحتُ أشرح ما تدلُّ عليه كلمة البحرين ـ فِيْ القديم .

* * *

وبعْدُ . . .

فهـذه ملاحـظةٌ ، أُصحِّح بهـا ما وقعتْ فيـه السَّيِّدة ـ عن غـير قصدٍ ـ وأُنبِّهها إلى ذلك . . . فكلِّيْ أمَلٌ أنْ تتقبَّلها ببسمةٍ عـذبةٍ ، تـدلُّ على متَّسـع

---

(١) ص ٨٢ ج ٢ ، مطبعة (دار المأمون) ، عام ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م .

(٢) ص ١٨ ، ١٩ ، مِنْ كتابنا [ذكرى الزَّعيم الخنيزيِّ] .

الرِّضى ؛ ما دمتُ لا أقصد بها غير وجه الحقِّ الأبلج . . .

وأنا على مستفحل اليقين : بأنَّ هذا الرِّضا فِيْ متناول يدِيْ ، مـا دامتِ السَّيِّدة ، مِمَّنْ ينشد الحقيقة البيضاء ، ويسوؤهـم أنْ تُشاب بالدَّرَن ، أُقدِّمها على صفحات مجلَّةٍ حرَّةٍ ، تعمل لوجه الحق ، وتدعو إليه ـ أيضاً .

القطيف : { ١٣٧٣/٠١/٣٠ هـ
١٩٥٣/١٠/١٠ م }

القَطِيْفُ اليَوْم

نشرته جريـدة « المدينـة المنـوَّرة » فِيْ عدديها عام ١٣٧١ هـ .

بيدِيَ العدد الـ « ٤٦٣ » مِنْ جريدة [المدينة المنوَّرة] الصَّادر فِيْ ١٨ / ٥ / ١٣٧١ هـ ـ وأنا أقرأُ منها مقالاً ، لمديرها الأستاذ عثمان حافظ ، حول وطنِيَ « القطيف » .

وفِيْ معرض القول عن نخيلها ، تَرَكَ القولة الأخيرة لأدباء القطيف . . . راجياً أنْ يكتبوا عن تأْريخ القطيف ـ فِيْ : ماضيه ، وحاضره . . .

وبما أنِّيْ واحدٌ مِنَ الَّذين وُجِّهتْ إليهم هذه الدَّعوة الكريمة ـ فواجِبِيَ الوطنِيُّ ، يحتم عليَّ بأنْ أُلبِّيَ هذا الصَّوت الكريم ، شاكراً له ـ مِنْ أعمق أعماقِيْ ـ هذه الالتفاتة الطَّيِّبة ، التِيْ تدلُّ دلالةً واضحةً ، على الصِّلات الوديَّة العريقة ، بين البلدين الشَّقيقين . . .

وإنِّيْ ـ فِيْ هذا المقال ـ أودُّ أنْ أتتبَّع مقال الأستاذ عثمان ، فأُوضح بعض النِّقاط ، وأُعلِّق على بعضها الآخر .

- ١ -

فِيْ مستهـلِّ كلمته ، قـال : « وهِيَ ـ يعنِيْ : القطيف ـ مِنْ أشهـر مُدن الأحساء » .

ومثـلُ هذا القـول ، قَـدْ لا يجـوز ، حتَّى لِمَنْ يتكلَّم عن مـاضِـيْ هـذه البلاد ، يوم كانت كلمة « الْبَحْرَيْنِ » ، أو « هَجَرَ » ، أو « الْخِطِّ » ، تشمل هذا السَّاحل ، الممتدَّ مِنَ « البصرة » ، إلى « عُمان » . . .

وكـان هذا السَّـاحل يضمُّ ـ فِيْ مـا يضمُّ ـ « أُوال » [وهي ما تسمَّى ، اليـوم ، بـالبحـرين] ، والقـطيف [واختصَّت بـالْخِطَ ، فِيْ مـا بعْـد] ، والأحساء ، التِيْ أُطلق عليها ـ بعد ذاك الحين ـ اسم هَجَرَ . . .

فـالقـطيف ـ بعـد ذلـك الحـين ـ أوِ « الْخِطُّ » ، بلدٌ مستقـلٌّ بحـدِّه الجغـرافِيِّ ، الذِيْ يصـل إلى « بَقَرَةَ » ، فِيْ مـا بعْد « الـظَّهران » ـ أيْ : إنَّ الظَّهران داخلٌ ضمن نطاق القطيف .

وعـاصمة القـطيف ـ اليوم ـ هِيَ « القلعـة » ـ وهِيَ شبه جـزيرةٍ . . . يكتنفها البحر ، مِنْ جهتها الشَّرقيَّة بكـاملها ، جـزءٍ مِنْ جهتها الشَّـماليَّة ، وتُحيط بهـا النَّخيـل البـاسقـة ، والبسـاتـين الغنَّـاء ـ مِنْ جهتيهـا الغــربيَّـة

والجنـوبيَّـة [1] ـ فَهِيَ واحـةٌ خضراءُ نـضـرةٌ ، تُؤْنس الـقفـر المـوحش المجدب . . .

والقـطيف ـ اليـوم ـ فِيْ لسـان القـطيفِيِّ المـدنيِّ المثقَّف : « كلمـةٌ » ، تتناول هذا البلد ، بحدوده التِيْ أشرتُ إليها . . . وهِيَ فِيْ لسان الدَّمَّامِيِّ ، أوِ الْخُبَرِيِّ [2] : « كلمةٌ » ، تتناول رقعةً ، تُحدُّ ـ مِنَ الشَّمال ـ بـ « صَفْوَى » ومِنَ الجنوب بـ « سَيْهَاتَ » .

وهِيَ ـ أيضـاً ـ فِيْ لسـان القـطيفِيِّ القُـرَوِيِّ : « كلمـةٌ » ، تخصُّ « القلعة » ـ العاصمة ـ وما حواليها مِنَ : المدن ، والضَّواحي القريبة . . . ومرَّةً ثانيةً ـ فِيْ لسانه ـ لا تعنِيْ سوى « القلعة » فقط . . .

---

(١) هذا قبل أنْ تمتدَّ إليها يد البناء الحديث ، حيث قامت أحياءٌ حديثةٌ ، أخذت مساحة مِنَ البحر ، وأزالت كثيراً مِنَ : النَّخيل ، والبساتين .

(٢) الدَّمام والخبر : مدينتان قطيفيَّتان ـ جغرافيّاً ، أيضاً .

- ٢ -

ذَكَرَ الأستاذ : أنَّ عـدد سكَّان القـطيف ، ثلاثـونَ ألفَ نسمةٍ . وأنَّـه يبلغ عدَد سُكَّان مدينة القطيف ـ ولعلَّه يعنِيْ بها القلعة ، وما حواليها ـ ستَّـةَ عشر ألفَ نسمةٍ .

وهذا الإحصاء غيرُ صحيحٍ ، ولا يركن لدليلٍ ، لأنَّ سكَّان جـزءٍ مِنَ القـطيف ـ مِنْ صَفْوَى ، إلى سَيْهَـاتَ ، فقط ـ يبلغ « تقـريبـاً » ستِّـين ألفَ نسمةٍ . وقيل : سبعين . وقيل : ثمانين ؟؟؟ [1] .

---

(١) هذا التَّقدير التَّخمينيُّ ـ على ضآلته ـ قبل عددٍ مِنَ السِّنين . وعدد السُّكَّان ـ الآن ـ أكثر وأضخم جـدّاً ، إذْ لعلَّه يقارب المائتي ألف . ولكن ليس هناك إحصاءٌ صحيحٌ ، يُرجع إليه ، فضلاً عنِ الرُّكون إليه .

(*) وهذا التَّقدير ـ هو الآخر ـ دون الواقع الفعليِّ بكثيرٍ ـ أيضاً ـ قد يصل إلى ٥٠٪ مِنَ الواقع .

- ٣ -

وعند عرْضه لنخيل القطيف ، استهلَّ كلمته بوصفه لـ « وفْرة مياهها ، وكثْرة مزروعاتها ؛ وأهمُّ ما يُزرع فيها النَّخيل » . . .

صحيحٌ هذا القول . . .

ولكن ـ مع مُمِضِّ أسفنا ـ فإنَّ المياه الوافرة المتدفِّقة ، والعيون المتفجِّرة ، التِي تصبُّ فِيْ الجداول ، بين : المروج الخضراء ، والبساتين الغنَّاء .

أقول : إنَّه ـ مع مزيد الأسف ـ قَدْ أخذت هذه المياهُ المتدفِّقة ـ فِيْ السنوات السِّتِّ الأخيرة ـ فِيْ نقصانٍ ملحوظٍ ، يبعث على القلق ، ويدعو إلى التشاؤم . . .

فإنَّ هذه العيون الخرَّارة ، قَدْ بدت عليها الطَّلائع المحزنة ، التِيْ تُنذر بالشَّرِّ ـ فِيْ : قرية « الجش » ، وغربِيِّ قرية « أُمِّ الخمام » . . . [1] .

ونحن نقف إزاء هذه الكارثة ، حائرين ، مكتوفِيْ الأيدِيْ ، لا ندرِيْ إلى أيَّة « علَّةٍ » نردُّها ، لأنَّنا لسنا أخصَّائيِّين ، ولا جيولوجيِّين . . .

---

(١) لقد توالت هذه النُّذر ، وبدت نتائجها المحزنة ، ولم تقف عند هاتين القريتين ، فحسب ـ وإنْ كان نصيبهما مِنْ ذلك الأوفر ، وحظُّهما الأخسر . . . !

فحبَّذا لو قام المسؤولون ، ببعْث بعثةٍ فنيَّةٍ ، لِدَرْس هذه الظَّاهرة المفزعة ، لعلَّ يد العلم تأْسوجُرح القطيف ، فإنَّه فِيْ الصَّميم . . .

ولم نلمس هذه « الظَّاهرة » ، إلاَّ عند ما توسَّعتِ « الشركة » فِيْ حفريَّات آبار الزَّيت ، المتاخمة لهذه الينابيع الثَّرة . . .

وإنَّ هذه العيون القديمة ، التِيْ كانت تفيض على القطيف نماءً وخصْباً ، هِيَ مِنْ عهد « الفينيقيِّين » ـ كما قيل .

وهِيَ مبنيَّةٌ على شكلٍ هندسِيٍّ جميلٍ ، وفنيٍّ رائعٍ . . . لم يتوصَّل إليه العصر الحاضر ـ عصْرُ النُّور والذرَّة ـ فَهِيَ شبيهةٌ بتحنيط الأموات ، لدى الفراعنة . . .

وها نحن أُولاء نجد ـ اليوم ـ قوَّتَهَا ، قَدْ تحوَّلت إلى ضعفٍ ، وعمقَهَا إلى ضحْلٍ . . .

وأمَّا الآبار « الإرتوازيَّة » ، فَهِيَ لا تبقى على قوَّتها ، أكثر مِنْ سنواتٍ قلائلَ ـ فِيْ الأكثر . . .

ويُزرع ـ فِيْ القطيف ـ كثيرٌ مِنَ الشَّجر والخضار ، غير أنَّ أنْجَحَ مزروعاتها ، هِيَ النَّخيل . . .

وليس هذا نتيجةً لرداءَة الأرض . . . فأرض القطيف مراعٌ مِخصابٌ ، وتربتها صالحةٌ للبذرة .

ولكن تُعوزها الأسمدة الكيماويَّة الحديثة [1] ، واللِّقاح الذِيْ تتطلَّبه

---

(١) وجدت ـ بعدئذٍ ـ الأسمدة الحديثة ، واستُعملت على نطاقٍ واسعٍ ، وكان مردوده الكمي ممتازاً . أما اللِّقاح ، فلا يزال على عدم .

الأشجار ؛ ويُعوزها عدَم وجود الخبراء الزِّراعيِّين الفنِّيين [1] .

فإنَّنا نغرس الشجر ، دون خبرةٍ بوقت الغرس ؛ ونُسمِّدها بغير سمادها الخاصِّ ؛ ولا تجد مِنَ اللِّقاح ـ عدا النخلة ـ إلاَّ ما تسمح به الطَّبيعة ، وينقله إليها الهواء ؛ ونسقيها بدون مقياسٍ فنِّيٍّ .

لذلك . . . فإنَّنا نجد النَّجاح بطيئاً ؛ بل لا نجد فيها نجاحاً ـ إذا دقَّقنا النَّظر [*] . . .

أمَّا النَّخلة : فَهِيَ لا تُكلِّف العامل ، أكثر مِنَ السِّقاية ـ غير المنظَّمة ـ والملاحظة الضَّئيلة ، فِيْ شهورٍ معلوماتٍ . . .

ولستُ أعرف ـ بالضَّبط ـ عدد النَّخيل فِيْ القطيف ؛ ولكن مِنَ المؤكَّد : أنَّ مَنْ قال بأنَّ رقمها ثمانمئة ألفِ نخلةٍ ، لا يرجع إلى مصدرٍ صادقٍ . وإنَّ الرقم البالغَ مليونَيْ نخلةٍ ، هو قريبٌ مِنَ الواقع . . .

وأقول : « قريبٌ » ؛ لاِنْعدام الإحصاء الحقيقِيِّ ، مِنْ بين يدَيَّ ـ فعلاً .

---

(١) وُجدت ـ بعدئذٍ ـ وحدة زراعة ، أدّت بعض الإرشادات إلى حدٍّ مّا ولكنّها لا تفي بكلِّ متطلَّبات البلد

. . . .

(*) كلُّ هذا يُمثِّل ما قبل النَّهضة المباركة .

- ٤ -

وإنِّيْ ، إذ أشكر للأستاذ عثمان حافظ دعوتَه لنا ـ نحن أُدباءَ القطيف ـ بأنْ نكتب عن تأْريخ وطننا فِيْ : ماضيه ، وحاضره ، فإنَّه لَيُؤسفنِيْ أنْ لا تمكننِيْ ظروفِيَ الحاضرة ، مِنْ تلبية دعوته .

ولكنَّنِيْ أُحيله إلى موضوعٍ لِيْ كتبتُه فِيْ العام الماضِيْ ، ونشرتُه فِيْ مجلَّة « العِرفان » الغرَّاء ، التِيْ تصدر فِيْ صيدا ـ ج ٧ و ٨ و ١٠ م ٣٧ ـ بعنوان « الحركات الفكريَّة . . . فِيْ القطيف » .

فإنِّي عرضتُ ، فِيْ هذا الموضوع ، إلى حركاتنا الفكريَّة ـ فِيْ : ماضيها ، وحاضرها ـ عرضاً موجزاً ، فهو يصلح لموادَّ أوَّليَّة . . . وعسى أنْ تسمح لِيَ الظروف ، لأبسِّطه فِيْ كتابٍ على حدةٍ . . . [1] .

---

(١) بدأتُ بتحرير هذا الموضوع ، إلى كتابٍ مفصَّلٍ ـ تحليلاً ودراسةً ـ وأسأل الله سبحانه أنْ يُوفِّقني للوصول به ، إلى حيث أُريد .

(*) ولكنَّه ـ ويالَلأسف ! ـ امتدَّت إليه يدٌ جريئةٌ ، مِنْ بعض التلامذة الأوفياء ، في النَّجف الأشرف ، وأنا في وطنيَ الأوَّل ـ القطيف ـ فثكلتني فيه ، مع سبعةِ أُخوةٍ له ، لم تزل مخطوطةً .

ـ ٥ ـ

أمَّا ما ذكره الأستاذ ، عنِ « الملاريا » ـ فِيْ القـطيف ـ فهو شيءٌ واقـعٌ ، والمبالغة فيـه لِتكبير المـلامح ، لا للخلق والافـتراء ، تحقيقاً لقـول الشَّريف الرَّضيِّ :

« وما آفةُ الأخبارِ ، إلَّا رواتُها » . . .

فمِنَ المبالغة قوله : إنّه قلَّ مَنْ يسكنها ، ولا يُصاب بحُمَّاها . . . ولعلَّ هذه العقيدة ، المتوغِّلة فِيْ نفوس كثيرٍ مِنَ النَّاس عنهـا ـ تُساعـد على إبـرازها إلى حيِّـز الوجـود . . . فكثيرٌ ممَّنْ يـأْتِيْ إليها ، وهـذه العقيدة تحتـلُّ مِنْ قلبه « المحلَّ الأرْفع » ، فهو يترقَّب ، ولا يبرح وجلاً ، حتَّى يشعـر ـ ولو وهمـاً ـ بعوارض نوبة الحمَّى . . .

أمَّا قوله : [إنَّ صاحب « الدكَّان » يشعر بدنوِّ نوبة الحمَّى] ـ إلخ . . .

فهذه الحكاية ـ وحدها ـ مِنَ الخَلْق والابتداع . وهيَ حكايةٌ ، تُنقل لنا عن بعض ظرفاء « البصرة » ؛ ولكن بعد أنْ سمعناها تُنقل عنِ القـطيف ، فإنَّنا لا نكـاد نجزم بصحَّتهـا ، فَقَدْ تكـون مختلَقةً ـ أيضـاً ـ على « البصرة » الشَّقيقة العزيزة .

ولكن ممَّا لا شكَّ فيـه ، وممَّا لا سبيـل إلى نُكرانـه هو : وجـود الملاريـا

بكثرةٍ ـ ولا سيَّما إذا لاحظنا أنَّنا نعيش فِيْ عصر الذَّرَّة والتَّلفزة ، وما إليها مِنْ معجزات العصر . . .

وصحيحٌ قولُه ، وردُّه كثرة وجود الملاريـا ، إلى المستنقعات الـرَّاكدة ، والمياه الجارية ، التِيْ تُولِّد البعوض ، فينقل لنا هذا الميكروب الخبيث . . .

ولكن فَمِنَ السهـل : القضاءُ عـلى هذه الحشرة البغيضـة الخبيثة . . . فكميَّـةٌ مِنَ الـ « دِ . دِ . تِ » ـ مرَّتـين فِيْ السَّنة ـ تتكفَّـل بالقضـاء عليها ، وإراحة الإنسانيَّة ، مِنْ بعض أعدائها الألدَّاء . . .

وقَـدْ رُشَّتِ البلاد ، بهـذه المـادَّة ؛ ولكنَّ « الـواسـطة » ، التِيْ قـامت بمباشرة الرَّش ، لم تقمْ به ، كما ينبغِيْ ، إلَّا مـرَّةً واحدةً ـ هِيَ المـرَّة الأوْلى ـ فعندما أُذيبت هذه المادَّة فِيْ « القاز » ـ النِّفط ـ كانتِ الفائدة ملموسةً .

أمَّـا حين مـا أُذيبت فِيْ الماء ، فـإنَّنا لم نجـد أيَّ أثرٍ لهـا ، ولم نلمس أيَّة فائدةٍ .

ولسنـا نعلم السرَّ فِيْ ذلـك . . . فَقَـدْ تكـون المـادَّة قـديمـةً ، فَفَقَـدَتْ فعاليتها ؟ أم هناك سببٌ آخر نجهله ؟؟؟! .

وعلى كلٍّ فإنَّها لم تُؤثِّرِ الأثر المنشود . . . فالعمَّال يـرشُّون البيت ، وأنت ترى البعوض والذُّباب ، يتطاير بـارتياحٍ وهـدوءٍ ـ وكأنَّـه يُريـد أنْ يستحمَّ فيه [1] . . . !

---

(١) لقد تكرَّر رشُّ البلاد ـ بعد كتابة هذا المقال ـ بهذه المادَّة ، المحلولة بالمـاء ، فلم يأْتِ بنتيجةٍ مَّا . بـل في كلِّ عامٍ تتضاءل منه الفائدة ، وتتلاشى إلى العدم ! .

ونحن نشكر للأستـاذ دعوتَـه ، لإبادة هـذا الميكروب « المنحـوس » ، بالوسائل الفنيَّة الحديثة ـ كما ننتظر مِنَ الحكومـة ، تأْسيس المستشفى الـذِيْ وعدتنا به ، وتزويـدَه بالـوسائـل ، التِيْ تتطلَّبهـا حاجـة البلاد ، ممَّـا يتمشَّى وتقـدُّم الـطبِّ الحــديث ، وتتنـاسب والحيــاة الـراقيــة ، التِيْ تنشـدهــا الأمَّة . . . (*)

(*) وهذا يعني ـ هو الآخر ـ ما قبل النَّهضة الميمونة ، التي لازلنا نأْمل منها المزيد ، والمزيد ، والمزيد . . .

- ٦ -

وفِيْ ختـام حديثِيْ : أوجِّـه عتبِيْ للأستـاذ صاحب جـريـدة « المـدينـة المنوَّرة » ، إذ يطوف بهذه المقاطعة ، ويمرُّ بـالقطيف نفسهـا ـ مِنْ أقصاهـا ، إلى أقصاها ـ فيبخل عليها بأنْ يقضِـيَ ساعةً فيها ، متعرِّفاً عـلى : علمائها ، وأُدبائها ـ وكلُّهم إخوانه .

ولسنـا نقنع منـه : بأنَّـه أبدى لنـا أُمنيته فِيْ الـزِّيـارة ، والتعـرُّف عـلى الأدباء ، « الذين سمع عنهم كثيراً ، وقرأ لهم قليلاً » ـ كما يقول . . .

وهنا . . . يحقُّ لنا ـ أيضاً ـ أنْ نُعاتبـه عتاب الأحبـاب ، لأنَّه يـدلُّ على إغفالٍ مِنَ الشَّعب لبعضه ـ وهو كالجسم الواحد . . .

والقـطيف لم تُعدْ نكـرةً . . . فكثيراً مـا يَطلع أُدبـاؤُها عـلى صفحـات المجلاَّت الأدبيَّة ـ والراقية منها بصورةٍ خاصَّةٍ ـ فِيْ : مِصر ، ولبنان . . .

فعنـدمـا يتتبَّــع متتبِّـعُ مجلَّةَ « الكِتــاب » ـ مصر ـ أوِ « العِـرفــان » ، و « الألواح » و « الأديب » ـ لبنان ـ أو غيرها . . . فإنَّه سيتعـرَّف إلى طائفـةٍ مختارةٍ ، مِنْ أُدباء القطيف اللاَّمعين . . .

وإنِّيْ ـ شخصيّاً ـ نشرتُ فِيْ هذه المجلات الأربع ـ كما نشر أمثالِيْ .

***

وبعْد . . .

فـأرجو أنْ يكـون ما نَشَـرَهُ الأستاذ ، ومـا كَتَبْتُه ـ أنـا ـ رابطةً ، وصلةَ تعارفٍ ، بين : الحجاز ، والقطيف . . . وأنْ تمتدَّ هذه المعرفة وتتَّسع . . . وأنْ لا نعـود يجهـل بعضُنـا بعضـاً . . . ونحن كـالجـزء الـواحـد ، الـذِيْ لا يتجزَّأ . . .

القطيف : ١٣٧٦/٦/٠١ هـ
١٩٥٢/٢/٢٧ م

الفُصُول الشَّرعِيَّة

للعلاَّمة الشيخ محمَّد جواد مغنيّة العامليّ

ما أحوجنا ، فِيْ ظرفنا ، والمادَّةُ قَدْ طغتْ على القِيم الرُّوحيَّة . . .

ما أحوجنا ، إلى عاملين مخلصين ، فِيْ حقل العلم الدِّينيِّ ، يغرسون - فِيْ حقله - ما يعود على الأمَّة بالنَّفع العميم ، وما يُقدِّم للجيل الجديد ، مِنَ الغذاء الصَّالح ، ويُهذِّبون فيه ما يحتاج إلى تهذيبٍ ، ويُعدِّلون ما يحتاج إلى تعديلٍ .

والواجب يحتم بتعهُّد هذه الدَّوحة الباسقة ، كَيْ ما تدلَّ المتطلِّع على ما خلَّفه السَّلَف الصَّالح فِيْ هذا الحقل العظيم ، مِنْ « أثرٍ » يدلُّ على حِذق البستانِيِّ الماهر ، الذِيْ أوجد هذا الحقل ، وخلَّف فيه هذا الأثر .

إنَّ ركْبَ الحضارة - فِيْ كلِّ نواحيها - تدور عجلاته ، بسرعةٍ واستمرارٍ ، هادفاً إلى التَّقدُّم .

وإنَّ يد العناية ، قَدِ امتدَّتْ لكلِّ شيْءٍ بالإصلاح والتَّطوير ، إلاَّ الفقه الإسلامِيَّ ، فإنَّه لا يزال فِيْ عزلةٍ ، وما يزال قابعاً فِيْ أوراقه الصَّفراء ، وكُتُبِه المبعثرة المشوَّهة ، التِيْ تُقذِيْ النَّظر ، وتجرح الذَّوق الحديث[1] .

---

(١) نحمد الله أنَّ بعض الأيدي الخيِّرة ، امتدَّت للعمل في هذا الحقل الخصب ، فأخرجت بعض تلك الآثار القيِّمة ، والموسوعات المهمَّة في حلَّةٍ قشيبةٍ ، تُرضي الذَّوق ، وتمتع العين .

ويضمُّ بعضها - إلى ذلك - حسناتٍ أُخرى ، مِنْ تحقيقٍ ، أو توضيح بعض غوامض اللَّفظ والمعنى ، أو إخراج مراجع ومصادر الأحاديث .

وإنَّ بعضها قد يضمُّ جميع هذه الميِّزات ، كما فعل العلاَّمة السيد محمَّد الكلانتر - مشكوراً - في :

←

وإنَّكَ إذا احتجتَ إلى الرُّجـوع لمسألـةٍ مَّا ، لا تقف عليهـا ، إلاَّ وأنتَ مكدود العقل ، مرهَق الأعصاب .

فكـان ـ نتيجـةً لـذلـك ـ أنْ جُهـل الفقـه الإسـلامِيُّ ، مِنْ نـاشئـة المسلمين ، جهلاً مخزياً . . . ! ولعلَّ التَّبعة والمسؤوليَّـة ، تقع ـ أوَّلاً ـ عـلى عاتق العلماء الدِّينيِّين . . . !

وها نحن أُولاء ، قَدْ بلغتْ « حاجتنا » أوْجَهَا ، إلى تقدُّم الفقـه الدِّينيِّ فِيْ تآليف ، تسير وركبَ التَّمدُّن ـ فِيْ : الأسلوب ، والطِّبـاعة ، والتَّنسيق ـ جنباً إلى جنبٍ .

حقّاً إنَّ لدينا آثاراً ـ فقهيَّةً ـ قيِّمةً ، تتوافر فيها عناصر البقـاء والخلود ، غـزيرةَ المـادَّة ، عميمةَ النَّفـع ، تضمُّ بـين دفَّتيهـا مـا تحتـاجـه المجمـوعـة الإنسانيَّة .

ولكن فـما يُقلِّل مِنْ قيمتهـا ونفعهـا : ذلـك الـطُّول المـملُّ ، وذلـك الغمـوض فِيْ العبارة ـ إضـافـةً إلى مـا عـرضنـا إليـه ، مِنْ رداءة الـطِّبـاعـة والتَّنسيق ـ فلا تفهمها ، إلاَّ بعد جهدٍ وتعبٍ ، وصبرٍ طويلٍ [١] .

إذن . . . فما أحوجنا ، إلى أنْ نعمل ، لِنُـزيل هـذه العقبات ، ونُعبِّـد

← « اللُّمعة » ، و « المكاسب » (*) ـ أخيراً ـ وغيره ، في غيرها .

والذي نأمله أنْ لايقف العمل عند هذا ؛ بل نطلب المزيد منهم ، لتخرج ثروتنا الفكريَّة الرَّائعة ـ في حقـولها المعرفيَّة المتنوِّعة ـ على مثل هذا المستوى ، وأفضل منه . . . فالقناعة ـ هنا ـ مرغوبٌ عنها ، لا فيها . . . !

(١) وُضعت هذه الكُتُب ـ أساساً ـ كموسوعاتٍ ، لذوي الاختصاص ؛ وليس للقارىء العاديِّ .

. . . .

(*) وُجدت بعض التَّعليقات التَّوضيحيَّة ، وهي مجانبةٌ للصَّـواب ، واضحة الخـطإ ، ولكنَّ هذا لا يُقلِّل مِنْ قيمة العمل والجهد . وأردنا التنبيه لذلك ، حتى يُمكن التَّلافي ، في طبعةٍ جديدةٍ ـ إنْ شاء الله .

هذا الطَّريق الشَّائك ، ونُيسِّر الفقه ، لِيقبل عليه هذا « القطيع » الشَّارِد ، الذِيْ يحمل بشاعة الصُّورة المشوَّهة عنه .

ولكن هذا العمل ، يتطلَّب جهْداً جبَّاراً ، وصبْراً عظيماً ، وعلميَّةً ناضجةً ، وثقافةً عاليةً .

وإنَّ طلوع كتابٍ فقهِيٍّ ـ مِنْ هذا الطِّراز ـ فِيْ مثل ظرفنا العصيب هذا ، لدليلٌ نابضٌ على تحسُّس بعض علماء الدِّين لحاجة المجتمع ، فِيْ تطوير الفقه ، وإلى التفاتهم إلى واجبهمُ المُلقى عليهم ، وتوجيه المجتمع وجهةً دِينيَّةً ، صحيحةً ، ولا سيَّما الشَّباب ـ بعض الشَّباب ـ الذين تخلُّوْا ، أو كادوا ، عمَّا يُدعى دِيناً ، ولم يعودوا يعرفون الدِّين ، إلاَّ شبحاً مخيفاً مرعباً ، نتيجةَ هذا الإهمال .

***

نسوق هذه المقدِّمة بمناسبة ظهور كتاب صديقنا الجليل ، فضيلة العلاَّمة ، الشيخ محمَّد جواد مغنية ، بعنوان : « الفصول الشرعيَّة » .

فهو كتابٌ ، قَدْ توافرت فيه العناصر المشوِّقة ، التِيْ تجذب الشَّباب ، إلى التعرُّف ، على كنز هذا الفقه الإسلامِيِّ ، وتدعوه ـ بإلحاحٍ ـ لِتَمَلِّيْ حُسْن جلاله وعظمته .

إنَّه مجهودٌ كبيرٌ ، وطلائعُ تجديدٍ ، نُؤمِّل أنْ يكون فاتحةً ، لها ما بعدها . . . ومقدِّمةً لعملٍ أكبر وأجلَّ . . .

وممَّا يُغرينا بالأمل فِيْ صديقنا : أنَّه فِيْ بداءة عطائه ، وأنَّه لم يقُلْ كلمتَه كلَّها .

ثم إنَّ الـذِيْ يدلُّ عـلى قيمته الفقهيَّـة ـ مضافـاً إلى قيمته ، المنبثقـة مِنْ ذاته ـ ما يُطالع القارِىء فيه :

شهادةٌ ، تُطالعك فِيْ صدْر الكتاب ، وفِيْ مؤلِّفه .

شهادةٌ ، لم تصْدر ، إلَّا عن : رويَّةٍ ، ومعرفـةٍ عميقةٍ ، وإخـلاصٍ ، مِنْ مصدرٍ ، يُرجَع إليه فِيْ هذه المواضيع ، وقولُه فيها حجَّةٌ وفصْلٌ . . .

تلك شهادةُ سماحة الإمام السيِّد عبد الحسين شرف الدِّين . . .

***

يمتـاز الكتاب بـأُسلوبه السَّهـل الْواضـح . . . فَفِيْ مقدور كـلِّ فردٍ أنْ يستفيد منه ، سواءً الأديب والفقيه . . . فهو كتابُ المـلايين . . . لا كتـاب الخاصَّة وحدهم .

وإنَّـه لَيَقرب مِنْ فهم قـارئه ، فهـو فِيْ متناول كـلِّ قـارىءٍ ، لـه بعض الإلمام بالفقه .

وإن كانت لنا مآخذُ ، على هذا الكتـاب النَّفيس ، فَهِيَ هذه الأغـلاط المطبعيَّة ، التِيْ كنَّا نتمنَّى أنْ يسلم منها ، والتِيْ ليس كلُّ قارىءٍ بمستطيعٍ أنْ يردَّها إلى معانيها الصحيحة ، على الرَّغم مِنْ وجود جدولٍ ، تصحَّحتْ فيه بعض الأخطاء ، لا كلُّها .

وإنِّيْ ـ إذ أشكـر العلاَّمـة المؤلِّف ، على هـديَّته القيِّمـة ـ لأشكـره عـلى مجهوده هذا ، وأُكبر إخلاصه للفقه الإسلامِيِّ .

وعسى أنْ يكون يومـاً قريبـاً ، فتسمح فيـه الظُّروف القـاسية ، لمؤلِّفـه

العلاَّمة ؛ لِيُبرز هذا الكتاب ، فِيْ دائرته الواسعة ، التِيْ اضَّطرته الظُّروف ، إلى عدم إخراجه ، فِيْ دائرته تلك . . .

عسى أنْ يكـون يومـاً قريبـاً ، يوم يُخـرج هذا الكتـاب : جامعـاً للفقه الشِّيعِيِّ ، والفقـه السُّنِيِّ ـ فِيْ مـذاهبـه الأربعـة ـ فتكـون الفـائـدة أوسـع وأعمَّ [1] .

وأخيراً . . . فإنِّي أُوجِّه نداءً حارّاً ، إلى الشباب ، وقَدْ أدبروا عن مثـل هذه الدِّراسات الفقهيَّة : أنْ يُقبلوا عـلى هذا الكتـاب القيِّم ، لِيَعُوْا مـا بين سطوره .

القطيف : ١٣/٤/١٣٧٠ هـ
٢٢/١/١٩٥١ م

(١) لقد أصدر المؤلِّف العلاَّمة ـ بعد ذلك ـ العديدَ مِنَ الكتُب الفقهيَّـة ، التي تجمع آراء المـذاهب الأربعة ، إلى جانب رأي المذهب الجعفريّ .

وختم هذه السـلسلة ، بموسوعته القيِّمة ، فقه الإمام جعفر الصَّادق ـ عليه السّلام .

تَصحِيحُ أخْطَاءٍ

نُشر فِيْ مجلَّة « الكتـاب » ـ المصريَّـة ـ
فِيْ عــددهـا الأوَّل ، مِنْ مجلَّدهـا
الحـادِيْ عشر ـ ربـيـعٍ الـثـانِيْ
١٣٧١ هـ ـ يناير ١٩٥٢ م .

عنَّت لِيْ مـلاحظةُ ، وأنـا أقرأُ ـ فِيْ مجلَّة الكتـاب الغرَّاء ، ج ٨ م ١٠ ـ مقـالاً بعنوان : « البـترول واقتصاديَّـات الشَّرق الأوسط » ، للدِّكتور عمـر حليق .

وقبْـل أنْ أُبدِيَ هـذه الملاحـظةَ ، أقف موقف المتسـائـل ، مِنَ الَّـذين يكتبون مواضيع ، هِيَ للتأْريخ ، أقرب منها لأيِّ شيْءٍ آخر . . .

فَلِمَاذا نراهم يكتبون ، أو يُترجمون ، بـدون تحقيقٍ وتمحيصٍ ، وبدون استقصاءٍ وتتبُّعٍ . . . ؟ !

فهم يُـترجمون هـذه الَّلفظة أو تلك ، غـير مراعـين ـ فِيْ ذلك ـ أُصـول الكلمة . . . بل يُقـرِّبون ذلـك تقريبـاً ، غير مـلاحظين مـوقعَ قـدمهم مِنَ الواقع . . . ولا مُحاسبين أنفسَهم ، أمام التأْريخ .

وهذا خطأٌ كبيرٌ ، لم يكد ينجو منه ـ مِنَ المـترجمين ـ إلاَّ قليلون . ونحن نُعيذهم ، مِنْ ذلك ، ونُحاسبهم أمام الحقِّ والتأْريخ ، ولوجههما وحدهما .

وهـذا الخـطأُ ، لا نـرضـاه لأيِّ فـردٍ ، فكيف بـابْن الكنـانـة ـ قِبلة العُروبة ، ومهوى أفئدة أبنائها . . . ؟

وإنَّه لَينجم مِنْ هذا التَّحريف ، ما قَدْ يُغيِّر مجـرى التأْريـخ ، فإنَّهم إذا ترجموا اسْم هذا القطر ، وقَدْ حرَّفوه ، فسوف لا يمرُّ جيلٌ ، إلاَّ ويُـظنُّ : أنَّ هذا الاسم ، لِمُسمَّىً آخر ، غير مسمَّاه الحقيقِيِّ .

وقَدْ يُظنُّ ذلك ، فِيْ نفس جيل المترجِم ، أو فِيْ ساعة التَّرجمة ذاتها .

* * *

ولَقَدْ آن لِيْ أنْ أُبدِيَ هذه الملاحظة ، على الدِّكتور حليق ، وهِيَ على ترجمته ، لهذه المواضع ، التِيْ ذَكَرَهَا ، عند ما عرض لبترول « المملكة العربيَّة السعوديَّة » ـ فقال :

[ويُستخرج البترول مِنْ آبار : ضهان ، وقاطف ، وبقَّة ، وأبِيْ قايق] .

فالغلط ـ هنا ـ يُساوي ٧٥٪ بالضبط ! .

فنحن ـ حين ما نبحث عن هذه الأسماء ـ لا نجد ، إلَّا اسماً واحداً ، ينطبِق على مسمَّاه ، هو « بقَّة » .

أمَّا « ضَهَان » ، فيعنِيْ بها : « الدَّمَّام » . و « قاطِف » ، يعنِيْ : « القطيف » . و « أبِيْ قايق » ، يعنِيْ : « أبْقَيْقَ » .

وإنَّ حسابنا على الدكتور ، حول تحريف اسْم « القطيف » لأشدُّ ، وبصورةٍ أخصُّ . . . لأنَّ « الدَّمَّام » ـ والموضعين الآخرين ـ هِيَ أسماءٌ مستحدَثةٌ . وهِيَ لمواضعَ تتبع القطيف ـ جغرافيّاً .

ذلك أنَّ القطيف ، ليست بنكرةٍ ، إلى حدٍّ أنَّها لا تُعرَّف ، حتَّى بـ « آل » ، أوِ « الإضافة » . . . !!!

ولكنَّ القطيف ، هِيَ التِيْ أسهمتْ فِيْ ماضينا ، حتَّى لم يكد يخلُوْ مِنْ ذكْرها كتابٌ تأْريخِيٌّ . . . ولا زالت تُسهم فِيْ حاضرنا ، بما فيها مِنْ :

طاقاتٍ ، وعناصرِ عطاءٍ خصْبٍ . . .

فَلْيَرْجِعِ الـدكتور ، إلى « معجم البلدان » ، وتـأْريخَيِ الطبـرِيِّ وابن الأثير ، والتَّنبيه والإشراف ـ للمسعودِيِّ ـ وغير ذلك مِنَ القديم .

ولْيَـرْجِـع إلى « مهـد العـرب » ـ عــدد ٤٠ اقـرأْ ـ للدَّكتــور عـزَّام ، و « قاموس الأمكنة والبقاع ، التيْ يرد ذكرها فيْ كُتُب الفتوح » للأستاذ عليٍّ بهجت ـ وغيرهما : حديثاً .

وَلْيَقرَإِ الدكتور ما نُشر مِنَ الأدب القـطيفِيِّ ، على صفحـات المجلاَّت العربيَّة ـ كالعِرفان [1] ، والألواح ، والأديب ، وغيرها ـ مِنْ صحف لبنان ـ وكالكتاب ، وغيرها .

ولْيَقرأْ ما نشرتهُ الدكتورة بنت الشاطىء ، فيْ « الكتاب » ـ هذا العام ـ ومقالِيَ الشكرِيَّ عليها [2] ـ فيْ العدد الثَّامن نفسه ـ إلى غير ذلك ، ممَّـا تطول ـ لذكْره ـ هذه الملاحظة .

وإنِّيْ لَشديد العجب ، مِنَ هـذا التَّحريف ، لأنَّ حـروف القطيف ـ فيْ الإنكليـزيـة ـ بهـذه الصُّـورة [KATTIF] ، أو [KATIF] وقَـدْ تبـدَّل « K » بـ « Q » . فَلِمَاذا ترجمها الدكتور إلى « قاطف » ؟ .

ولِمَـاذا يُترجم حـرف « D » إلى « ض » ، وحرف « M » ، إلى « ن » ـ فيْ لفظة « الدَّمَّام » ؟ وكذا الحال فيْ « أبقيق » !

* * *

(١) نشرتُ في العِرفان الغرَّاء ـ ج ٧ و ٨ و ١٠ م ٣٨ ـ حلقاتٍ ، حول « القطيف » .

(٢) وقَد ضُمَّ إلى هذا الكتاب ، فهو فيه في ص ١٩ ـ ٣٠ بعنوان « مِنْ قريب » .

وبعْدُ . . .

فهذه ملاحظةٌ أُقدِّمها على صفحات الكتاب الغرَّاء ، للدكتور عمر حليق ـ راجياً أنْ يتَّسع لها صدْر الكتاب ، وصدْر الدكتور ـ قاصداً بها وجه الحقيقة والتأْريخ .

القطيف : ٢١/٠١/١٣٧١ هـ
٢٣/٠١/١٩٥١ م

الإمامُ الأمينُ

نشرتها مجلّة المحيط ، فِيْ عددها الـ ١٤ ، الخاصّ بالسيد محسن الأمين ، الصّادر فِيْ ١١/١٠/١٣٧١ هـ - ٣/٧/١٩٥٢ م .

وضُمّت إلى المجلّد الخاصّ بالإمام - قُدِّس سرُّه - مِنْ موسوعته القيِّمة « أعيان الشِّيعة » .

تناولتُ دعوةً للمشاركة ، فِيْ حفل تأْبين السِّيد محسن الأمين ، الذِيْ عزمتْ على عقْدِه ، طائفةٌ مِنَ الشَّباب القطيفِيِّ ـ ولم يسبق لِيْ علمٌ بهذه الكارثة الممضَّة . . .

فكان لوقْع الخبر المفاجىء ، أعْمق الأثر فِيْ قلبِيْ . . . ! فوجمتُ وَجَمَدَ الدَّم فِيْ عروقِيْ ، لأنَّ المصاب بالإمام الأمين لا يُحتمل ، وإنَّه لشديدُ الوطأة ، عميقُ الأثر ، يحزُّ فِيْ النَّفس ، ويبعث الأسى . . . ولكن لربِّكَ شأْناً ، وهو أعْلم . . . !

***

ليس الإمام الأمين عالماً ، مِنَ العلماء الأفذاذ ، الذين ترجع إليهمُ الطَّائفة الشِّيعيَّة ، والذين يُشار إليهم بالبَنان مِنْ علمائهم ، فحسْب . . .

ولكنَّه يمتاز ـ إلى جانب شخصيَّته العلميَّة الفذَّة ـ بشخصيَّة أدبيَّة مرموقةٍ ، وشخصيَّةٍ تأْريخيَّةٍ قويَّةٍ ، وشخصيَّةٍ وطنيَّةٍ مخلصةٍ ، تعمل دائبةً وثَّابةً . . .

فهو رجلٌ جَمَعَ شخصيَّاتٍ نادرةً ، تمتاز كلٌّ منها بالأصالة والجودة ، والقوَّة والخِصْب ، فالحياة ـ فيها ـ دافقةٌ ناضرةٌ . . . وإنَّه لمصداق لقولهم :

أُمَّةٌ فِيْ رَجُلٍ . . . وعَالَمٌ فِيْ وَاحِدٍ . . .

إنَّ حياته حافلةٌ بالمآثر الخالدة ، والأيادِيْ البيضاء ، مِنْ جلائل

الأعمال ، ممَّا تضعه فِيْ صفِّ العظماء مِنَ الخالدين ، أوِ الخالدين مِنَ العظماء . . . فإنَّه شقَّ طريقه إلى الخلود ، بيده البنَّاءة ، وتبوَّأ ـ مِنَ الخلود ـ منزلةً ، يُغبط عليها ؛ ولم يُعطَ ذلك حبوةً ، أو جزافاً . . .

ولعلَّ مِنْ أبرز الظَّواهر التِيْ تتجلَّى فِيْ هذه الشَّخصيَّة ، المضاعفة ـ وإنْ تكن كلُّ ظاهرةٍ فيها بارزةً . . .

أقول : لعلَّ مِنْ أبرز ظواهر هذه الشَّخصيَّة ، ظاهرةً ، هِيَ : التِيْ انْتزعت إعجاب الكثيرين انْتزاعاً . . .

تلك هِيَ : هذا الصَّبر النَّادر ، والجْهد الدَّائب . . . هِيَ : هذا النَّماءُ المثمر ، والنِّتاج النَّافع . . . هِيَ : هذه المؤلَّفات الكثيرة ، التِيْ هِيَ النَّواة الصَّالحة . . .

وهِيَ ـ بصورةٍ أخصَّ : هذه الدَّائرة الواسعة ، والموسوعة النَّادرة ، التِيْ وضعها ، حيث بذل أقصى جهوده ، فِيْ إتحاف الأجيال القادمة ، وتعبيد الطُّرق الوعرة . . . والتِيْ أعطت ـ مِنْ ثمارها الطَّيِّبة ـ شيئاً ليس بالقليل . . . وأعنِيْ ـ بها ـ كتابَة المطوَّل « أعيان الشيعة » . ذلك الكتاب ، الذِيْ أخرج منه ، ما يُقارب الأربعين جزءاً [1] .

وإنَّ شيئاً مهمّاً فِيْ هذا الكتاب ـ هو ما فِيْ هذا الموضوع ، مِنْ عملٍ شاقٍّ ، وما يتطلَّبه مِنْ : صبرٍ ، وجلَدٍ ، وتتبُّعٍ . . . لأنَّه يبحث فِيْ كلِّ زاويةٍ ـ مِنَ الزَّوايا ـ عن « عينٍ » ، مِنْ « أعيان » هذه الطَّائفة الكبيرة ،

---

(١) هذا ما طُبع منه في حياته ـ رحمه الله ـ ولكن ولده الصَّديق الأستاذ السيِّد حسن ، واصل جهوده ، في طبع مالم يُطبع في حياة أبيه ، حتى قارب السِّتين مجلَّداً .

المتَّسعة الأطراف ، والمنفسحة الأرجاء ، والواسعة الجَوَاء . . .

وأكبر دليلٍ ـ على ذلك ـ ما نجده فِيْ هذه الدائرة ، مِنْ تراجم أُناسٍ ، لا نظنُّ أنَّ أحداً يعثر على مثلهم ـ نظراً لِعَدم شهرتهم . . .

أستغفر الله ! .

نظراً لِعَدم معرفتهم ، حتَّى فِيْ : بلادهم ، التِيْ عاشُوا فيها ، وتنسَّمُوْا هواءها ؛ وتربتِهم ، التِيْ منها أُخرجوا ، وفيها أُعيدوا . . . وهِيَ لا تكاد تعرف ، مِنْ أمرهم شيئاً . . . فضلاً عنْ الاحتفال بآثارهم ، والإشادة بذكرهم . . .

وهذا أمرٌ يدعو إلى إكبار هذا الرَّجل العظيم ـ لا مِنْ حيث علميَّته ، ومعرفته ، واطِّلاعه ، فحسْب . . . بل مِنْ حيث جهْده ، وتتبُّعه ، وتقصِّيه ، المنقطِعِيْ النَّظير ؛ ومِنْ حيث إخلاصه لفنِّه ، فِيْ زمنٍ قلَّ فيه المخلصون ، الذين يعملون لحُسْن العطاء وجودته ـ لا لشهرةٍ ، يرجونها مِنْ وراء عملهم ، ولا لجزاءٍ يأْملونه .

وليس يحطُّ مِنْ قيمة عمله الضَّخم ـ فِيْ « أعيانه » ـ أنْ يكون « مادَّةً خاماً » ؛ فَهِيَ : « قوَّةٌ » و « ذخرٌ » ، لِمَنْ شاء أنْ يعمل ، مثل عمله ، فِيْ مقتبل الزَّمن ؛ و « تراثٌ » محفوظٌ للأجيال القادمة .

إذ ليس مِنَ المنتظر ، أنْ يحتفل بالأُسلوب ، مَنْ يُواجه هذا المجهود الجبَّار ، وهو يُريد أنْ يمضِيَ فِيْ شوطه البعيد الغاية ؛ لعلَّه يستطيع أنْ يقف على المرسى الأمين ، قبل أنْ تُمزِّق الأنواءُ ، مِنْ سفينته الشِّراعَ . . .

وإنَّه لَمِمَّا يُخفِّف مِنْ حدَّة أسفنا ـ على فَقْدِهِ ـ ويُكفكف مِنْ غلواء حُزننا

عليـه : أنَّ الله قَدْ حَبَاه الخلودَ ـ فِيْ داره الباقيـة ـ بعْـد أنْ خلَّف ، وراءه ، هذا العملَ الجليلَ ، وهذا المجهودَ الضَّخمَ .

ولكن ما يعود بنا إلى عميق الحزن ، ويُثير فينا ... صفَ الأسى ، فتطفو رواسبُ الوجْد الكمين ، هو : أنَّه الْتحق بربِّه ، وهو بعْـدُ ـ لم يُشارف مِنَ الشَّاطىء مرساه ، ببضاعته الغالية هذه .

بل ألقى عصا التَّسيار ، قبْل مراحل عدَّةٍ ، عنِ الشَّاطىء الأمين ، وفِيْ إعصـارٍ ماردٍ ، ونـوءٍ غضوبٍ . . . فـإنَّ هذه الأجـزاء ، التِيْ تقـرب ـ مِنْ « أعيانه » ـ الأربعين ، لم يصل فيها ، إلاَّ لحرف « السِّين » فقط ! [1] .

وإنَّه ـ وهو على عتبة التِّسعين مِنْ سنيه ، المكتظَّة بالجلائل ـ لَيُحسب فِيْ شرْخ الشباب ، وميْعة الصِّبا الريَّان .

ولكنَّ التِّسعـين عـامـاً ، التِيْ مـرَّت بـه ـ قَـدْ أعـطتْـه حنكـةَ الشُّيـوخ وأنـاتهم ، فِيْ : التَّمحيـص ، والتَّـدقيق ؛ وأعـطتْـه مِنَ التَّجـارب الكـثر ، ما انْتفع بها ، ونَفَعَ ـ أيضاً . . .

إنَّـه ـ فِيْ شيخوختـه ـ لَفِيْ : حنكة الشُّيـوخ ، وأنـاتهم ، وتجـاربهم ، ووَقارهم ؛ وفِيْ : قوَّة الشباب ، ونشاطـه . . . فهو طـرازٌ بِدْعُ للشُّيـوخ ، وطِـرازٌ نـادرٌ للشَّبــاب ، مِنْ حيث : القــوَّة ، والنَّضــارة ، والحنكــة ، والعزم . . .

وكان فِيْ أدوار حياته ، المديدة الزَّاخرة : « القدوةَ المثاليَّةَ » ، و « المثـلَ الأعلى » . . .

---

(١) أشرنا لإكمال نجله الكريم ، مهمَّة أبيه الشَّاقَّة ، بطبعـه بقية أجـزاء الموسـوعة ، التي لم تُـطبع في حيـاة أبيه .

فنأمل مِنَ الشَّباب والشُّيوخ ، معاً : أنْ يترسَّموا مِنْ حياته الخُطى ، ويأْخذوا مِنْ سلوكه القدوةَ الحسنةَ ، ويجعلوا مِنْ سيرته الأستاذَ الموجِّه ـ لئلاَّ يصدق عليهم قول الشاعر الشبيبيِّ :

شَبَابٌ طَائِشٌ نَزِقٌ وَشِيْبٌ مَا بِهِمْ رَمَقُ

إنَّه ـ وهو على نهاية القرن ، الذِيْ عاش فيه ـ لَيُنتج نتاج الشَّباب ؛ النَّاضج الرُّجولة ، المتدفِّق مضاءً وفتوَّةً . . . وكلُّه دفْقٌ وحياةٌ . . . وكلُّه خيرٌ وبركةٌ . . .

ولم تكنِ الأعوام التِّسعون ، بالتِيْ تُثنيه عن أنْ يُواصل عمله ، أو أنْ لا يُتحف الجيل بثمره ، أو أنْ لا يُخلِّد على صفحات التأْريخ سطوراً ، يشعُّ منها النُّور الوضِيُّ ، فيهتدِيْ به العالِمُ ، والأديب والمؤرِّخ ـ على حدٍّ سواءٍ . . .

ولم تكن أعماله الثَّقافيَّة ، مقصورةً على ناحيةٍ واحدةٍ ، دون أُخرى . لأنَّك تجده ، وهو ماضٍ ـ فِيْ همَّةٍ قعساءَ ـ لإتْمام مهمَّته العظيمة « أعيان الشِّيعة » . . . ولا تبرح ، أو لا يبرح ، أنْ يُتحف المكتبة العربيَّة ، بكُتُبٍ أُخرى ، فِيْ مواضيع أُخرى ، غير موضوع كتابه . . .

فيأخذك العُجب ، بهذا الرَّجل العظيم ، وبهذه النَّفس الجبَّارة . ويحملك على إكبار ما تمتاز به ، مِنْ مميِّزاتٍ كُثر . . .

ولم تكن أعماله الثَّقافيَّة ـ أيضاً ـ لِتَحول بينه ، وبين خدمة وطنه خدمةً تدُلُّ عَلى وطنيَّةٍ صادقةٍ صميمةٍ . . .

* * *

وبعْدُ . . . فإنَّ الكلام حوْل الإمـام « الأمين » ، لـذو سعةٍ لأنَّ حيـاته حافلةٌ بما يُبهر ، وبما يُفيد ، وبما يُقدَّر . . .

فشخصيَّةٌ هذه مآتيها فِيْ هذه الحياة ، لجديرةٌ بالحديث وبـالذِّكـر . . . فعسى أنْ يُعـوِّض الله الأمَّة ، بِفَقْـدِه خيراً . . . وأنْ يُنـزله ـ لـديـه ـ منـزلاً مباركاً ، لا لغْوَ فيه ، ولا تأثيمَ . . .

القطيف : ٧/٧/١٣٧١ هـ
٣/٤/١٩٥٢ م

الإمامُ الخالِدُ

كـان لِمَوت سـماحـة الإمـام « كـاشف الـغــطاء » رِنَّــةُ أسىً ، طــافـتْ بالأقطار العربيَّة والإسلاميَّة .

وكـان أثَـرُه ـ فِيْ القـطيف ـ عميقـاً ، فـعُــطِّلتِ الأســواق ، وأُقيـمـتْ لروحه الفواتحُ .

وهذه كلمةٌ ، ألقيتُهـا فِيْ إحدى هـذه الفواتح ـ وهِيَ التِيْ أقامها قـاضِــيْ المحكمــة الشرعيَّـة الجعفــريَّـة ، فضيلة الحجَّـة الشيـخ عـلِيٍّ الجِشيِّ ـ عصر يوم الأربعاء : ٢٠/١١/ ١٣٧٣ هـ ـ ٢١/٧/١٩٥٤ م .

الموتُ : كلمةٌ ، لا بُدَّ لكلِّ إنسانٍ أنْ تخفق على رأسه أجنحتُه ، فيلفظ ـ حينذاك ـ آخرَ أنفاسه . . .

الموتُ : سطرٌ ، خطَّ على جبين المرء ، منذُ يوم وَلادته ، أو قبْل أنْ يُولد .

الموتُ : كأْسٌ مترعةٌ ، لا محيص مِنْ تجرُّع ما فيها ، مِنْ : صابٍ ، وعلقمٍ . . . وكلُّ محاولةٍ لتجنُّب شرْب هذه الكأْس ، تذهب ـ دون جدوىً ـ أدراجَ الرياح . . . !

الموتُ ـ ويَالَهَول هذه الكلمة الصَّادعة . . . !

الموتُ : كلمةٌ ، تتصدَّع لذكْرها القلوبُ ، وتختلج الشِّفاهُ ، وتُعقل الألسنُ . . .

يا لَهَا مِنْ كلمةٍ مريرةٍ ، لا مفرَّ مِنْ أنْ تختلج بتجرُّع صابها الشِّفاه ! ؛ وحِمْلٍ بهيظٍ ، لا بُدَّ وأنْ يحتمله المرء ، فيخور تحت وطْأته .

منذ يوم الإنسان الأوَّل ، وهو يُواصل خُطاه ، نحو الموت ، لِيُقرِّب طريقه نحو البغيضِ لديه ، والمريرِ فِيْ فمه ، والثَّقيل على قلبه . . . وليس لديه ، ما يُطيل هذه الخُطى ، أو يُبعد هذه الطَّريق ، أو يُغيِّر هذا المجرى . . .

وهو لو وَقَفَ ـ لحظةً ـ عنِ السَّيرِ فِيْ هذه الطَّريق ، لكان قَدْ سَلَكَ أقْصر

الطُّرق ، وَوَصَلَ ـ رأساً إلى النِّهاية المحتومة ، المريرة ، البغيضة .

***

فِيْ كلِّ يوم ٍ قَدْ أنهى دورةَ الحياة ، وفْرٌ مِنَ النَّاس ؛ وشارف النِّهايـة جمٌّ مِنَ الْخَلْق ؛ وشرب الكأس المريرة عددٌ ، على غير قلَّةٍ . . .

فِيْ كلِّ يوم ٍ يطرق سمعَكَ موتُ عددٍ مِنَ النَّاس ، فلا يمرُّ بسمعك غـيرَ مرور النَّبإِ المكرور . . .

ولكن . . . فَفَـرْقٌ بـين : ميِّتٍ وميْتٍ ، وفقيـدٍ وفقيـدٍ . فبمقـدار مـا يُعطِـيْ الإنسـان مِنْ خـيرٍ ، ويُقـدِّم مِنْ عمـل ٍ ، ويقـوم بـه مِنْ واجبٍ ـ يكون مقياس أثر فَقْدِهِ فِيْ المجتمع . . .

يموت إنسانٌ ، فلا يكاد يُحسُّ بفَقْـدِهِ أحدٌ ؛ أو لا يُحسُّ بِفَقْـدِه ، سوى بضعةٍ مِنْ أقاربه . ولا يلبث أنْ يندمل جرحُ مصـابه ، ويُتنـاسى شخصه ، ولم يكن قَدْ خلَّف ذلك الفراغ الشَّاغر . . .

ويموت آخر ، فتُشارك مدينتُه ووطنُه أهلَه فِيْ المصـاب ، ويُحسُّون بمثـل ما يُحسُّ الابن بِفَقْدِ الوالد الحدِب . . .

ويموت ثالث ، فيتعدَّى أثَرُ فَقْدِهِ ، وعمقُ جرْح المصـاب به ، إلى بـلادٍ أُخـرى . . . وإذا بصدى الأنَّـات ، تُجاوبهـا أنَّـاتٌ وأنَّـاتٌ ، فِيْ وطنٍ ثـانٍ وثالثٍ ، إلى ما شاء الله ؛ حتَّى أنَّك لتجد فِيْ كلِّ بلدٍ مـأْتماً ، وفِيْ كـلِّ فردٍ : ذلـك الثَّكولَ الشَّـاعرَ بـالخسـارة ، المتـألِّمَ للجـرح الفـاغـرِ الفم ِ ، العميقِ المدى . . .

ذلك . . . أنَّ هذه الشَّخصيَّـة ذاتُ يدٍ بيضـاءَ ، تعدَّت ـ بمَـا قَدَّمتْـه ـ الوطنَ ، الذِيْ فيه نشأتْ . . .

ومثـل هـذه الشَّخصيَّـة لا تعـرف حـدوداً ، تفصـل بـين : إنسـانٍ ، وإنسانٍ ؛ وتُميِّز بين : عنصرٍ ، وعنصرٍ . . . فَهِيَ شخصيَّةٌ إنسـانيَّةٌ ، قبْـل أنْ تكون عراقيَّةً ـ مثلاً ـ أو قطيفيَّةً .

* * *

والمثال الحَيُّ ، لهذه الشَّخصيَّة ، القليلة الوجود ، هو فَقِيدُنا الكبـير ، سماحة الإمام ، الشيخ محمَّد الحسين كاشِف الغِطاء ـ رحِمَه الله .

لذا . . . فليس ببدعٍ أنْ نلمس عميق جرْح فَقْدِه ، ونُحسَّ مستفحل ألمَ مصـابـه ، ونُسيـل القلوب دمعـاتٍ قـانيـاتٍ ، ونُقــطِّع الأكبـاد أنَّــاتٍ مفَجَّعةً . . . فخسارة مثله لا تُعوَّض . . .

ونحن ـ إذْ نفعل هذا ـ لا نُعـطيه شيئـاً . . . فما هـوى سوى ردٍّ بعض شيْءٍ عليه ، ممَّا قدَّم وأعطى . . .

فليس لنا ـ وليس للدَّهر ، أيضاً ـ أنْ ننسى له تلك المواقف الصِّلاب ، التِيْ وَقَفَ فيهـا : مكافحـاً عن مبدإٍ ؛ منـافحـاً عن معتقـدٍ ؛ مـدافعـاً عن حقٍّ . . . وما الحياة غير العقيدة والجهاد . . .

وليس لنـا ـ وليس للدَّهـر ، أيضـاً ـ أنْ ننسى لـه ذلـك الـيراعَ الجـوَّال القوِيَّ ، وذلك القلب الحديدِيَّ ، يقذف الحمَمَ ، لِيردَّ الشُّبهات ، فيهدِيْ ضالاًّ ، ويردع جاهلاً ، ويردُّ آثماً . . .

وإنَّ له لَمواقف غرَّاء ـ تُقابل بالإكبار والتَّقدير ـ ردَّ بها هجماتٍ ، شنَّها بعض الشُّذَّاذ ، تجاه المذْهب الشِّيعِيِّ النَّقِيِّ . . . ووُجِّهتْ سهامٌ طائشةٌ ، مِنْ أيدٍ أثيمةٍ ، لِتنال مِنْ جوهر الحقِّ ، ورُواء الفضيلة . . .

. . . فما كان منه ـ رحمَه الله ـ إلَّا أنْ ردَّ الحجَر ، إلى نحر راميه ؛ و « كَشْفَ الغطاء » ، عن سوء نيَّة ذلك الباغِيْ ، واسْوداد طويَّته . . . وكَشَفَ عنِ الحقِّ النُّقبَ ، ودلَّ على النُّور مبتغيه ، وأخَذَ بيد الضَّالِّ ، إلى حيث الطَّريق الأقوم . . .

ولم يكن جهاده القلمِيُّ ، موقوفاً على ناحيةٍ فحسْب ! . فهو داعيةٌ إسلاميَّةٌ ، لا يُهادِن الغرب ـ وهو العدوُّ الألدُّ للإسلام ـ وليس يرضى عنِ الأعمال البشعة ، التيْ يقوم بها ـ هو ، أوْ عملاؤُه ـ ولا يغترُّ بعسلهمُ المداف بالسُّمِّ . . .

فَفِيْ الكتاب الأخير لفقيدنا : « المُثُلُ العُليا . . . » ـ وهو الخفْقة الأخيرة للسِّراج ، مِنْ جهاده الطَّويل الشَّاقِّ ـ فَضَحَ ، بجرأةٍ فذَّةٍ ، تلك المُؤامرات الغربيَّة ، والدِّعايات المغرِّرة ، والدعاوى الباطلة . فهو ـ فيه ـ طبيبٌ نطِسٌ حاذِقٌ ، شخَّص الدَّاء ، ثمَّ راح يصف الدَّواء النَّجيع . . .

وإنَّكَ لتعجب ـ وأنتَ تقرأُ فيه ـ أنْ يكون هذا الكتاب ، بيراعة شيخٍ ، ذرَّف على الثَّمانين ـ مِنْ عمره ـ أو شارف عتبة التِّسعين ، وهو رفيقُ أمراضٍ ، وطريحُ عِللٍ ـ لِمَا يحفل به مِنْ : حماسةٍ ، وصلابةٍ .

فروح الشَّباب ، تتوثَّب بين الحروف قويَّةً ؛ وقوَّة العزيمة تسيل على السُّطور دافقةً ؛ وقوَّة البرهان تتلمَّسها ـ بين هذا وذاك ـ جليَّةً واضحةً . . .

ولكنَّه الحقُّ لا يهين ، ولا يستكين ، سواءً أكـان فِيْ الشَّباب ، أم فِيْ : الكهولة ، أوِ الشَّيخوخة . . .

***

هذه هِيَ بعضٌ ـ مِنْ كلٍّ ـ مِنْ مآتِيْ هذا الرَّجل العظيم . . . وهذه هِيَ مفتاح شخصيَّته الفذَّة الكبيرة ، تتفتَّح عن جوانب وظـواهر ، لا تكـون إلَّا لـزعيمٍ خالـدٍ ، قَدْ أتى بـأعمالٍ جسـامٍ . . . فإنَّ مـآتيه العـظام ـ فِيْ هذه الحيـاة ـ لَتضعه فِيْ صفِّ العـظماء الخالـدين ؛ وتكتب له الخلود عـلى جبـين الدَّهر ؛ وليس ليدٍ أنْ تمحو منها الحروف ـ وهِيَ على لمعانٍ ووهجٍ . . .

ومـا الخلود بـالهـيِّن ، ولا بـالسِّلعـة التِيْ تُبـاع وتُشـترى . . . ثم ليس الخلود ، بالذِيْ يُسلب ممَّن كان له ذلك المستحقَّ الجدير . . .

وإنَّ ممَّـا يُضـاعف الخسـارة ، ويـزيـد فِيْ الألم ، ويُجسِّم المصـاب ، أنْ نفقده فِيْ مثل هـذا الظَّرف المـزعزَع ، الـذِيْ أصبح فيـه الزَّعيمُ المخلصُ ، ضرباً مِنَ العدم . . . والعالمُ العامـلُ ، على عـدم وجودٍ . . . لم يكـد يبقى منهما ، سوى اسْمهما ـ لولا وجود قلَّةٍ ، نسأل الله لها مديـد العمر ، وطـويل البقاء . . .

أجـل ! إنَّه لَمِنَ المؤْسف الممضِّ : أنْ نفْقِـد مثل هـذا ، فِيْ مثل ظـرفنـا المحلولكِ هذا ـ وما أشدَّ حاجتنا لوجود أمثاله . . . !

. . . وأنْ يبقى مَنْ هـو الثِّقل عـلى الأرض ، والفسـاد فيهـا ، والـذِيْ ليس لـه سوى بـطن الأرض ، يُوارى فيـه وجهه البغيض ، فـلا تنبعث منه نأْمةٌ ، تُسمِّم مِنَ الأفُق هواءَه ، وتُرسل الشُّرور ، بين الأناسين . . .

ولكنَّنا مِنَ « المصلحة » ، لَعَلَى الجهل الأعمى ، فـإنَّ « لِرَبِّـكَ شأْنـاً ، وهو أعْلم » .

القطيف : ٢٠/١١/١٣٧٣ هـ
٢١/٠٧/١٩٥٤ م

مِنْ وحيِ الحمّى

أثرُ الألمِ في الفِكر

نُشر فِيْ مجلّة « صوت البحرين » ، فِيْ عـددهـا الثَّـانيْ عشر ، مِنْ سنتهـا الثَّالثة ـ ذو الحجَّة ١٣٧٢ هـ .

مَطَـــافْ

كثيـراً ما تُخـامرنِيْ فكـرة الكتابـة ـ وأنا محمـومٌ ـ ولكنِّيْ أجمد أمـامهـا ، وأُغضِـيْ على مضضٍ . . . ذلك أنِّيْ أخشى أنْ يكـون موضـوعِيْ مصداقـاً لقولهم : (هذيانُ محمومٍ) . . . أو أنْ يقرب مِنْ « هذيان المحموم » ـ على الأقلِّ . . . ؟

ولكنِّيْ ـ فِيْ هذه المرَّة ـ ووطْأةُ الحمَّى شديدةٌ حتَّى أنِّيْ لا أتذكَّر أنَّ الحمَّى زارتنِيْ بشوقٍ فائرٍ ، مثل هـذا الشَّوق المـبرِّح المُهتاج . . . وبعبـارةٍ أصحَّ : بهذا الثِّقل البغيض . . .

ولم تكتفِ أنْ تحـلَّ ـ وحـدهـا ـ ضيفـاً ثقيـلاً . لا ! بـل طفيليّـاً بغيضاً . . . ! حتَّى حلَّت ـ فِيْ جسمِيْ بجندها الشَّرِس . . .

فهذا الألم ـ فِيْ رأْسِـيْ ـ يكاد لا يدعُنِيْ أرفعه ، مِنْ عـلى الوسـادة . . . وهـذه الجعجعة والدَّوِيُّ يملآن دمـاغِيْ ، ويصمَّان سمعِيْ ، حتَّى أنِّيْ لأجـد الصَّوتَ غير الصَّوتِ ، والنَّغَمَ غير النَّغمِ . . . !

وصوتِيْ ؟ إنِّيْ أحسبه صوتاً غير اعتيادِيٍّ . . . ؟

وأمَّـا العـدَّة التِيْ أُكـافحهـا بهـا ، فَهِيَ تُعينهـا عـلى أذايَ . . . فهـذه « الإبـر » تُؤْلمُنِيْ ، وهـذه حبـوب « الكينـا » تُسعف الضجَّـة ـ التِيْ حـول رأْسِـيْ ـ فتزيدها قوَّةً . . . !

ولكنِّيْ أجد ـ فِيْ أَلَمِ الدَّواء ـ لذَّةً مستعذبةً . . . وباسْتعذابِيْ لها : فارقَ بينِيْ وبين الطفل .

فهو يفزع مِنَ الدَّواء ، لأنَّه لا يُحِسُّ منه ، إلَّا بالألم الظَّاهِرِيِّ . . . ويقنع منه بالمعرفة (السَّطحيَّة) ، دون أنْ يغور إلى عمقها العميق . . . فيفرِق مِنَ الدَّواء ، ولا يفرِق مِنَ الدَّاء . . .

وفِيْ رأْيه ـ إنْ كان له رأْيٌ ـ أَنَّه أزاح عن نفسه ألماً آخر ، هو : أَلَمُ الدَّواء . . .

***

أقول : إنَّنِيْ ـ فِيْ هذه المرَّة ـ أجد فِيَّ شعوراً قويّاً ، يُحفِّزنِيْ على الكتابة ، ويدعونِيْ إليها ـ بإلحاحٍ .

ورغم أنِّيْ أُقاوم هذا الشُّعور ، فإنَّه لا يفتأُ أنْ يعود . . . حتَّى أنَّ الفكرة لتتكوَّن ، فِيْ ذهنِيْ ، والكلماتُ تتألَّف وتتركَّب . . . وما عليَّ إلَّا أنْ أُصيِّرها : كائناً حيّاً . . . !

والفكرة ـ كالمولود ـ التِيْ يتمُّ خَلْقها ، ثمَّ لا تدفعها الطَّبيعة ـ دفعاً اعتياديّاً ـ للخروج . . . فهِيَ ـ لا محالة ـ (خِدَاج) .

ولو أنَّنِي مِنَ « الجبريِّين » لقلتُ : إنَّ قوةً دَفَعَتْ بِيْ ليراعِيْ ، وأخَذَتِ القرطاس ، وحَبَّرَتْ هذه المقالة ، بدون إرادةٍ منِّيْ . . . !

ولكن معاذ الله ! فلِيْ قوَّة مِنَ الحقِّ تعالى ، مودَعةٌ فِيَّ ، أُسيِّرها باختيارٍ منِّيْ ، وإفاضةٍ منه عزَّ وجلَّ . . .

أثَـرُ الألَـم

مِنْ رأْيِي : أنَّ الألم ليس يُؤثِّـر عـلى النِّتـاج الفكـرِيِّ ـ مِنْ حيث هُـزال المحتوى ، أو ضمور الشكل ـ إلَّا فِيْ حالاتٍ مستثناةٍ . . .

وذاك أنْ يكون الألم ، مؤثِّراً على الجهاز العقلِيِّ ، فيُؤدِّيْ إلى ما يـدعونـه بـ (الجنون) ـ تارةً ـ وبـ (الاضْطِّراب الفكرِيِّ) ـ أُخرى ـ و « الانحلال العقلِيِّ » ـ ثالثةً ـ و (الهيستيريا) ـ مرَّةً رابعةً ـ أو بما شابه هـذه الأسماء ، فِيْ حالاتٍ أُخرى . . . وليس تهمُّنا الأسماء ، ما دام « المسمَّى » واحداً . . .

فحينئـذٍ يكون التَّـأْثير ـ فِيْ هـذه الحالات ـ مِنْ نـاحيةٍ ثـانـويَّـةٍ ، غـير اعتياديَّةٍ . . . أيْ : إنَّ التَّأْثير لم يكن مِنَ الألم ، بما هو ألمٌ . . . !

إذن . . . فقولهم :

« إنَّ الـعقـلَ الـسليـمَ فِيْ الجسـمِ السليمِ » .

لا يصحُّ لنا أنْ نعتبره « قاعـدةً » ، نتمشَّى عليها ، فـإنَّها غير صـالحةٍ ، لِأنْ تكـون قاعـدةً ثـابتـةً ، أو حقيقـةً قـائمـةً ، مـا دام الـواقـع يُنـاقضهـا ـ أحياناً . . .

إذ أنَّا نجد رجلاً منْهكَ الأعصـاب ، قَدْ أودَتْ بـه العلَّة . . . ولا يزال

متمتِّعاً بقواه العقليَّة ، وطاقته الفكريَّـة ـ مثله يوم كـان : صحيح الجسم ، قويَّ الأعصاب ، مفتول السَّاعدين . . .

فبهذا نرى : أنْ لا رابط بـين : الفكر ، والجسم ، مِنْ حيث الصِّحَّـة والسّقم ، ومِنْ حيث وجود الألم ، وعدم وجوده . . .

***

وقَدْ قلتُ ـ فِيْ معرض القول عنِ (الألم) ما مُؤدَّاه :

إنَّ الألم يمشِـيْ فِيْ طـريقٍ ، غير طـريق الفكر . فـإنْ قُدِّر لـه أنْ يطوف به ، فَلِيُعطيَه طاقـةً ، ولِيَكون لـه كالبـوتقة للذَّهب ، ينصهـر بها ، فـتزيده وهجاً ولمعاناً . . . [1] .

بل إنَّنا إذا ألقينا نظرةً على الألم ـ عموماً ـ نجده الـدَّافع الأوَّل للفكـر ، والينبوع الثَّرَّ ، الـذِيْ يُغَذِّيْ العقـل ، ويدفـع به ، إلى الإنتـاج ، أوِ العمل المفيد . . .

وإنَّه لَمِنْ دواعِيْ الإبداع ، والجـودة والإتقان . . . فهـو سلاحٌ قـوِيٌّ ، يُتغلَّب ـ به على الصُّعوبات . . .

ولستَ ترى عظيماً ، أو خالداً ، إلاَّ وقَدْ تألَّم . . . ولستَ تجده متـألِّماً ، إلاَّ ووجدتَ ما أنتجه الألم مِنْ خيرٍ . . .

فكلُّ أصحاب الرِّسالات تألَّمُوْا ، ولكن مـا زادهُمُ الألم ، إلاَّ نشاطـاً ،

---

(١) راجع مجلَّة « الأديب » الغرَّاء ج ٨ م ٢٠ ـ السنة الـ ١٠ ، عام ١٩٥١ م . وقد مرَّ المقال بين طوايا هـذا الكتاب ، بعنوان : « حول حديث العشية » ، ص ٥١ ـ ٦٣ .

وإقداماً ، وإصراراً على أداء الرِّسالة ، وتضحيةً فِيْ سبيلها . . .

* * *

أَلَمْ يتــألَّمِ « المسيــح » ـ عليــه الـسَّــلام ـ مِنْ حِـقْـد شُـذَّاذ الأمَّـة « الإسرائيليِّين » ، فقاومهم ، ثائراً فِيْ وجههم ، شاهراً سلاحَه المـاضِـيَ ، وهو قانون المحبَّة والسلام ، فـ :

« الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ الله » . . . ؟

* * *

وهذا الرَّسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نالـه ـ مِنْ قريش ٍ ـ مـا نالـه . . . حتَّى فُرِش طـريقه بـالألم الصَّـارخ . . . فـلا يمـرُّ بـطريقٍ إلَّا ويُـرضـخ بـالحجـارة ؛ ولا يسجـد لـربِّـه ، إلَّا ويُلقَى عليـه (فــرْثُ ودمُ الجزور) . . .

إلى غير ذلك . . . مِنْ أنماط العذاب ، وألوان الهوان .

ولكنَّه يمضِـيْ فِيْ طريقـه ، ويُؤدِّيْ رسالتـه ، غير مفكِّـرٍ فِيْ ما يلقى مِنْ ألمٍ . . . وإنَّه لا يدع رسالته ، سواءً أأعطوه الشَّمس والقمـر ـ فِيْ يديـه ـ أم ضاعفوا له الألم والعذاب . . . !

* * *

و (نَهْجُ البـلاغة) : دليـلٌ قوِيٌّ صـارخٌ ، على ألم الإمـام عليٍّ ـ عليـه السَّـلام ـ وقَدْ طفحت حيـاته بـالألم ، ليس الألم الجسدِيَّ ، الـذِيْ لاقاه فِيْ سبيل نشْر الدَّعوة ، التِيْ ضحَّى فِيْ سبيلها وضحَّى ، ما شاءت منه الدَّعـوة أنْ يُضحِّيَ . . .

ولكنّه الألم النفسيُّ الذيْ لحقه ، والضَّيم والحيف اللّذان أُلحقا به ، حتَّى دفعه الألم ـ والألم النفسيُّ هو أقسى أنواع الألم ، وهو أكثرها إبداعاً . . .

. . . حتَّى دفعه هذا الألم فيْ ساعاتٍ مِنْ فورته ، حين ما يطفح به المدُّ العاتيْ ، إلى أنْ يُنفِّس عن كبْته المضطَّرم ، بكلماتٍ تُصوِّر مدى هذا الألم الَّلاذع . . .

فلو لم يكن له ـ مِنَ الخُطَبِ الصَّارخة بالألم ـ سوى خطبته « الشِّقْشِقِيَّة » ، لدلَّتنا على مدى الألم الصَّارخ فيْ أعماقه . . .

[وَطَفِقْتُ أَرْتَئِيْ بَيْنَ أَنْ أَصُوْلَ بِيَدٍ
جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلى طِخْيَةٍ
عَمْياءَ ، يَهْرَمُ فيها الْكَبِيْرُ ،
وَيَشِيْبُ فِيْهَا الصَّغِيْرُ ، وَيَكْدَحُ
فِيْهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ . فَرَأَيْتُ
أَنَّ الصَّبْرَ عَلى هَاتَا أَحْجَى ؛
فَصَبَرْتُ ، وَفِيْ الْعَيْنِ قَذىً ، وَفِيْ
الحَلْقِ شَجىً ! أَرَى تُراثِيَ
نَهْباً . . .]

وما هذه « الفقرة » ـ سوى دليلٍ على ما يضمُّه (النَّهج) ، مِنَ الألم المبدع . . .

وغير هذا وذاك . . . نجد كثيراً ، مِنَ الألم المنتج المبدع . . .

***

قَـدْ تُـرانِيْ سقتُ الشـواهـد الكثـيرة ، عَـلَى أنَّ الألم لا يعـترض أعـمال الفكـر ، ولا إبداعـه ؛ ولا يعوق الإنسـان « الممتـاز » ، عن أداء رسـالتـه الرُّوحيَّة . . . ولكنيِّْ لم أُقدِّم شاهداً فِيْ مجال النِّتاج الفكرِيِّ . . . [1] .

وإنَّـه ، وإنْ صلحتْ شواهـدِيْ تلك ، أنْ تقوم دليـلاً فِيْ مجـال الفكـر ـ بنوعيه ـ ألاَّ أنيِّْ لن أعدم الشواهد ، فِيْ مجال النِّتاج الفكرِيِّ وحده .

فما تقول فِيْ نتاج الشُّعراء والكُتَّاب . . . ؟

أليس الألمُ باعثَ نتاجهم ، وميقظَ عبقريَّتهم . . . ؟ !

والألم ـ بـأنواعـه الكثر ـ يـدفع بـالكاتب والشَّـاعر ، إلى : الكتـابـة ، والنَّظم . . . بل وإلى التَّجويد فيهما ؛ حتَّى تكاد تُحسُّ الفرق الكبير ، بين : نتاج الألم المبدعِ ، ونتاج الدَّعة والاطمئنان . . .

***

فلولا الألم لَمَا كان للمتنبِّيْ ـ مثلاً ـ مثل هذه الثَّروة الشِّعـرية الفـذَّة ، فِيْ تأْريخ الإنسانيَّة الطَّويل . . .

أليس الألم ـ أيّاً كان نوعه ، أو دافعه ـ قَدْ دفعه لأنْ يهجو مثل (كافور) بشعرٍ حيٍّ . . . ؟

والألم ذاته ، هو الذِيْ دَفَعَهُ لنظْم مثل :

أنَـا الـذِيْ نَـظَرَ الأعـمَـى إلى أدَبِيْ
وأسمَعتْ كَلِمَـاتِيْ مَـنْ بِـه صَمَـمُ . . .

---

(١) وذلك إذا ما استثنينا الإشارة ، إلى نتاج الألم ، عند الإمام عليٍّ ـ عليه السَّلام .

و :

مِنَ الحِلمِ أنْ تسْتعمِلَ الجَهلَ دُونَهُ
إذَا كثُرتْ فِيْ الحِلمِ طُرْقُ المظَالِمِ

***

والشَّريف الرَّضِيُّ ؟ ألم يكن للألم اليدُ الطولى فِيْ مراثيه ، وفِيْ فخره . . . ؟

فخذ شاهداً مثل هذه الأبيات ، مِنْ ديوانٍ حافلٍ بنتاج الألم المبدع :

مَا مُقَامِيْ عَلى الهَوانِ وَعِنْدِيْ
مِقْوَلٌ صَارِمٌ ، وَأَنْفٌ حَمِيٌّ ؟ !
وَإِبَاءٌ مُحَلِّقٌ بِيْ عَنِ الضَّيْـ
ـمِ كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيٌّ ؟
أَيُّ عُذْرٍ لَهُ إلى المَجْدِ ، إنْ
ذَلَّ غُلَامٌ ، في غِمْدِهِ المشرِفِيُّ
أَلْبَسُ الذُّلَّ فِيْ دِيارِ الأعَادِيْ
وَبِمِصْرَ ، الْخَلِيفَةُ (العَلَوِيُّ)
مَنْ أَبُوهُ أَبِيْ ، وَمَوْلَاهُ مَولايَ . . .
إِذَا ضَامَنِيْ الْبَعِيدُ القَصِيُّ . . .
لفَّ عِرْقِيْ بِعِرْقِهِ سيِّدَا النَّا
سِ ـ جَمِيعاً ـ محمَّدٌ وَعَلِيٌّ . . . !

إنَّ ذُلِّيْ - بِـذَلِـكَ الْجَـوِّ - عِـزٌّ
وَأُوامِيْ - بـذَلِـكَ النَّقْـعِ - رِيُّ . . . إلـخ

***

وبـالألم - وحـده - أتحفنـا أبـو فـراسٍ الحمـدانيُّ ، بــروائعـه ، وهي ما تُسمَّى بـ « الرُّوميَّات » ، وفيها :

أرَاكَ عَصِـيَّ الـدَّمْـعِ شِـيمَتُـكَ الصَّـبْرُ
أَمَـا لِـلْهَـوَى نَهْيٌ عَـلَيْـكَ وَلاَ أَمْـرُ

***

وكـلُّ الشعر الغـزليِّ ، مصدره : « ألَمُ الحبِّ » . . . وهـل هنـاك - مِنْ أنواع الألم - ما هو أعمق منه تأْثيراً ؟ ، أو أشدُّ وأقسى منه . . . ؟

لا أظنُّه يُوجد . . . ! وإنَّ محبّاً لا يُؤَثِّر فيه هذا الألم ، إنَّه لجبـلٌ أصمٌّ ، وحجـرٌ صليـدٌ . . . ذلــك أنَّ مِنَ الحجـارة لَمَـا يتشقَّق ، فيخــرج منــه الماء . . . [1] .

وإنَّ قلباً لا يُلينه هذا الألم ، إنَّه لقلبٌ حديدِيٌّ ، خالٍ مِنَ العاطفـة ، مسلوبةٌ منه الحياة . . .

فبـألَم الحبِّ طار ذكْـر « المجنـون » ، ومَنْ لفَّ لفَّـه ، مِمَّنْ أمضَّهم هـذا الألم ، وجرَّعهم مِنْ كاساته . . . !

***

---

(١) إشارة للآية الكريمة : ٧٤ - مِنَ البقرة .

ولأنْتقل إلى عصرنا الحاضر ، فأُقدِّم إليك هذه الأبيات ـ مِنْ قصيـدةٍ ، عنوانها : « بين فكَّيِ الموت » :

يَامَسَاءَ الصَّيفِ الحَزينِ . . . خَبا حُبِّيْ لِمَا فِيكَ مِنْ : أَسَىً ، وَخُشُـوعٍ . . .
وَتَـبرَّمتُ بِـالسُّكـونِ وَبِـالأشْبَـاحِ . . . وَاعتَضْتُ عَنهـمَا . . . بِـدُمُـوعِيْ !
لَمْ يعُـدْ فِيْ قَلبِي هَـوىً لِـدَيـاجِيـكَ ـ فَيَـا رَحمَـةً بِقلبِيْ الـوَجِيـعِ !
رَحمَـةً . . . ! يَـا ظَـلامُ . . . يَـا صَمتُ . . . يَـا أسْرَارُ . . . بِـالْخَـافِقِ الشَّقِيِّ المرُوعِ . . .

ما تقول فِيْ هذا النِتاج . . . ؟

إنَّ الألم فيـه صارخٌ ، فهـو على غليـانٍ . وقَدْ نـظمتِ الشَّاعـرةُ (نازك الملائكة) قصيدتَها ـ هذه ـ « وكانتْ مصابةً بحمّىً شـديدةً ، مـلأتْ نفسَها ضجراً » . . .

وما لِيْ أقتصر ـ مِنَ الدِّيوان على هذه القصيدة ؟ ، و « عـاشقة الَّليـل » كلُّه ألَمٌ صارخٌ . . . بل لم ينظمه سوى الألم . . .

ومـا إنْ خَمَدَ الألم ، حتَّى جمـدتِ (الشَّاعـريـة) ، مِنْ نفس شـاعـرتنـا الحـزينة ، واستبـدلتْ قيثارةً تعـزف عليها ، غـير قيثارتهـا الشِّعريَّـة هذه ، الموقَّعة على وتَر الألم النَّفسِـيِّ المبدِع . . .

***

وهذا فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد الخَطِّيِّ ، لا يفتأُ أنْ يُتحفنا ـ فِيْ سـاعات ألمـه ـ بـروائـعَ مِنْ شعـره . . . فَلْنَقْـرَأْ لـه هـذه الإضـامـة ، مِنْ « رباعيَّاته » :

لَحْدُ الأديب

أَهْـرَمَتنِيْ ـ قَبلَ مِيعَادِ المَشيبِ ـ
بَلْدةٌ مَلأى بِألْوانِ الخُطُوبِ . . .
رَحُبَتْ أُفْقاً لِغُرْبَانٍ ، وَلَم
تَتَّسِعْ أُفْقاً لِهذَا « العَندَلِيبِ »
تَفْتَحُ السَّمعَ إلى « نَاعِبَةٍ »
وَتَسُدُّ السَّمعَ عَنْ لَحْنٍ رَطِيبِ
لَم تكُنْ مَهداً لِفَنٍّ . . . إنَّما
خُلِقتْ لَحْداً لِفَنٍّ وَ « أدِيبِ »

لَحْنُ العِبَرْ

سَألتنِيْ : لِمَ لَا تُنشِدُنِيْ
غَزَلاً ـ أسمَعتَنِيهِ فِيْ « الصِّغَرْ »
كُنتَ إنْ غَنَّيتَه أصْغَى الدُّجَى
وَتَجُنُّ الشُّهبُ ـ مِنْهُ ـ وَالقَمَرْ
تَتَلَقَّاهُ الدُّجَى ـ وَهْو ضُحىً ـ
نَغَمٌ فِيْ كُلِّ ثَغرٍ . . . وَوَتَرْ . . .
قُلتُ وَالرَّعشَةَ تَسْرِيْ فِيْ دَمِيْ :
لَيْسَ فِيْ عُودِيْ سِوَى « لَحْنِ العِبَرْ »

هِــزارٌ وسَطَ غُرْبَان

ذَوَى شَــبـــابِيْ فِيْ إبَّـــان رَيْــعَـــانِيْ

لِمْ لاَ يشِـيبُ هِــزارٌ وَسْطَ غُـرْبَــانِ ؟ ؟

قَـدْ ضِعْتُ فِيْ أُمَّةٍ « ورهَـاءَ » عَـاكِفَــةٍ

عَــلى عِـبَــادةِ أَصْنَــامٍ وَأَوْثَــانِ . . .

لا تَـقــدِرُ الـعِـلْمَ وَالآدَابَ فِيْ رَجُــلٍ

مَــا لم يُحَـصَّـــنْ بِــتَزويــرٍ وَبُهــتَــانِ

إنِّيْ ـ إلى كُـلِّ مَخـدُوعٍ بهــا ـ « عِـظةٌ »

فَقَدْ أَقَمْتُ غَريباً ـ بينَ « إخوانِ . . . »

***

وقد قدَّم لنا الشَّاعر محمَّد سعيد الشيخ عليٍّ الخُنيزيُّ « شيئاً » ـ مِنْ نتاج ألمـه المبدع . . . فيقـول مِنْ قصيـدتـه (الغـد البـاكي) ، المنشـورة فِيْ مجلة العِرفان الغرَّاء م ٣٩ :

أَرَى ـ مِـنْ زَوايَـــا حَيَـــاتِيْ ـ « غَـــدِيْ »

فَـأُبــصِــرُهُ جُــثَّـــةً هَـــامِــدَةْ . . .

يُمــزِّقُـهــا « مِخْلَبُ الـنَّــائِبــاتِ » . . .

وَتُـــوغِـلُ أَنْيَــابُهــا « حَــارِدَةْ » . . . !

أُحسُّ بِهــذَا الــفَــراغِ الــعَــمــيْـ

ـقِ . . . وتلمسُ كَفِّيْ دُنــاً بــارِدَةْ . . .

أَرَاكَ ـ غَـدِيْ ! ـ مِنْ كُـوَى حَـاضِـرِيْ
فَـأُبصرُ أشبَاحَـكَ الرَّاعِـدَةْ . . . إلخ [1]

* * *

وأخيـراً . . . فما تقـول فِيْ نتاج صـديقنا الأستـاذ « بولس سـلامة » ؟ أليس مصدره الألم . . . ؟
ألم يقـل : إنـه فِيْ سـاعـةٍ ـ مِنْ سـاعـات ألمـه ـ نَـظَمَ قصيـدتـه (عـليٌّ والحسين) . . .

وليست ملحمتـه ـ عنَّا ـ ببعيـدة ! فإنَّـك لا تفتحهـا ، حتَّى تـرى ـ فِيْ (صَلاته) ـ صورةَ ألمه المكبَّر . . . ولكنَّها صورةٌ رائعةٌ ، تحملك على الإيمان بلذَّة الألم ، والاطمئنان إليه :

وَاهِـبَ النُّـورِ وَالـنَّـدَى لِـلرَّوَابِيْ . . .
أَوْلِنِيْ مِنْ جَمَـالِ وَجْـهِـكَ شَيَّـا . . .
طَـالَ فِيْ مَـنْقَـعِ الـعَـذابِ مُـقَـامِـيْ
وَاسْـتَرَاحَ الـشَّـقَـاءُ فِيْ مُـقْـلَتَـيَّـا
فَنَسِيتُ النَّهَـارَ مِنْ طُـولِ لَيْـلِيْ . . .
أَتُـرى اللَّيْـلَ شَـرعَـكَ الأَبَـدِيَّـا ؟ ؟
لَـيْتَـنِيْ أُبصِرُ الـنُّـجُـومَ فَـأُهْـدِيْ
ـ فِيْ الـعَشِـيَّـاتِ ـ بَـسْـمَـةً لـلثُّـرَيَّـا

---

(١) تُراجع في ديوانه الأوَّل : (النَّغم الجريح) .

إنَّ حَـظِّيْ مِـنَ الحـيَـاةِ « سَرِيـرٌ »
صَـارَ مِـنِّيْ فـلَمْ يَـعُـدْ خَـشَـبِـيَّـا[1]
كُـلُّ هـذِيْ الـدُّنيَـا الـطَّلِيقَـةُ أضحَتْ
وَيْـحَ حَـظِّيْ ! أضْحَتْ حَـرَامـاً عَلَيَّـا !
بِـالـعَـذَابِ الأمـرِّ طَـهِّـرْ فُـؤادِيْ
فَـيـعـودَ الـصِّـلصَّـالُ دُرّاً مُـضِـيَّـا

ثم أَلَمْ ينفحِ العـربيـة ، بـأروع آيـات الألم وأعمقهـا ـ « مـذكَّـرات جريحٍ » ـ الذِي يبدأُ فيه ، مِنْ أوَّل حرفٍ منـه . . . ولكن الحياة تـدبُّ فيه دافقةً قويَّةً . . . !

وما الألم سوى دليلِ الحياة . « فأنا أتألَّم ، إذن فأنا موجودٌ » ـ كما يقـول صديقنا (بـولس) ، ردّاً على فلسفـة « ديكارت » : (أنـا أُفكِّر ، إذن فـأنا موجودٌ) . . .

أجَل ! فإنَّ الحياة تبدأ بأنَّة ألَمٍ ، وتنتهي بأنَّة ألَمٍ . . . فَهِيَ حلقاتٌ مِنَ الألم متَّصلةٌ ، يربط بعضُها الآخر ، ويشدُّ بعضُها بعضاً . . .

---

(١) كنت علَّقت في مقالٍ ـ نُشر في الأديب ، ومرَّ في تـلافيف هذه الصَّفحـات ، ص ٥٩ ـ ٦٠ على الشَّطر الأخير ـ مِنْ هذا البيت ـ بأنَّه يكون بهذه الصُّورة :

(صـرتُ منْهُ فلمْ يعُـدْ خشبيًّا)

أروع منه في الصورة الأوْلى وأشعر . . .

غير أنَّ الأستاذ (بولس) أجابني ـ في إحدى رسالاته :

إنّه أراده بتلك الصُّورة ، (للقلب والإبدال في المعنى) ، على حدِّ قوله تعالى :

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ : النجم : (٩) .

مع أنَّ لـ (القوس) قابين ، فيكون (قابي قوسٍ) . . .

وأعـود فأقـول : إنَّـك وأنتَ تقـرأُ ـ لبـولس ـ ألَمـه ، لَتَغْمـرك الَّلذَّة ، وتدَعَك تُؤْمِنُ بها . . .

* * *

وخلاصة القول : إنَّ الفكر مدينٌ للألم ـ فِيْ كثيرٍ مِنَ الأحيان . . .

لـذا ، فليس الألَم بالعـدوِّ الألدِّ للفكـر ـ دائماً ـ إلَّا فِيْ حـالاتٍ شاذَّةٍ ، كما سَبَقَ أنْ قلنا فِيْ صدْر المقال . . .

وإنَّ الألم لَيَصقل الفكر ، ويزيده صفاءً ووهجاً ـ فحسْب ـ فهو آخذٌ فِيْ طـوره التَّصاعـدِيِّ نحو الكـمال ، والألم يُواكبـه ، لِيُبوْتقـه ، مِنْ أجْل هـذا الصَّفاء الَّلامع ، والوهَج البرَّاق . . .

* * *

وبعْد . . .

فَقَـدْ أطلتُ عليكَ ـ يـا عـزيـزِيَ القـارىء ! ـ الحـديثَ عنِ الألم وفضـائله . . . وقَـدْ نسيتُ ـ خـلالـه ـ أَلَمِيَ الشَّـديـد . . . ونَسيتُ أنِّيْ متألِّمٌ . . .

ذلك أنِّيْ حلَّقتُ ، وانطلقتُ ، مـع الفكر ، فِيْ عـالمه الهـادىء ، الذِيْ لا اضِّـطراب فيـه ، ولا صخَب . . . والـذِيْ لا يعـرف غـير السمـوِّ والانطلاق . . .

القطيف : ﴿ ٢٢ / ٤ / ١٣٧١ هـ
٢١ / ١ / ١٩٥٢ م

تَبَاشِيرُ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ

كُتبت هـذه الكلمة تلبيةً لدعوة « المكتبة الأهليَّة » ، بمناسبة ذكرى المولد النَّبوِيِّ ؛ وألقيتُها فِيْ الحفل ، الذِيْ أقامته المكتبة لهذه المناسبة الكريمة ، فِيْ ليلة الجمعة ١٨/٣/١٣٧٥ هـ الموافقة ٤/١٠/١٩٥٥ م .

إنَّ الـظُّلمة الفـاحمـة ، وإنْ كَلَحَ منهـا الجبـين . . . وإنَّ الَّليـل ، وإنِ ازْدحمت فيه الغياهب القاتمة ، فإنَّهما نذيرا ولادة فجرٍ ، تضحل فيه الـدُّنيا ، وتتمزَّق فيه صحائف الَّليل السُّود . . .

فالَّليل ـ بظُلَمِهِ الكافرة ، بأشْباحه المخيفة ، بـوحْشته المـرعبة ـ هـو : بشارةُ ميلاد ذلك الفجر المنتظر . . .

وكذلك كانتِ الحياة الجاهليَّة ، والأوضاعُ المنحطَّة ، عصرَ ذاك . . .

فَهِيَ ـ فِيْ انحطاطها ، فِيْ فقْرها مِنَ : المعرفة ، والأخـلاق ؛ فِيْ خنْقها للحـريَّة ؛ فِيْ تعـططيلها للفِكـر ؛ فِيْ شلِّها للعقـل ؛ فِيْ امْتهـانها لإنسـانيَّـة الإنسان . . . !

فَهِيَ ـ فِيْ هـذا كلِّه ـ تُنذر بتبـاشير عصرٍ ، ينتشر فيـه الضَّـوء ، لِيُبـدِّد ما رَسَمَهُ ذلك العصر ، مِنْ : خطوطٍ سـودٍ ، وصحائفَ شـوهاءَ ؛ ويفـكَّ العِقـال عن تلك الحريَّـة المقيَّدة ؛ ويصقـل تلك العقليَّة الصـدئة ؛ ويُنشِّط ذلك التَّفكير المكدود . . .

. . . ولِـيَرْفـع ذلـك المستـوى الـواطىءَ المنحطَّ المُخـزِيَ ، ويُعيـد للإنسانيَّة : كرامتَها وعزَّتَها ؛ بعْد أنِ امتُهنتْ ، واستُذِلَّتْ ، واستُحقرتْ ، حتَّى بات الصَّخر الأصمُّ ، والأخشاب البالية ، أكرمَ منها وأعزَّ ! .

أستغفـر الله ! إذ فاضلتُ بينهـما . . . فـأين العبـد مِنَ الإلـه ؟ ؛ وأين المربوب مِنَ الرَّبِّ ؟ .

فالإنسان ـ هذا الذِيْ يُسمَّى بـ « المفكِّر » و « العاقل » ـ يمترَّغ منه الجبين ، عند موطإٍ ذلك الصَّنم الأصمِّ ، الذِيْ أوجده الإنسان بيده ، فرَفَعه فوقه ، حتَّى اتَّخذه إلـٰهه المعبود ، وعَقَلَ حريَّتَه ، جَمَّدَ تفكيره .

وقَدْ رَبَطَ ـ إلى ذلك ـ عجلة سيره ، وتقدُّمَه ، بهد المشدود ـ أبداً ـ إلى الأرض ، الذِيْ لا يُبدِيْ حراكاً ، ولا يحير جواباً . . .

ولو كانت له ذرَّةٌ مِنْ : عقلٍ ، وتفكيرٍ ، لَقَهْقَهَ ساخراً ، مِنْ هذه الحثالة مِنَ البشر . . . !

ولَقَدْ بدت تباشير ذلك العصر المنتظر ، لأفذاذٍ ـ مِنْ هذا الحشد البشرِيِّ الزَّاخر ـ فيرى الواحدُ منهم : ذبالة نورٍ تلوح له ، فتبين له الظُّلمة الفاحمة ، التِيْ عاش فيها ، ويعيش فيها ذووه وجنسه ، فيرتعب منه القلب ، ويضْطَّرب منه الجنان .

ولا تُزايله الخلج الهادية ، التِيْ تُبشِّع فِيْ عينيه هذا الانحطاط الفكرِيَّ ، وتُكبِّر فِيْ عينيه هذه الصُّور الشَّوهاء ، وتُلمسه مرير الواقع الذِيْ يحياه ، حتَّى تفرض عليه : أنْ يستعيد كرامته الإنسانيَّة ، فتُعانده نفسه أنْ يحنِيَ جبهته ، أمام هذا الصَّنم الأجْوف ، وتدفعه أنْ يبحث عن مصدر تلك الذُّبالة ، التِيْ أشارت إليه نحو صراح الطَّريق . . .

***

ولَقَدْ كان هذا الحشْد مِنَ النَّاس ، ينظر إلى بيتٍ واحدٍ ، لم يكن لِيُشارك المجموع ، فِيْ ما يُمارسونه مِنْ طقوسٍ ، تُمثِّل انْحطاط الفكر . . . !

فما كان هذا البيت لِيَنحدر إلى واطىء السَّفح ، وله جناحان يأْبيان عليه أنْ يسفَّ ، ويدفعانه لأنْ يُحلِّق إلى أسمى القِمم . . . فله عباداتُ ، غير ما يُؤدُّون . . .

وإنهم لم يجدوا لواحدٍ مِنْ هذا البيت ظلاًّ ، يشخص أمام هذه الأصنام ، الممتلئة بها الكعبة ، والضَّائقة بها ذرعاً رحاب الأرض . . .

فهذا البيت يُؤدِّيْ عباداتٍ ، يغمرها الخشوع والخشية ، والصِّدق والإخلاص . هِيَ : عبادة المنعَم عليه ، للمنعِم ، والخلوق للخالق ـ وليست مثل عبادتهم : عبادة المنعِم ، للمنعَم عليه ، والخالق للمخلوق . . . !

وقَدْ كان بعض أُولئك الأفذاذ ، الذين تراءت لهمُ الذُّبالة مِنَ الضَّوء ، يرى فِيْ هذا البيت : قبَساً ، تنزاح به سحائب ، مِنَ الظَّلام الأفحم ؛ فتشتدُّ منه العزيمة ؛ وتتزايد فِيْ أعماقه النُّفرة ، مِنْ هذا الوضع المتردِّيْ ، ويرتقب ـ كما يرتقب هذا البيت ـ حدَثاً ، يُفاجأُ به الكون . . .

. . . وإنْ كان كلُّ شيْءٍ فِيْ الكون ، يرتقب نهاية هذا الانحطاط ؛ ويرتقب الخلاص ، مِنْ هذه الفوضى والانحلال ، فتُمحى هذه الأوضاع ، لتحلَّ مكانها أوضاعٌ ، تُشدُّ بعجلة التَّطوُّر والازدهار والتقدُّم ، فلا تتباين بينها الخطوات ، ولا تنكفىءُ فِيْ سيرها الحثيث الصَّاعد .

***

ولَقَدْ بدَت تلك التَّباشير أكثر وضوحاً ، يوم جاء أبرهةُ ، يسوق الجيشَ اللَّجب ، تقدمه الفيَلة الضِّخام ، لِيَهدَّ مِنْ بيت الله وطيدَ أُسُسه المنيعة ،

ولِيَجتثَّ مِنْ قريشٍ وأهل مكَّة : دعائمَ عزِّها الشموخ .

وكـان مِنْ زعيم قُريشٍ ، وإمـام مكّـة ، مـا سجَّله التـأْريـخ بنصيـع الحرف ، لِيَبقى على إشعاعٍ ، فيكون مثـالاً لوطيـد الإيمان ، ورسيـخ الثِّقة بالله . . .

إنَّ الخشيـة والرُّعب ، زلـزلا القلوب ، وخضخضا النُّفـوس ، وكلَّحا الوجوه ، سوى هذا الشَّيخ ، الباسمِ الثَّغر ، والضَّاحكِ الأسارير ، المشعَّةِ منه بسمةُ الثِّقة والطُّمـأْنينة ، الآخـذِ بحلقة الكعبـة ، المهدَّدة بـالخطر ، فِيْ عيون أهل مكَّة ، الهاتف مِنَ الأعماق :

يَـارَبِّ ! لاَ أرجُـوْ لهُـم سِـوَاكَـا
يـارَبِّ ! فـأمْنَـعْ مِنهُمُ حِمَـاكَـا
إنَّ عَـدوَّ الـبَـيـتِ مَـنْ عَـادَاكَـا
امنعْهُمُ أنْ يخـرِبُـوا فِنَـاكَـا [١]

ويمضِـي يهتف فِيْ أبياتٍ أُخر : تُجسِّم الإيمان ، وتُمثِّل الثقة ، لتقرَّ هـذه القلوب الواجفة ، وتُعيد لها شيئاً ، مِنَ الثِّقة والاطمئنان . . .

فلا يقف مِنْ هُتافه ، فِيْ أبياتٍ ، على النِّهاية ، حتَّى يهتف بقريشٍ :

« يا معشرَ قريشٍ ! لا يصـل إلى هدْم هذا البيت ، فإنَّ له ربّاً يحميه » [٢]

* * *

(١) و (٢) عن كتابنا (أبـو طـالب مؤمن قـريش) ـ وقـد ذكـرنـا تلك الأبيـات ـ في الفصـل المعقـود ، عن عبدالمطَّلب .

ماذا . . . ؟ إذن فلهذا البيت ربٌّ ، غير هذه الأرباب ، الجاثمة فِيْ فِناه ، والمتصدِّرة منه قدسَه الأقْدس . . . ؟

أوَ ليست هذه الأرباب ـ وهِيَ الكِثار الضِّخام ـ بالقادرة على منْع هذا المعتدِيْ الأثيم . . . ؟ فتبّاً لها وترحاً ! .

إذن . . . فَلْيَنظروا . . . !

ولكن فَقَدْ هَالَهُم ما يرون . . . ! فما هذا المحلِّق فِيْ الجوِّ ، حتَّى حَجَبَ مِنَ الشَّمس ضوءَها المنتشر . . . ؟ !

وما هذه الحصيات ، التِيْ لا يُسمع لها صدىً ـ وهِيَ الغاية فِيْ : الصِّغر ، والخفَّة ـ لو وَقَعَتْ على الصُّلب مِنَ الأرض ، مِنْ شاهقٍ . . . والتِيْ لا تقع على رأس واحدٍ ، مِنْ جيش الفيل ، حتَّى تغور فِيْ باطنه ، فتصرعه ؛ ثمَّ هِيَ لا تُخطىءُ فِيْ واحدٍ ، ولا يُخطىءُ منها أحدٌ . . . ؟

إذن . . . فإنَّ قدرةً خفيَّةً ، هِيَ التِيْ حَمَتْ هذا البيت . . . وإنَّ ربّاً غير هذه الكثرة ، العديمة النَّفع ، هو الذِيْ دَفَعَ الدَّواهِيَ عن هذا البيت .

وهل أنَّ ربَّ عبد المطَّلب ـ وهو الواحد الفرد ـ خيرٌ مِنْ هذه الأرباب ، وهِيَ لا تُعدُّ مِنْ كثرةٍ . . . ؟

إنَّهم لَفِيْ ضلالٍ وعمىً . . . ! ولكن ماذا عليهم ، وقَدْ باتُوْا فِيْ منجاةٍ ، مِنَ الخطر الدَّاهم . . . ؟

ليكنِ الدافع ، الذِيْ دَفَعَ عنهمُ المكروهَ ، ما شاء عبد المطَّلب أنْ يُسميَّه ، وأنْ يقول عنه . . . فإنَّهم لن يُحوِّلوا منهُمُ الأنظار ، عن هذه الأرباب ، القريبةِ منهم ، الجاثمةِ بين أيديهم ، والتِيْ تحوطها عيونهم ،

وتلمسها أكفُّهم . . .

إنَّهم لَنْ يدعوها ، وقَدْ رأوُا الآباء والأجداد ، تفعل ما يفعلون ، وماهم لسوى آثارهم يقتفون ! .

***

ولكن ذلك الفجر المرتقب ، ما كان لِيَبعد منه الإشراق ، وقَدْ تكاثفتْ ـ مِنَ اللَّيل ـ سودُ الظُّلَم ، فعميتِ العيون ، وأُقفلتِ القلوب ، حتى أمستْ لا تنظر أمامها ، ولا تُحسُّ ما حواليها . . .

وما كانت حادثة الفيل ، إلاَّ نذيراً ، بأنَّ يوم النُّور ، لن يُحظى بإشراقة غير هذا العام . . . وما الحادثة ـ بالنسبة إليه ـ إلاَّ كقرع الأجراس ، حتَّى تُفتح الأبواب [1] . . .

وما كان لهذا النور أنْ يُشرق ، مِنْ سوى ذلك البيت ، الذِيْ تشدُّه بالإيمان عميقُ الجذور ، ومكين الأسُس . . . فليس إلاَّ مِنْ ذريَّة عبد المطَّلب ، مصدر النُّور .

وها هو ذا عبد المطَّلب ـ وقَدِ انْزاحتِ اللَّيلة السابعة عشر ، مِنْ ربيعٍ الأوَّل ، عن فجر يومٍ ، لم تُحظَ ، ولن تُحظى السنون والأزمان بيومٍ ، كهذا اليوم : روعةً ، وبهاءً ، وإشراقاً . . .

ها هو ذا يستقبل حفيدَه ، مِنْ ذلك الحبيب ، الذِيْ غالته المنون ،

---

(١) تُشير بعض التَّواريخ ، إلى : أنَّ ميلاد الرَّسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ في يوم رمي الطير بالحجارة .

بعيداً عنِ الأهل والأحباب . . . وقبْل أنْ تقع منه العين ، على ثمرةٍ مِنْ سنيٍّ حياته ، القصيرة الظلِّ . . .

وهكذا يستقبل الحياةَ ، محمَّد بن عبد الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يتيماً ؛ فلا تقع عينه على ملامح أبيه . . .

ثم لا يلبث حتَّى يفتقد حنان الأمومة ، فيبقى يتيماً ، مِنْ أبوين ، فارقا الحياة ، فِيْ : ميعة الصِّبا ، وزهوة العِرس ، وريِّق الشَّباب ، بعْد أنْ قدَّما للإنسانيَّة نسختَها المثاليَّة الكاملة ؛ وللأخلاق مُتمِّمَهَا ؛ وللوجود منقذَه ؛ فقاما بأقدس رسالةٍ حملها إنسانٌ .

ويحبو فِيْ الوجود ـ هذا اليتيم ، منذ وُلِدَ ـ على : فقر كفٍّ ، وخلوِّ وِفاضٍ ، وجفاف نبْع حنان الأبَّوة والأمومة ، لولا حنان جدٍّ رحيمٍ ، ورعاية عمٍّ حدِبٍ ، وشفقة زوجةِ ذلك العمِّ الحدِب .

فعبد المطَّلب ، الجدُّ الرَّحيم ، يحوطه بحنانه .

وأبو طالبٍ ، العمُّ الحدِب ، يرعاه بعْد افتقاد جدِّه ، وينصره بعد صدوعه بالنَّذارة والرِّسالة . . .

وفاطمة بنت أسد ، الحنون ، تُمثِّل له دور الأمومة الرَّءُوم . . .

. . . حتَّى يقول عنِ العمِّ ، وقَدِ افتقده ، فأحسَّ بالمرارة الخالعة :

« مَا نَالَتْ مِنِّيْ قُرَيْشٌ شيئاً أكرَهُه ،
حتَّى مَاتَ أبُو طالِبٍ » .

ـ إلى كثيرٍ مِنْ مثل هذه المقالة ، التِيْ هِيَ مثال الوفاء .

ويتحدَّث عن فاطمة بنت أسد ، فيقول :

« **كَانَتْ لِيْ كَأُمِّيْ !** » .

فيُوفِّيْ لها حقَّها ، وهِيْ تُلحد[1] ؛ ويُوفِّيْ لها حقَّها ، وقَدْ ضمَّها الخلود بين ذراعيه . . .

وهكذا وُلِدَ محمَّدٌ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ رسول الإنسانيَّة :

« فَقْــرُ كفٍّ ، والنَّفسُ كَـنْــزُ خُلودٍ
هكَـذَا كَـانَ مَـولِـدُ الأنبيَـاءِ . . . »

القطيف : ١٦/٠٣/١٣٧٥ هـ
٠٢/١٠/١٩٥٥ م

(١) إشارة لاِضِّجاعه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ في قبرها ، قبل أنْ توسَّد فيه ، لِتنجوَ مِنْ ضغطة القبرِ .

العَلّامَة الجشّيُّ

قيلت فِيْ تـأْبين الفقيـد الكبير سـماحة الحجَّة الشيخ عـلِيٍّ الجِشِّيِّ ـ المتوفّى ليلة الثُّلاثاء ١٥ جمـادى الأوْلى عام ١٣٧٦ هـ .

وأُلقيتْ فِيْ أُسبوع فاتحته .

[إنَّا لله ، وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ] .

كلمةٌ يثوب إليها الْمُصاب الأسيف ، لِتُهَوِّن بعضَ ما يلقاه مِنْ : سَورة الأسى ، ولافع الحزن ؛ فتجلو شيئاً ، مِنَ الكمدة ؛ وتأْسو قليلاً ، مِنْ فاغر الجرح ؛ وتُخفِّف بعض الهاصر ، مِنَ الألم المرنِّح .

[إنَّا لِله ، وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ] .

تلك التِيْ رحتُ أُردِّدها ، منذ سَرَتْ فِيْ نفسِيْ رعدةٌ ، وغشَّانِيْ حزْنٌ ، واعتورنِيْ ألَمٌ ، حين ما صَكَّ مسمعِيْ نعْيُ فقيدنا الغالِيْ .

ولكنَّ الأمر لله ، ولا مفرَّ مِنْ أمره . . . ! وإلاَّ فالمصاب بالحجَّة الجشيِّ ـ رحمه الله ـ فادحٌ ؛ ووقْعُ فَقْدِه على بُعْد مدىً مِنَ الخسارة ، التِيْ تبقى بعْد غيابه ، وليس مَنْ يقوم بعبئه فِيْ حاضرنا المؤْلم .

فنحن يوم أوْدَعنا الثَّرى ، أوْدَعنا آخر شخصٍ ، يقوم بعبء الفتيا ، والقضاء بين النَّاس بالحقِّ ، وما يتَّصل بذلك مِنَ : مشاكلَ ، وواجباتٍ . . .

أوْدَعنا الشَّخص الأخير ، الذِيْ يقوم بكلِّ هذا بأصالةٍ واسْتحقاقٍ ، بحيث إنْ هو حلَّ فِيْ دسْت القضاء ، حلَّ فيه على أنَّه ربُّه الأصيل ، وهو لمثله مقامٌ ومقعدٌ .

فهو آخر مجتهدٍ جامعٍ لشرائط الفتوى ، حفلت بهم هذه البلدة المنكوبة ، والتِيْ مُنيت بنقْص رجالاتها ، دون أنْ تُعوَّض عنهم مَنْ يقوم

مقامهم بالمهمَّة . . . فَمِنَ المؤْلم : أنْ لا نجد خَلَفاً لكلِّ فائتٍ .

وقعتُ تحت وطأة الألم الكاسف ، لهـذا الحادث الفجيـع ، حتَّى خارت قوايَ .

وقَـدْ حاولتُ أنْ أقف ـ قبْـل هـذه اللَّحـظة ـ فِيْ مـوقفِيْ ـ هـذا ـ وهـو البغيض إلى نفسِـيْ . . . فَقَـدْ عـزَّ عــلَيَّ ـ والله ! ـ أنْ أقف ، وأنــا أبكِيْ رجلاً ، كنتُ أعدُّ منه الأبَ الثَّانِيَ .

وهـذه نظرةٌ لم أُوجِّههـا ـ بعْد فقـدانِيْ مـوجـدِيَ الثـانِيَ ، أبِيَ الحبيب ، ـ عليه رحمة الله ـ لأحدٍ قبْل هذا الذِيْ افتقدتُه الآن .

وهو قَدْ كان ينظر إلَيَّ كابنٍ له ؛ وهذا ما جعلنِيْ أرى فيـه شخص أبِيْ ، وأكنُّ لـه ـ بين الـطَّوايا ـ مِنَ الحبِّ : مـالا أستطيـع تصويـرَه ، ولا تحديـد مداه .

حاولتُ أنْ أقوم ـ قبْل الآن ـ بواجبِيْ ، وبـاءت كلُّ محـاولةٍ بـالفشل ، وأنـا الحـزين المكمَـد ، إلاَّ أنِّيْ رأيتُ فِيْ تخلُّفِيْ مـا يُؤْلم أكـثر وأكـثر ، وأشـدَّ وأوجع .

فهو ـ رحمه الله ـ الـذِيْ كان يـدعونِيْ ، ويُلحُّ عـلَيَّ أنْ أكتب شيئاً ، إذا مرَّت مناسبـةُ فَقْدِنَـا مثلَه ، فكيف بِيْ أقف هذا المـوقف الجامـد ، ومصيبتُنا ـ اليومَ ـ به هو ؟ ! .

لـذلك فَقَـدْ أرغمتُ نفسِـيْ ، وصـارعتُ الألم ، فكـان ظفـرِيْ بهـذه السطور ؛ وهِيَ وإنْ لم تَفِ بحقِّه الكبير ، إلاَّ أنَّها طاقة الحزين الأسيف .

وأنـا ، بهـذا الألم والحـزن والبكـاء ، لا أبكِي فَقِيْدَنَـا الغـالِيَ ، وهـو - الجدير - كما أعتقد - بالتهنئة والغبطة ، لا الحزن والبكاء .

* * *

لَقَدْ شاء الله سبحانه - رأْفةً ، منه ، ورحمةً - أنْ يُريـح تلك الشَّيخوخـة الواهنــة ، والتِي خـارت تحت ذلك القلب الكبـير الطَّمـوح ، الذِيْ لم تنلْه الأحـداث ، إلاَّ بما تـزيده ثبـاتاً وقـوَّةً ؛ ولم تزُده الآلام إلاَّ متـانـةَ معتقـدٍ ، وصلابةَ إيمانٍ ، ورسوخَ عقيدةٍ .

أجَل ! شاء الله أنْ يُريح هذه الشَّيخوخة الواهنة المكدودة ، وأنْ تستلذَّ ثمـرة جهودهـا اليانعـة ، والتِي قُوبلت - هنـا - بالجحـود والنُّكران . . . ولم تُحسَّ إلاَّ اليوم ، يوم خلا مكانه ؛ ولم يملإ الفراغَ ، الذِيْ تَركَه ، مَنْ تتمثَّـل فيه خلالُه الكريمة .

لَقَـدْ مـرَّت عليـه تسعُ مِنَ السِّنــين ، لم يستلذَّ فيهـا بســاعـة هنــاءةٍ واستقرارٍ ، وما كـان له أنْ تغمض لـه عينٌ ، أو يقـرَّ له قلبٌ ، أو يختمـر له عقلٌ بتفكيرٍ ، أو تمتدَّ يده إلى زادٍ ، لو كان يحمل قلباً غير قلبه ، وإيمـاناً دون إيمانه .

ولكنَّـه صـارَعَ كـلَّ هـذه الأهـوال ، وسُلِّطت عليـه كـلُّ هـذه الآلام - النَّفسيَّة ، والماديَّـة - وهُوَ هُـوَ ، فِيْ : بشاشتـه ، ولطفـه ، وقوَّة تفكـيره ، وصلابة إيمانه . . . وهُوَ هُوَ ، يـوم لم يعرفْ شيئـاً مِنْ هذه الآلام . . . وهُـوَ هُوَ ، يوم لم تمـرَّ به هـذه العواصف الـرَّاعدة الـواعدة . . . بـل لم تزدْه ، إلاَّ

رسوخاً كطودٍ شامخٍ ، يهزأُ مِنَ : الأحداث ، والأنواء ، يوم عرف إنَّها لا تنال منه ذرَّةً .

لتهنأْ ورحكَ ـ ياشيخ ! ـ فسوف تلقى جزاءك الأوفى ، وإنْ فارقتَ هذا العالم ، غير قرير العين . . . !

فنحن لا نبكيك ـ وأنت الجدير بالغبطة ، على مقامٍ لكَ عند ربِّكَ ، ونعيمِك الذِيْ لقيتَه ـ يوم ضاقتْ بروحكَ الدُّنيا ، وخارتْ حولكَ المكائد ، وارتدَّتْ دونكَ العواصفُ ، وتحطَّمتْ على صخرتكَ النَّكبات . . .

ولكنَّا نبكِيْ شعباً مضيَّعاً حائراً ؛ ونبكِيْ مركزاً شاغراً ، لم تُخلِّف مَنْ يشغله عنكَ ، بمثل الكفاءة التِيْ كنتَ تشغله به .

* * *

وعلينا ـ يا إخوانِيْ ـ أنْ ننظر هذه النَّاحية نظرةَ جدٍّ ، تنبثق مِنْ واقعنا المرير .

فإلى متى هذا الصَّمت الأخْرس ، ونحن نعيش فِيْ دامس الظُّلمة ، وليس مَنْ يُعير هذه النَّاحية الهامَّة أدنى تفكيرٍ ؟ ! .

فالكلُّ منَّا ـ منذ كان الشيخ الفقيد ، يُفيض علينا سناه ـ ينتظر هذه النِّهاية المؤْلمة . . . فما وُجِد المرء إلَّا للموت ، وليس الخلود مِنْ نصيب الإنسان ؛ فكلُّ حيٍّ للموت يسير .

كلُّنا كان يرى : أنَّ فَقْدَ شيخنا فاجعةٌ ، يزيدها : عدم وجود مَنْ يخلفه ، ويسدُّ مسدَّه ! .

ولكن ماذا عملنا ؟ ، وأيَّ شيْءٍ أوجدنا ؟ ، هل فكَّرنا عمليّاً فِيْ هذه النُّقطة الحسَّاسة ؟ .

إنَّ الدِّين لن ينتهِيَ ؛ وإنَّ الحاجة لرجل الدِّين الصَّحيح ، لا تزداد إلاَّ عمقاً وامْتداداً .

ولن تستطيع أُمَّةُ الحياةَ بدونهما ، على رغم أنف مَنْ رضِيَ ، ومَنْ غضب . . . فلذلك لا بُدَّ مِنْ مجتهدٍ ـ ولو واحدٍ ـ يقوم بهذه الأعباء .

فالإنسان ، وإنْ تخلَّى عن عباداته ، فهو فِيْ ما بينه ، وبين ربِّه . . . إلاَّ أنَّه ملزمٌ بالرُّجوع إلى هذا المجتهد ، فِيْ : معاملاته ، وعقوده ؛ وليس له أنْ يتخلَّى عنها ـ ما دام هو فرداً مِنْ هذا المجتمع ، وجزءاً مِنْ هذا المجموع .

* * *

هذه نقطةٌ ، لم أكن معها على موعدٍ ، إلاَّ أنَّ الموضوع جرَّنِيْ إليها ، وهِيْ ذات واقعٍ حسَّاسٍ ، ومجسٍّ نابضٍ .

فعلينا أنْ نرتق هذا الفتق ، وهو على اتِّساعٍ . . . وأنْ نشغل هذا الفراغ ، وهو على رعبٍ مخيفٍ .

علينا أنْ نُفكِّر فِيْ هذا ، فنقوم بإرسال بعثةٍ ، ممَّنْ نجد فيهُمُ الكفاءةَ ، ونتلمَّس فيهُمْ : الخيرَ ، والصَّلاحَ ، والذَّكاءَ ؛ فلا خيرَ فِيْ عالمٍ جامدٍ ، بليدِ الذِّهن ، حجرِيِّ الفكر ؛ ولا فِيْ عالمٍ نَهِمٍ ، فاسدٍ محتالٍ .

علينا أنْ نقوم بذلك ، وما على الله بعزيزٍ ، أنْ يعود مَنْ يقوم بالعبء ، ويسدَّ الفراغ ، ويُزيل الحاجة اللَّوح ـ والله مِنْ وراء القصد .

* * *

وأخيراً . . . فأنا لم أقف هذا الموقف ، لأعدِّد مزايا فَقِيْدِنَا الغالِيْ ، وهِيَ على تعدُّدِ جوانبَ .

ولو شئتُ ذلك ، لَمَا وجدتُ الوقت فسيح الرُّقعة ، ولسدَّ عليَّ الحزنُ أبوابَ الكلام ؛ ولكنَّه الواجب تجاه أبٍ حنون ، وعالمٍ عاملٍ .

فنسأل الله له شآبيبَ مِنْ : رحمته ، ورضوانه ، وأنْ يجبر المصاب به ـ وما الله عنِ الإجابة ببعيدٍ .

القطيف : ٨/٠٥/١٣٧٦ هـ
٢١/١٢/١٩٥٦ م

الإمامُ شرفُ الدِّين *

كان لصدى فَقْدِ سماحة الإمام المرحوم السَّيِّد عبد الحسين شرف الدِّين إرنـانٌ ، طاف بـالبلاد الإسـلاميَّة والعـربيَّـة ، بعـامَّـةٍ ، والبــلاد الشيعيَّة منها ، بخاصَّةٍ .

وما كاد النَّبأُ يصل لمسامع القطيفيِّين ، حتَّى أُقيمت ـ هنـا ـ الفـواتـح (التَّأْبينيَّة) لروحه المقدَّسة ، وقَـدِ التحق بالرَّفيق الأعلى يوم الإثنين ٨/٦/١٣٧٧ هـ الموافـق ٣٠/١٢/١٩٥٧ م .

هل سمعتَ بوفاة السيِّد ؟ .

هكذا ألقى عليَّ أحدُهم هذا السُّؤال ، ناتىءَ الحرف ، مرير المساغ . . . وجعلنيْ فِيْ بحرٍ مِنَ : التَّفكير العميق ، والهواجس المضَّطربة .

ولكنَّه لم يدعْنيْ ـ وأنا رازحٌ بإعياءٍ باهظٍ ، تحت تأْثير هذه التَّباريح ـ أُعالج هذه الموجة العاتية ، مِنَ : الأسى ، والحزن ، حتَّى دَفَعَ بِيْ إلى عميق أعماقه ، حين أوضح لِيْ ، مالم يطرق سمعِيْ أَلَمُ نباءه ، بأنَّ مصابنا ـ اليومَ ـ فِيْ الإمام شرف الدِّين .

وليس سوى الاسترجاع ، يُكفكف شيئاً مِنْ هاطل الدَّمع ، وليس سوى الدَّمع يُطفىءُ شيئاً مِنْ لهيب الحزن . . . فـ :

« إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ » .

ـ كلمةٌ يثوب إليها الكليم ، ويتأسَّى بها الأسيف ، ويفزع إليها الحزين .

وإلاَّ فَمَنْ لا يُرنِّحه الألم الممضُّ ، وقَدْ طَرَقَ سمعَه هذا النبأُ العاصف ؟ ! .

***

الإمام شرف الدِّين : ركيزةٌ ضخمةٌ مِنَ الرَّكائز ، التِيْ اعْتمد عليها

الـدِّين الإسلامِيُّ ، فِيْ هـذا القرن ، الـذِيْ انْتشر فيه الإلحـاد والتَّفـرقـة ، فكثفتْ فيـه السُّحب ، حتَّى حجبتِ الإشعـاعـة مِنَ الضَّـوء : أنْ تنفـذ إلى العـين ، فيتلمَّس طـريقَـه مـدلـجٌ فِيْ ليـلٍ . . . وأنْ تصـل إلى القلب ، فيستروح برْدَ الإيمان واليقين . . .

وأُشيع فيه شيْءٌ كثيرٌ مِنَ : الجلَبة ، واللَّغط ؛ فحبسَـا همسة الحقِّ : أنْ تصل المسامع ، على : صفاءِ نبرةٍ ، وجلالِ صدىً .

ولـولا الإمام شرف الـدِّين ـ وهو واحـدٌ مِنْ بـين قلَّةٍ قليلةٍ مِنْ إخـوانـه المجاهدين فِيْ الطليعة ، الذين انبَروْا لصدِّ كلِّ فريةٍ ، وإحباطِ كلِّ مؤامرةٍ ، وتـزييفِ كلِّ تهمـةٍ ، وكشْفِ كلِّ كـذبـةٍ ، تُـوجَّـه إلى الحقِّ ، وتنـال مِنْ : صفـائه ، ورُوائـه ، حتَّى عادت تلك الأكـداس مِنَ السُّحب القاتمـة ، وقَدْ مزَّقها العاصف « العاصف » . . .

. . . فـانتشر الضَّوء ، وامتـدَّ الشُّعاع ، وأبْصرَ النـورَ كلُّ ذِيْ عـينٍ ؛ وسرى برد اليقين ، لكلِّ ذِيْ قلبٍ ، لم يُغلِّفه الجهل والغرور . . .

. . . وحتَّى هـدأتْ وتلاشتْ تلك الجلَبـة الَّلاغـطة ، ووصلت همسـةُ الحقِّ : صـافيـةً ، رائعـةً حـانيـةً ، لكـلِّ ذِيْ سمـعٍ ، لم تحشُـه أنـامـل الصَّمَم . . .

أقول : لولا هذه الثُّلَّة ، التِيْ تشمل أمثال :

الإمامِ الفقيد ، [فِيْ لبنان] .

والإمامِ الأمين ، [فِيْ سوريا] .

والإمامِ كاشِف الغِطاء (فِيْ العراق) .

والإمام الْخُنيزِيّ (فِيْ الجزيرة) .

ـ وقَدِ اجتمع هؤُلاء فِيْ حظيرة القدس ، يستروحون نسيم الرَّاحة ، بعْد التَّعب المضني . . .

. . . وإخوانٍ لهم ، لا يزال عِدادهم فِيْ الأحياء ، راجينَ لهم حياةً مديدةً ، وعمراً منتجاً . . .

لولاهم ، ولولا ما قدَّموه مِنْ ثمارٍ ، وما قاموا به مِنْ عملٍ ، لكان عصرنا هذا ، غير ما هو عليه اليوم . . . !

فالفقيد ـ كهؤُلاء ـ ليس عَالِماً دِينيّاً ، فحسْب ؛ بل هو مِنْ علماء الدِّين ، الذين فهموا الدِّين فهْماً صحيحاً ؛ واسْتساغوه ، فتفاعل لديهم ، وكان مِنْ نتائجه هذه الثِّمار المباركة النَّاضجة ، التِيْ تسرُّ النَّاظرين .

فهو لم يفهمِ الدِّينَ على أنَّه طقوسٌ متحجِّرةٌ جامدةٌ ، لا تُساير الأزمنة والأعصار ـ كما شاء له الله ، يوم نزَّله الأمين ، على قلْب الرَّسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

***

ومِنْ هنا . . . لم ينظر إليه الشَّباب الطَّالع ، نظرتَه إلى شبحٍ مخيفٍ ، مثل نظراتهم لبعض الرِّجال الآخرين ، مِمَّنْ يرون فيهمُ : الشَّبحَ المجسَّمَ للخوف والرُّعب ، فيبتعدون عنِ الدِّين ، ويفرُّون منه ، بمثل هذه الحُجَج الواهية ، التِيْ هِيَ دون بيت العنكبوت فِيْ : الوهن ، والضَّعف . . .

. . . لأنَّ عليهم ـ لو كانوا يشعرون ـ أنْ ينبذوا الشَّبحَ المخيفَ ، الذِيْ هو مِنَ الدِّين أبرأُ مِنَ ذئبِ يوسف مِنْ دمه .

وهـو قـدْ عَـرَفَ الـدِّين معـرفـةً غـائيَّـةً ، دون أنْ يتَّخــذه وسيلةً ، أو واسطةً ، أو جسراً ، لتحقيق مأربٍ ، وغرضٍ ، وإشباع شهوةٍ نهمةٍ .

عَرَفَ الدِّين كما تنزَّل مِنْ مصدره الأسمى ، وكما شاء له مصـدره : أنْ يستمرَّ ويدوم .

ومِنْ هنا . . . كان أحد حامـلِيْ لواء الـوِئام والـوَحدة ، بـين الطَّوائف الإسلاميَّة ، على أُسُسٍ قويمةٍ عادلةٍ ، وليس كَمَنْ يدعو لها باجتثاث البناء ، واسْتئصال الجُذُر . . . !

***

ومِنْ هنـا . . . كان وطنيّـاً صميماً ، خَـدَمَ وطنه ، وضحَّى فِيْ سبيله ، بكل مرتخصٍ وغالٍ .

فكان له فِيْ طرْد الفرنسيِّـين ، مِنْ بلاده ، يـدٌ قويَّـةٌ ، وقدمٌ رسيخـةٌ ، وتعرَّض ـ فِيْ سبيلها ـ لإهْدار دمه . . .

حتَّى حاول أحد المأْجورين ، أنْ يُـرديَه تحت حـرِّ الرصـاص ، لولا أنَّ الفقيد قَبَضَ على كفِّ المعتـدِيْ الأثيم ، فسمَّره مكـانه ، ورمى بمسـدَّسه ، تحت ذلِّ الصَّغار والاسْتسلام .

ولكنَّه ـ وقَدْ نجـا مِنَ القتل ـ لم ينـجُ بيته مِنَ : التَّخـريب ، والعيث ، حتَّى اندلعتِ النَّار مِنْ داره . . .

. . . فكـان ضحيَّتهـا : إضـامـةٌ مِنْ مؤلَّفـاتـه ، إلى ذلــك الحـين ؛ فخسرت بهـا المكتبـة العـربيَّـة ثـروةً ، لم تُعـوَّض عنهـا ، وإنْ سـدَّد بعضَ

الجوانبِ ـ فِيْ حياته الخصبة ـ قلمُه المراع .

ولـه فِيْ : مضـمار الـوطنيَّـة ، وخـدمـة وطنـه ـ و « حبُّ الـوطنِ مِنَ الإيمانِ » ـ نواحٍ كثيرةٌ ، أنشأتها يدُه السَّخيَّـة المِعطاء ، وسعى إليهـا بنشاط الشَّباب وطموحهم ، وحُنكة الشُّيوخ وتجاربهم .

ولـو لم يكن له ـ فِيْ هـذا السَّبيـل ـ سـوى الصَّرح العلمِيِّ الشَّمـوخ : « الكليَّـة » ، التِيْ بَذَلَ قصـارى جَهده ، فِيْ سبيـل إخـراجهـا وإيجادهـا ، فكانت مدرسة الجيل ، ومشعلَ العلم والمعرفة . . .

. . . لو لم يكن ، إلاَّ هذا . . . لَكَفاه ذلك فخْراً ، ممَّا يجعله فِيْ طليعـة المجـاهدين ، وفِيْ الـرَّعيل الأوَّل ، مِنَ الـوطنيِّـين الصَّـادقـين ، الـواعـين المخلصين .

***

قرأتُ الفقيد فِيْ ما كَتَبَ ، ونَافَـحَ عن معتقده ومبـدئِه ، وفِيْ مـا جادل ومحَّص فـأُعجبتُ به وأكـبرته ، ورأيتُ فيـه مثـالاً لـلأخـلاق الإسـلاميَّـة ، الفضلى الكاملة .

وقُـدِّرَ لِيْ ـ فِيْ صـيـف ١٩٥٦ م ـ أنْ أتشرَّف بـزيـارتـه فِيْ داره بـ « صُـوْرَ » ، وإذا بتلك الأخلاق تتجسَّم لـدَيَّ ، وتُعرض أمـامِيْ بصورةٍ مكبَّرةٍ رائعةٍ .

فما كدتُ ألثم أناملَه الكريمة ، وإذا به يطبع عليَّ قُبلةً ، تحمل كـلَّ ما فِيْ الأبوَّة مِنْ : عطفٍ ، ودفءٍ ، وحنانٍ ؛ ولم يرضَ حتَّى أجلسنِيْ إلى جـانبه ، وغمرنِيْ بفيضٍ مِنَ التَّرحيب .

وازْداد ذلك ، عندما قرأتُ عليه صفحاتٍ مِنْ كتابٍ لسيِّدِيَ الوالد ـ رحمه الله [1] ـ فأبدى إعجابه به ، وتقديرَه ؛ وثناءَه عليَّ ، ممَّا أخجلنِيْ ، وجعلنِيْ فِيْ غمرةٍ مِنَ الخجل .

ومرَّ الوقت الطَّويل لديه ، حتَّى أصبحتْ عقارب السَّاعة تدور ، وكأنَّها مسمَّرةٌ مكانها .

وودَّعتُه ، فأتحفنِيْ بمثل ما استقبلنِيْ به ، مِنْ : عطفٍ ، وحنانٍ .

وبقيتْ تلك السَّاعات مسجَّلةً فِيْ لوحة الذِّكرى ، بحيث لا تنالها يد الزَّمَنِ ، بالمحو والبلى ، ما دام هذا الهيكل ، يُلقِيْ على الأرض ظلالَه .

***

أمَّا فِيْ ما كَتَبَ وجادل ، فهو إلى جانب ما يمتاز به ، مِنَ الخُلُق القويم ، وما يسير فيه ، مِنَ المنهج الصُّراح ؛ وما يرسمه ، مِنَ الطَّريق الأبلج ؛ وما يرفعه ، مِنَ الصُّوى الهادية . . .

. . . إنَّه إلى جانب هذا كلِّه ، وميزاتٍ أُخرى ، وسماتٍ يتَّسم بها كلُّ ما تخطُّه يراعته المخصاب . . .

. . . إنَّه لذو ضميرٍ واعٍ منصفٍ ، وذو عقلٍ نيِّرٍ عميقٍ ، يخدم مبدءاً ، ويدعو لهدفٍ ؛ يُريد الارتواء مِنْ نبْع الدِّين ، وهو على عذوبة طعمٍ ، ورُواء منظرٍ ، لم يتعَّكر ، ولم يتلوَّث .

***

---

(١) كان الكتاب هو « الدَّعوة الإسلاميَّة » ، للإمام الخنيزيِّ ، قبل أنْ يُطبع .

وناحيةٌ فِيْ أُسلوب فَقِيْدِنا ، لَتَنالُ الإعجاب ، وتدعو إلى العجب ، فِيْ نفس الوقت ! .

فالعادةُ : أنَّ الشَّخص كلَّ ما طَعَنَ فِيْ السِّنِّ ، وسارت به قَدَمَا الزَّمَنِ إلى خريف العمر ، يضعف مِنه الأسلوب .

فالزَّمَنُ بصُروفه ؛ والعمرُ فِيْ خريفه ؛ والشَّيخوخةُ ، فِيْ وَهَنها النَّاهك . . . كلُّ هذه أسبابٌ تدعو لهذا الضَّعف . . . أو على الأقلِّ ، فللضَّعف النِّسبِيِّ ، إذا قِيس إلى أُسلوب الشَّخص ، فِيْ : ريعان الصِّبا ، ونضارة الشَّباب .

ولكنَّه على العكس ، إذا نظرنا إلى أُسلوب الفقيد الكبير . . . إذ نقرأُ مواضيع ، خطَّتها يراعته ، بعْد أنْ رَسَمَ الزَّمَنُ تجاعيدَه ، على نضارة وجهه ويديه ، وفِيْ شيخوخته النَّاهكة الواهنة . . .

نقرأُ له ذلك . . . فنعجب بما نقرأُ ، ليس مِنْ حيث الموضوع وحده ، والفكرة التِيْ تُعالج ؛ بل ومِنْ حيث الأسلوب ، الذِيْ يقف فِيْ صفِّ مَنْ يحتفل بالأسلوب ، كلَّ الاحتفال .

ولا تكاد تظنُّ : أنَّ أُسلوباً كهذا ، خطَّه يراعُ شيخٍ ، شارفتْ دورات عمرِهِ التِّسعينَ ، بما فيها مِنْ : أثقالٍ ، ومشاقَّ . . . !

وإنَّ هذا ، ليس سوى دليلٍ إيمانه بالتطوُّر والتَّقدُّم ، والرُّقِيِّ ، ومُسايرة الزَّمَنِ فِيْ : تقدُّمه ، ومتطلَّباته .

وليس يحول بينه وبين ذلك : شيخوخةٌ واهنةٌ ، ولا جسمٌ رازحٌ تحت وطأة الآلام ـ جسميَّةً ، كانت ، أو نفسيَّةً ـ فهو ذو هدفٍ ، وهو ذو

رسالةٍ . . .

فما على جسمِه أنْ يخور أو يـرْزَح ؛ وما على جسمِه أنْ يتـلاشى أو يضمحلَّ ـ وهذا مالا سبيلَ إلى دفْعه ـ إذا ما أتمَّ رسالتَه ؛ وإذا ما خَدَمَ غايتَه ؛ وإذا ما دافَعَ ، عن هدفِهِ ؛ وإذا ما قام بواجبِهِ ؛ وإذا ما دعا إلى سبيلِهِ . . .

***

وبعْد . . . فليستْ حياة الإمام الراحل ، بالتيْ يتأتَّى عرْضُها ـ بلْهَ درسَها وتحليلَها ـ فيْ صفحاتٍ قِصارٍ كهذه ، أُعدَّت لتُلقى فيْ حفل تأْبين سماحتِهِ ؛ ولكنَّه الشعور بالمشاركة فيْ الواجب الجماعِيِّ .

رَحِمَ الله الفقيدَ ، فيستمرئ حلاوةَ ثمار أعماله ، الفذَّةِ الخالدةِ ؛ وعوَّض الله الأمَّةَ عنه ، بِمَنْ يلْأم الصَّدعَ ، ويسير فيْ الطَّريق المرسومة ، لهؤُلاء المجاهدين البرَرَة ـ إنَّه سميعٌ مجيبٌ ! .

القطيف : ١٤/٦/١٣٧٧ هـ
٠٥/١/١٩٥٨ م

المَهديُّ في الإسلام

كُتبتْ وأُلقيتْ ، فِيْ الحفل الذِيْ أقامته « اللُّجنة الحسينيَّة » ، بمناسبة مولِد الإمام المهدِيِّ ـ عليه السَّلام ـ ليلة ١٥/٨/١٣٧٥ هـ الموافقة ٢٧ ، ١٩٥٦/٣/٢٨ م .

لَا « يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوْحَى »[1] .

نحن المسلمين ، الذين أمَرَنا الله أنْ نأْخذ ما آتانا الرَّسول ، وننتهِيَ عمَّا نهانا عنه . . .[2] إنْ كنَّا مسلمين ، ليس باللَّفظ فحسْب ؛ إنْ كنَّا مسلمين بالمعنى .

إنَّه حديثٌ يُوضح لنا : ما بين : الأئمَّة مِنَ العترة الطَّاهرة ، والكتاب العزيز ، مِنْ وثيق الصِّلة ، فِيْ ديمومةِ بقاءٍ ، تتعدَّى الرُّقعة الزَّمنيَّة ، الممتدَّة ، حتَّى نهاية الحياة الدُّنيا ، التِيْ تعيشها الرِّسالة الخالدة ، بما يقتضيه ذلك مِنْ هداية الأمَّة ، والأخْذ بيدها إلى الصِّراط الأقوم . . .

. . . تتعدَّى الصلةُ هذه الحياةَ الفانيةَ ، وتجتازها ، إلى الدَّار الآخرة ، حيث الحساب والجزاء ، لِيَرِدَا ـ القرآنُ ، والعترةُ ، دون افتراقٍ ـ على الرَّسول ، حوضَه ، حيث الأمْنُ والرِّيُّ الدَّائم . . .

فإذا كان الكتابُ الكريم ـ كتابُ المسلمين ـ وفيه دستورُهم الرَّفيع ، وتعاليمُهُمُ القيِّمة ، وأوامرهُمُ الإلـٰهيَّة . . .

. . . فالأئمَّة ـ وهُمْ أئمَّة المسلمين ـ هُمُ الذين يُوضحون ما فِيْ القرآن ، مِنْ معانيَ ، لا تصل إليها العقول ؛ ويُوضحون ما فيه ، مِنْ : أوامرَ ، وواجباتٍ ، لم يأْتِ بها القرآنُ إلَّا مجملةً ؛ ومِنْ أسرارٍ ، لم تكنِ الحاجة ماسَّةً لكشْفها ، والزَّمَنُ غير قابلٍ لتلقِّيها . . .

---

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

(٢) حسب نصِّ الآية الكريمة : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ . . . وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا ﴾ ـ الحشر : ٧ .

« إنِّيْ مُخَلِّفٌ فِيْكُمُ الثِّقْلَيْنِ ـ مَا إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوْا : كِتَابَ الله وعِتْرَتِيْ أَهْلَ بَيْتِيْ .

وَقَدْ أَنْبَأَنِيَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ : أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا ، حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ »

هذا حديثٌ مِنَ الحُسن والصِّحَّة ـ وبمثل هذا تصفه مسانيدُ الحديث ، وصِحاحُها ، عند الفريقين ـ بحيث لم يُبقِ مجالاً لريبةٍ ، أو شكٍّ يتطرَّقه . . . فهو مِنَ المُتسالَم على صدوره عنِ الرَّسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فِيْ عديد المناسبات .

وكان آخر ما ندَّتْ به شفتا الرَّسول ، يومَ طَلَبَ « الدَّواة والكتِف » ، لِيَكتب ذلك الكتاب ـ وليته لم يُصَدَّ عن كتابته ! ـ لِيَقْضِيْ على خلاف الأمَّة ، قبْل أنْ تبدوَ منه نتائجهُ المريرة ، المُردِية .

ولكنَّ الخلاف ، فِيْ ذلك اليوم ، أثمر شائكَ الثَّمر ، ومرَّ المذاق ، فكان ما كان . . . ورأينا مِنْ نتاجه البغيض : ما رأينا . . . !

***

وهذا الحديث يُوضح لنا ـ نحن المسلمين ، الذين نرى فِيْ قولِ الرَّسول : قولَ الله ، لأنّه :

فهم بذلك يُمثِّلون الرَّسول ، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهم خلفاؤه ـ فِيْ السفارة بين : الله ، والخلق ، لتكون الحجَّةُ البالغةُ لله على خلقه ، وليكون الجميع ـ المهتدون ، والضُّلَّال ـ على بيِّنةٍ مِنْ ربِّهم .

واستمراريَّة الرِّسالة ، تحتم نشْرَ الدَّعوة ، فِيْ : تبليغٍ ، وإرشادٍ ، لصافِيْ النَّبْع ، وثرِّ المنهل . . .

. . . وهذا ما يحتم خلود القرآن : دستوراً لِلأجيال والعصور ، فِيْ تعاقبها .

وإذا كان القرآن ـ وهو الذِيْ لا يأْتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ، ولا مِنْ خلْفِهِ[1] ـ دستوراً باقياً للأمَّة ، مستمرَّ البقاء ؛ خالداً ، حتَّى آخر لحظةٍ مِنَ الوجود ؛ وضرورةً باقيةً ، لا تنتهِيْ إلَّا بانتهاء الحياة . . .

إذ كان ذلك . . . فلا بُدَّ ـ إلى جانب الكتاب ـ مِنْ عِدْلِهِ الآخرَ ، وهُمُ الأئمَّة ؛ وقَدْ قُرِن بقاؤهما ـ فِيْ نصِّ الحديث النَّبوِيِّ ـ وعدَمُ افتراقهما ، حتَّى أقْصر لحظةٍ ، قبْل أنْ يردا على الرَّسولِ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حوضَه .

. . . لا بُدَّ مِنْ إمامٍ ، ما دام الكتاب بين ظهرانِيِّ الأمَّة ؛ وليس لهما أنْ يفترقا ، ما دام صريح الحديث ، يُؤَكِّد على ذلك . . .

وهذا ما تحتمه ـ أيضاً ـ استمراريَّة الرِّسالة ، فِيْ خلودها ، الحياتِيِّ المستمرِّ ، لأنَّه القائم على : شؤُونِ الرِّسالة ، ورعايتِها ، وقيادتِها ،

---

(١) إشارة للآية الكريمة : ٤٢ ، مِنْ سورة : السَّجدة (فصلت) .

والدَّعوةِ لها ، وتوضيحِ أهدافها ، وتبسيطِ تعاليمها ، وما إلى ذلك مِنْ شؤونٍ . . .

. . . إنَّ الحاجة إلى ذلك ، تفرض نوعاً ممتازاً ، مِنَ القادة ، لا أنْ يأْخذ بزمام القيادة ، كلُّ مَنْ تطمح إليها نفسُه ، أو تطمع أهواؤُه .

استمراريَّة الرِّسالة ، فِيْ حاجةٍ للقيادة الصَّائبة السَّليمة ، التِيْ لا تنحرف ، ولا تُزيِّف ، فَتَضِلَّ وتُضِلَّ . . .

وليس مِنْ سبيلٍ ، يُجنِّب القيادة هذه المزالق ، والأخطاء ، إلَّا بتعيينٍ ، يأْتِيْ مِنَ الفيض الأعلى ، الذِيْ بَعَثَ برسوله ، دون أنْ يكون لأحدٍ رأْيٌ ، أوِ اختيارٌ فِيْ بِعْثته .

والقيادة تعنِيْ ـ هنا ـ خلافة الرَّسول ، فِيْ استمراريَّة التَّبليغ ، ونَفْيِ التَّحريفِ والزَّيفِ عنها . . . فَهِيَ المكان الثانِيْ ، فِيْ الرِّسالة ؛ وخليفةُ الرَّسول ، يُمثِّله فِيْ كلِّ ظروفِهِ ومهمَّتِهِ ـ عدا الوحْيِ ، حيث أنَّه يعنِيْ عدَمَ تمامِ تعاليم الرِّسالة ، فهو يحتاج لِبَقاء الرَّسول ذاته .

أمَّا بعْد كمال الدِّين ، فالقيادةُ تنحصر فِيْ : نشْر الرِّسالة ، وتعميم الدَّعوة ، وتوضيح الأهداف ، وتسيير دفَّة الحكم ، وما إلى ذلك . . . وهذا منوطٌ بالخليفة عنِ الرَّسول ، وهو تمثيلٌ له فِيْ كلِّ مناحِيْ الرِّسالة ، وجوانِبها الأخرى : تعليماً ، وتجسيداً . . .

إنَّنا إذا نظرنا إلى هذا الحديث ، نظرة مسلمٍ عميقٍ ، لم تتطرَّق إليه الانحلاليَّة ، ولم يتجافَ عنِ الرُّوح الإسلامِيِّ ، ولم يستسلم للهوى الطَّائش .

إنَّنا إذا نظرنا له نـظرةً خالصـةً مجرَّدةً ، ولم ننـظر إلى وفرةٍ أُخـرى ، مِنَ الأحاديث ، التيْ تتَّفق ومضمونَ هذا الحديث ، وتتَّحدُ ومغزاه ؛ وإلى وفـرةٍ أُخرى مِنَ الأحاديث ، التيْ تتعلَّق بـالمهدويَّـة وحدهـا ، وتنصُّ عليها نصّـاً صريحاً جليّاً .

إنَّنـا إذا نـظرنـا لهـذا الحـديث وحـدَه ، فـإنَّـه يكشفُ لنـا عن ضرورة الاعتقاد ، بوجود إمامٍ مِنْ آل محمَّدٍ ، ومِنْ ذريَّة عليٍّ وفاطمة ، يبقى ما دام القرآن باقياً ، ولا يفترق عنه إلى المعاد . . .

ذلك أنَّ عترة الرَّسول وأهـل بيته ، محصـورون فيْ وُلد عـليٍّ وفاطمـة ، لا تتعـدَّى سواهم ، ويتكفَّـل هذا الحصرَ آيـاتٌ وأحاديثُ ، لسنـا فيْ مجـال بحثها .

* * *

وإذا مـا نظرنـا إلى أحاديثَ أُخـرى ، اسْتطعنـا أنْ نُعـيِّنَ شخص إمـام العصر ، القـائم الـذيْ يُنتـظَر خـروجُـه ، لِيَمـلأ الأرض قِسـطاً وعـدلاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً .

إنَّ ثمَّت أحاديثَ ، تُحدِّد عدد الأئمَّة ، حيث تنصُّ عـلى أنَّهم اثنا عشر إماماً .

وفيْ هذا الحديث ـ أعنيْ : الـذيْ ينصُّ على أنَّ الأئمَّـة اثنا عشر ـ وَقَـعَ بعض مَنِ انْساق لشهوته ، فصدَّته عنِ السَّنا الوضَّاح ، والنُّور الجليِّ . . .

. . . وَقَعَ فيْ رجراج الطَّريق ، وطَفِقَ يُطبِّق الحديث على مَنْ هم مثـال

السُّفل والانحطاط ، لِيَجعل منهم أئمَّةً للمسلمين ، وهداةً لـلأمَّة ، وأدلَّاءَ على الله ! .

فعـدَّ مثـلَ : معـاويـةَ الغـدورِ ، ويـزيـدَ الخنـا ومـروانَ الـوزغِ ، وعبـدِ الملك الطَّاغيـةِ ، والوليـدِ الفاسقِ ، وأمثـالِ هـ ه الحلقـة المفصـومـة العرى ، مِنَ الأئمَّة ، لِيَكمل له العدد ـ اثنا عشر إماماً . . . !

ولو أنَّه فِيْ عداد أئمَّة الجور والضَّلال ، لَصَافقناه على دعواه . . . !

أمَّـا مَنْ شاء أنْ يتحـرَّى الحقَّ ، ولم تعمِ قلبَه الأغـراضُ ، ولم تُسخِّـره الشَّهـواتُ ، وشاء أنْ يُـطَبِّق أقوال الـرَّسول وأحَـاديثه ، فـإنَّه سيجـد تمـام العدد ، بالإمام الثانِيْ عشر : المهدِيِّ بن الحسن ، الذِيْ يُـوافق اسمُه اسمَ جدِّه الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم [1] .

وأنَّه هو الذِيْ سية م بالأمر ، لِيَنشر لواء العدالة على الـوجود ، ويُفيِّءَ الأمَّـة بظلِّ الإسـلام الوريف ، بعْـد أنْ تنال منهـا رمضاء الإلحـاد ، وهجير الانحلال ، وظمأُ اللَّادين . . .

. . . وبعْد أنْ يأْخذ الظلمُ والجورُ ـ مِنَ النَّاس ـ بالخُناق ؛ ويعمَّ المنكرُ أرجاءَ الأرض ، حتَّى يُصبح القابض على دِينه ، كالقابض على الجمر ، بعْد

---

(١) بعض الأحاديث تنهى أنْ يُنطق باسم المهدي ، المطابق لاسم جدِّه محمَّدٍ ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم . ولعلَّها نعني ـ مِنْ جانبٍ ـ الاحترامَ والتَّقديسَ لصاحب الرِّسالة .

ونعني ـ مِنْ جانبٍ آخر ، ولعلَّه الأهمُّ ـ مزيداً مِنَ التكتُّم والإخفـاء لشخص المهديِّ ، مِنْ أعـدائه ، الَّـذين تربَّصوا به ، منذ تُوفي والده الإمام الحسن ـ عليه السَّلام ـ لولا عناية الله ومشيئته ، التي ادَّخرتـه ، ليوم يُجدِّد فيه معالم الدِّين .

أنْ تُفصم عرى هذا الدِّين : عروةً ، عروةً ؛ وبعْد أنْ يعود الدِّين ـ كما بدأ ـ غريباً .

* * *

والقول بالمهدِيِّ ـ وإنْ كان مِنْ أركان المذهب الشِّيعِيِّ ، إلَّا أنَّ الشَّيعة ، ليست هِيَ الفرقة الوحيدة ، التِيْ تُقِرُّ به ؛ بل إنَّ الإسلام ، ليس هو الدِّين الأوَّل ، الذِيْ يقول به : إذ أشارت إلى ذلك الأديان السماويَّة الأوْلى . . .

فالقول به ـ باتِّفاق المسلمين عليه ـ يكاد يكون ضرورةً إسلاميَّةً ، مسلَّمةَ الأصل بين المسلمين ـ أيْ : إنَّ إماماً وُلد عليٍّ وفاطمة ، سيخرج ، فيملأ الأرضَ قسطاً ، وعدلاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً ، مسلَّمٌ بين المسلمين .

وهم ـ جميعاً ـ يعتقدون بذلك الإمام ، وأنَّ ذلك اليوم الذِيْ سيخرج فيه ، سيُوجد فِيْ مقتبل الأيَّام .

وقَدْ ينحصر الخلاف ـ بين : الشِّيعة ، وغيرها مِنَ المسلمين ـ فِيْ : وجوده الفعليِّ ، وعدمِ وجوده . . . على أنَّ أكثر مِنْ أربعين ، مِنَ العلماء الكِبار ، مِنْ غير الشِّيعة ، قَدْ صافقتِ الشِّيعةَ ، واعترفتْ بوجوده .

* * *

إلَّا أنَّ بعض مَنْ حَمَلَ مِعول الطَّائفيَّة البغيضة ، وراح يفتُّ فِيْ وحدة الإسلام المتماسكة ، قَامَ يشنُّ الغارات على الشِّيعة ، وينال منها ، ويسخر بها ، لأنَّ قلوبها تنطوِيْ على هذه العقيدة الحقَّة ، وقَدْ أخذتها مِنْ مصدر

التَّشريع ، وآمنتْ بها ، وهِيَ جزءٌ مِنَ الرِّسالة المحمَّديَّة .

ولكن هـذا الـطائفِيَّ البغيض ، عمشتْ عينُـه عنِ الضَّـوء ، وصـار لا يُحسُّ بالطَّود العظيم ، ماثلاً أمام عينيه ، ما دام حبُّ التَّشفِّيْ والانتقام ، مالئينْ منه الرُّوع ، ومُلوِّثين منه التَّفكير .

إنَّه ـ وهو المدَّعِيْ الإسلام ـ يتناسى ما فِيْ كتاب الله العزيـز ، ممَّا يُشـابه بقاء المهدِيِّ ، طيلة هذه المدَّة :

أليس نوحُ نبِيُّ الله ، قَدْ مكث فِيْ قومه ، ما ينهد لـلألف مِنَ الأعوام ، يدعوهم لله ، وهم سادرون فِيْ غيِّهم ؟ ! .

والله وحـده ، هـو العليم ، بمـا قضـاه مِنَ السِّنـين ، قبْـل الـدَّعـوة ؛ وبما مكث مِنَ الأعوام ، بعْد الطُّوفان ! .

والمسيـحُ عيسى ، الذِيْ دار الـزَّمَنُ ، مِنْ بعْد ميـلاده ، حتَّى اليـوم ، مـا يُقارب الألفَيْ دورةٍ ـ ألسنـا نُقرُّ بحيـاته ووجـوده ، وأنَّه لم يَمُتْ ـ إنْ كنَّـا قرآنيِّين ، نُقرُّ بما يُصرِّح به القرآن الحكيم ؟ ! .

وهم يعتقدون أنَّ المسيح ، سيعود إلى الأرض ؛ ويرون عـودته مقـارنةً لخروج المهدِيِّ .

وقبْل المسيح : الخضرُ ، فهم ـ أيِ : المسلمـون ـ يعتقدون وجـودَه ، هو الآخر .

كما يرون أنَّ الدَّجَّال ـ وهو ضالٌّ مضلٌّ رجيمٌ ـ سيخرج ؛ وخروجُه مِنَ الشَّارات والدَّلائل على قرب العصر المأْمول ، الذِيْ يخرج فيه المهدِيُّ .

وكلُّ هذا يعدُّونه مِنْ أشراط السَّاعة ، حتَّى أنَّه لو لم يبقَ مِنَ الدُّنيا ، سوى يومٍ واحدٍ ، لأمدَّ الله رقعة ذلك اليوم ، حتَّى يخرج فيه المهديُّ ـ كما نصَّت بذلك الأحاديث ، التِيْ تُؤكِّد على ضرورة خروجه .

وإذا كان الله سبحانه ، قَدِ اسْتجاب لإبليسَ ـ وإبليسُ مَنْ لا يزيده وصفٌ ، بعْد اسْمه ـ فَجَعَلَهُ مِنَ المُنظَرين ، فكيف وقَدْ أوجبتِ الضَّرورةُ وجودَ إمامٍ ، عِدلٍ للقرآن ؟ .

* * *

ثم كيف ـ لو لم يكن وجود الإمام مستمرّاً ـ يُرسل الرَّسولُ قولَته :

« مَنْ مَاتَ ، ولَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ ، مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً » . . .

ـ بعْد أنْ يُحدِّد لنا عددهم ، وأنَّهم لا يزيدون على اثنَيْ عشر ؟ .

وهذا الحديث يعنِيْ : أنَّ هذا الميِّت ، الذِيْ لم يعرف إمام زمانه ، يموت ، وبعدُ لم يكتمل الإسلام فِيْ قلبه ، وقَدْ فرَّط فِيْ أخْذِ دِينه ، إذ جهل المنْهل الذِيْ يُؤخَذ عنه الدِّين ، ولم يعرفِ المبلِّغ عنِ الرَّسول .

فهو بذلك يموت ، مثلَ ما يموت الجاهليُّ ، الذِيْ لم يركن لِدِينٍ ، ولم ينتمِ لمبدإٍ . . .

ومِنْ هنا . . . أشارتِ الآية الكريمة [1] ، إلى : أنَّ الدِّين قَدْ بات على كمالٍ ، وأنَّ النِّعمة الإلـٰهِيَّة ، أصبحت على تمامٍ ، بالنَّصِّ على عليٍّ :

---

(١) آية : ٣ مِنْ سورة المائدة .

خليفةً للرَّسول ، يوم غدير خمٍّ .

***

وهـذا الحديث ، هـو الذِيْ جَعَـلَ عبد الله بن عمـر ، فِيْ عتيٍّ الحيرة ، بعْد ما سمعه ، فراح فِيْ محلولك اللَّيل البهيم ، يقرع على الحجَّـاجِ السَّفَّاك بابَه ، لِيُبايعه للجائر عبد الملك ، بإمامة زمانِهِ ، مخافة أنْ ينسـلَّ إليه المـوت الزُّؤام ، فِيْ رقعة هذه اللَّيلة ، وهو لم يعرف إمام زمانه ! .

ولكنَّ الحجَّـاج الخبيثَ ، اكتفى بـأنْ مـدَّ لعبـد الله قـدَمَـه ، مِنْ وراء الدِّثار ، لِيَصفق عليها عبدُ الله بالبيعة .

أمَّا عبدُ الله ، فـإنَّه لم يُفكِّـر فِيْ هذا الحـديث ، طرفـةَ عينٍ ، يـوم كان وصِـيُّ رسول الله على رقعة الوجود ؛ ولذلـك لم تنبسط يدُه ، المتقبِّضـة عنِ البيعـة لأمير المؤمنـين عـليٍّ ؟ . ولم يخشَ مِيتـةً جـاهليَّـةً ، يجهـل فيهـا إمـام زمانه ! .

***

وهذا الحديث ـ هو الآخر ـ مِنَ الأحـاديث العامَّـة ، التِيْ تُثبت ضرورة وجود المهدِيِّ ، حسْب مفهومها العـامِّ . . . إذ لابُدَّ مِنْ وجـود إمامٍ ، بعْـد هذا الحكم على الميِّت الجاهل له .

ولسنـا نُـريـد أنْ نُـطيـل التَّعليق ، عـلى مـا يتعلَّق بـالمـوضـوع ، مِنْ أحاديث ؛ ولها فِيْ مـواضعه ، مِنْ كُتُب علمائنـا العاملين أبحـاثٌ ، أحاطت بـدقائق المـوضوع ، ولم تُبقِ للقـالة ، وألْسُن الافتئـات ، وضغـائن الحِقـد

والبغضاء : ستاراً ، إلَّا كشفته عن سوء دخْلة المـزوِّر ، واسْوداد طـويَّته ، وخُبْث نيَّته ، وسافل أغراضه المبيَّتة .

القطيف : { ١٤/٨/١٣٧٥ هـ
١٩٥٦/٣/٢٧ م }

حَوْلَ :
فِقْهِ الشِّيعَةِ

أُرسل هذا الموضوع لمجلَّة العربيِّ
- الكويتيَّة - لِنَشْره ، فأبى عليها
البواعث أنْ يُنشر كاملاً ، فَلَعِبَ به
قلمٌ ناشئٌ ، أخَذَ منه جملاً
مقطَّعةً ، مبتورةً . . .

وللإلمام بما دار حوْل ذلك ، راجِع
- فِيْ زوبعةٍ - ما تحت عنوان :
(مجلَّة « العربيِّ » وحريَّة
الفكر) .

عَتبٌ وَشُكرٌ

تناولتُ العدد الخامس عشر ، مِنْ مجلَّة « العربيِّ » الكويتيَّة ، فقرأْتُ ممَّا انطوتْ عليه الصَّفحات ، حتَّى وقفتُ عند المقال ، الذِيْ كَتَبَهُ الأستاذ زهدِيْ يكَن ، عن « فِقه الشِّيعة » ، حيث طلبَتْ منه المجلَّة : أنْ يكتب لها عن هذا الموضوع .

وأودُّ أنْ أعتب على العربيِّ فِيْ : ما كانت قَدْ قَدَّمتْ به مِنْ مقدِّمةٍ ، لهذا المقال ، حيث انطوت على شيْءٍ مِنْ جفافٍ ، كنَّا نربأُ بالعربِيِّ أنْ تقع فيه . . . !

ولو أدخلتْ على هذه المقدِّمة شيئاً مِنْ إصلاحٍ ، أو تلطيفٍ ، لتحوَّل الجدْبُ إلى خصْبٍ ، والجفافُ إلى طراوةٍ .

لَقَدْ قالتِ العربِيُّ فِيْ مقدَّمتها :

[لمناسبة القرار ، الذِيْ اتَّخذه شيخ الأزهر ، باعْتبار المذهب الشِّيعِيِّ الجعفرِيِّ ، مذهباً إسلاميّاً مقبولاً عند الله ، ومعترفاً به ، كالمذاهب الأربعة] - إلخ .

إنَّ الجفاف هو هنا . . . حيث يظنُّ القارىءُ : أنَّ المقصود مِنْ ذلـك ، هو : أنَّ المذهب الجعفرِيَّ ، لم يكن مذهباً مقبولاً عنـد الله ، قبْل أنْ يمنحـه هذه النِّعمة ، ويتفضَّـل عليه بهـذا الاعتراف : فضيلة الأستـاذ الأكبر شيـخ الأزهر .

ولكنَّا نُحاشِـيْ العـربِيَّ ، وصاحبَـه ، أنْ يكون هـذا هو القصـد ـ لولا جفاف العبارة ! ـ فهو العالِم الضَّليـع ، والمتطلِّع الثَّبْت ، لابُـدَّ وأنَّه يعـرف المذهبَ الجعفرِيَّ ، معـرفةً تـامَّةً ، ويعـرف : أنَّه المـذهب الحقُّ ، المجزِيْ عند الله . . .

. . . وأنْ لا فـرق بينـه ، وبـين المـذاهب الإســلاميَّـة ، فِيْ الأسُس والأصول . . . فَهِيَ تستقِيْ مِنْ نبعٍ واحدٍ ، وترجع لأصلٍ واحـدٍ ، سواءً أخْتلف الطَّريق إلى النَّبع ، أم اتَّحد . . .

وأنَّ كـلَّ فرقٍ بينـه وبين المـذاهب ، لا يعدو أنْ يكـون كـالفـرق بـين المذاهب : بعضها ، مع البعض الآخر . . .

وأنَّ كلَّ فِرقةٍ ، أو نِفارٍ ، طَلَعَتْ علينـا أشباحُهـا المرعبـة ، فِيْ العصور المظلمة ، ليست مِنْ سوى أسباب السِّيـاسة المنحـرفة ـ آنـذاك ـ مِنْ حكَّامٍ جائرين ، يتسمَّون بالخلفاء ، وليسوا بهم ؛ إذْ لم نجد لهذه الـظَّاهرة الخبيثـة أثـراً ، فِيْ عهد الخـلافة الـرَّاشدة ، ولا لـدى الحكَّام الصـالحـين ، الـذين يظهرون علينا ، بين الحين والآخر ، فِيْ عصورنا الماضية .

ولَقَـدْ كان المستغـلُّ الجائـر ، ومِنْ ورائه المستعمِـر المغتصِب ، يُشجِّع هذه السِّياسةَ الطَّائشةَ ، لِيَفتَّ الوحدةَ ، ويقضِـيَ على التَّماسك ، فتتداعى

الصُّفـوفُ ، ويتناحـر الأخوانِ ، ويتنـاكر الصفيَّـانِ ، تمشيـاً مـع قـاعـدتـه الخبيثة :

« فرِّقْ تَسُدْ » . . . !

والجهـلُ : سـلاحٌ رهيفٌ ، كـان بيـده ، يُحقِّق لـه المـآرب الـدُّون ، والأغراض الشَّوهاء ! .

أمـا ونحن فِيْ عصرٍ عمَّت فيه المعـرفة ؛ وانتشر مِنَ العلم نـورٌ ، شمل الجـانب الأكبر ، مِنَ الـرُّقعـة الأرضيَّـة ؛ وانتهتِ الأسبـاب المـوجبـة لهـذه الفِرقة ؛ وانفضحتِ الغاية منها ؛ فليس مِنْ سبيلٍ يحـول دون تنقية الجـوِّ ، لتعود الحياة طبيعيَّةً ، والمياه لمجاريها ، حيث النَّبع الواحـد ، الذِيْ يمـدُّها ، على صفائه ودفْقه .

***

ولا شكَّ أنَّ لِمَنْ يحمل هذه الرسالة ـ رسـالةَ التَّـوحيد ـ وهِيَ فِيْ أعنـاق رجال الدِّين ضرورةٌ ، وواجبٌ عينيٌ ـ على حدِّ تعبـيرهم ـ الشكرَ المـوفورَ ، والجزاءَ المضاعفَ ، عند الله ، وعند الناسِ ، والتَّاريخِ .

ومِنْ هنـا . . . كان لهـذه الخطوة المحمـودة ، التِيْ أقـدم عليهـا فضيلة شيـخ الأزهر : أثـرُها الفعَّـال ، وصداهـا البعيد . . . إذ لاقَتِ التَّقـديرَ ، واستحقَّتِ الشُّكران ، وتجاوبتْ أصداؤُها فِيْ : النُّفـوسِ الحيَّة ، والقلوبِ المؤْمنـة ، والضَّمائـر اليقِظة ؛ فكـان لها دَوِيٌّ وتجـاوبٌ ، شَمَلَ الأوسـاط : العلميَّـة ، والأدبيَّة ، والصَّحـافيَّة ، وغـير هـذا وذاك مِنَ الميـادين ، وبـين الطَّائفتين الكبيرتين : الشِّيعة ، وأهل السُّنَّة . . .

. . . فعلَّقَ على هذه الخطوة ـ مرحِّباً ـ كثيرٌ مِنْ علماء الطَّائفتين ، وأوْلَوْها عنايتَهم وتقديرَهم .

***

وقَدْ كان مِنْ بين مَنْ علَّق عليها فضيلة الدُّكتور الشيخ مصطفى الرَّافعِيُّ ـ رئيس محكمة بيروت الشَّرعيَّة السنيَّة .

وقَدْ كان مِنْ بين تعليقة هذه الفقرة ، التيْ نعتزُّ بها ، ونُكبر فيها : روحَه السمح ، وإنصافَه ، حتَّى انمحتْ معه الأنانيَّة الذَّاتيَّة ، وتلاشتِ الطَّائفية المذهبيَّة ، بكلِّ آثارها المرَّة ، وقال الحقَّ غير مواربٍ ولا مداجٍ ؛ بل قالها مجلجلةً صادقةً ، مبتنيةً على الحقائق ، ومستمدَّةً مِنَ الواقع :

[أمَّا الاختلاف الحاصل فِيْ الفروع ـ أيْ : فِيْ المسائل الفقهيَّة ـ فهو بدوره أيضاً ، لا يزيد على الاختلاف الحاصل بين : المذهب الحنفِيِّ ، والمذهب الشَّافعِيِّ ـ مثلاً ـ مِنْ مذاهب أهل السُّنَّة .

وفِيْ كثيرٍ مِنْ هذه الاختلافات ، القائمة بين : مذاهب أهل السُّنَّة ، والمذهب الجعفرِيِّ ، لا يتردَّد المدقِّق المنصفُ ، فِيْ ترجيح الأدلَّة ، التيْ يستند إليها

المذهبُ الجعفريُّ ، على الأدلّة التيْ استندت عليها مذاهب أهل السُّنَّة .

وما الجفاءُ القائم بين المذهب الجعفريِّ ، وبين مذاهب أهل السُّنَّة ، فِيْ نظرِيْ ، إلاَّ أحبولةً مِنْ أحابيل الاستعمار ، للإيقاع بهذا الوطن ، بُغية تفكيكِ عُراه ، وتمزيقِ شمْلِهِ - الخ] [1] .

(١) مجلّة الأحد البيروتيّة - العدد ٤٣٩ ، وتأريخ ٦/١/١٣٧٩ هـ .

رجاءٌ وسُؤالٌ

ونحن نُعلِّق على فضيلة شيخ الأزهر : مزيدَ أملٍ فِيْ خطواتٍ أُخرى جبَّارةٍ ، لِتَستأْصل أسباب الفِرقة ، وما تُنتجه مِنْ إحنٍ وتباعدٍ ، وأنْ يُخرس بعض الألسنة الماجورة ، التِيْ تُوسِّع شقَّة الخلاف ، بما تفتئِت وتفترِيْ . . .

وهمسةٌ مخلصةٌ نُزجيها إليه ، مُهيبين به إلى تطهير مجلَّة الأزهر ، هذه المجلَّة التِيْ تحمل اسْم هذه الجامعة الكبرى ، والتِيْ تُناط بها رسالةٌ ، مِنْ أضْخم الرِّسالات ، وهِيَ التِيْ يُراد منها أنْ تكون قبَساً يُنير ، وضُوىً تهدِيْ . . . فَفِيْ هذه المجلَّة تُطالعنا مقالاتٌ ، بأقلامٍ هدَّامةٍ ! .

ويكفينا أنْ نُشير إلى قلَم محبِّ الدِّين الخطيب !!! .

وهناك مجلَّةٌ أُخرى ـ فِيْ دمشق العربيَّة ـ تحمل اسْم « التمدُّن الإسلامِيِّ » ، وهِيَ تلحُّ على نشْر مقالاتٍ ـ أبْعد ما تكون عنِ اسْمها ـ إلحاح الذُّباب ، على النَّتن مِنَ الطعام ! .

وكم كنَّا نتمنَّى أنْ تُنتج بذرتُه ثمارَها اليانعة ، وتتبعها خطواتٌ أُخرى موفَّقةٌ ؟ ! .

وكم تتعلَّق الأنظار على إنهاء مهزلة الاحتفال بالمحرَّم ـ ولا سيَّما باليوم العاشر منه ، ذلكَ اليوم المصبوغ بالدَّم ، مشيراً إلى أعْظَم حدَثٍ عرفتْه

الإنسـانيَّة ، منـذ تكوينهـا ، فِيْ : صراعٍ أليمٍ ، ومعركـةٍ داميـةٍ ، بـين : الحق ، والباطل ـ فِيْ قلَّةٍ تُمثِّل الأوَّل ، فِيْ : فداءٍ فذٍّ ، وتضحيةٍ نـادرةٍ . . . وكثـرةٍ ساحقـةٍ ، تُناصر الثـانِيْ ، فِيْ صفقاتٍ تجـاريَّةٍ ، بضـاعتُها الضمائـرُ الزَّنخة .

***

ثم إنَّنا نعود للعربِيِّ ، وصاحبِهِ ، بسؤالٍ نرجو قبولَه :

لِمَاذا لم يُنِطْ ، أو يُشرِكْ فِيْ هذا السؤال شيعيّاً ، لـه القدرة عـلى توضيـح هذا الموضوع ، وتنوير القرَّاء بأكثرَ مِنْ هذا المقال . . . ؟ !

لأنَّ الأستاذ زهدِيْ يكن ، مهما حاول أنْ يقف موقف المقارِن ، فإنَّه قَدْ لا يلمُّ الإلمـام الشـامـل ، بمـا فِيْ المـذهب الشيعِيِّ ، أو لا يعـرف الأدلَّـة والمستندات التِيْ يعتمدها . . . فَقَدِيماً قِيل :

« أَهْلُ الْبَيْتِ أَدْرَى بِالَّذِيْ فِيْهِ » .

وهذا لا يعنِيْ : أنَّ المذهب الشيعِيِّ ، يكتنفـه الغموضُ ، أو يحـوط به الإخفاءُ ـ كما يُحاول الزاعمـون إلصاقَ مثـل هذه التهم بـه ـ ولكن موضـوعاً كهذا ، يحتاج لكثيرٍ مِنَ الاطِّلاع .

ومِنْ هنـا كان فِيْ المقـال ، ما يُـلاحظ عليه . . . وهـذا ما سنتنـاوله ؛ ونختصُّ مـا يتعلَّق بالشيعـة الإماميَّـة ـ الإثنيْ عشريَّـة ـ إذ لا يجوز لنـا بسْطَ بحثٍ عنِ الشيعة الزيديَّة ، مالم تتوافر عناصرُ البحث ، وسعةُ الاطِّلاع .

***

ولنأْخذِ ـ الآن ـ فِيْ عرْض بعض النقاط ، عـازمين عـلى اختصارهـا ، ما وَسِعَ السبيـل لذلـك ، وهو قَـدْ يكون نقـاشاً فِيْ بعضهـا ، وتوضيحـاً فِيْ بعضها الآخر :

- ١ -

صحيحٌ ما قاله الأستاذ ، مِنْ :

« أنَّ الشِّيعــة فِـرقٌ كثيــرةٌ ، تختلف فِيْ ما بينها اختــلافاً كبيــراً ، فمنهم مَــنْ غـلَوْا فِيْ آرائــهــم ، غُــلوّاً أخرجهم مِنْ حظيرة الإسلام » .

وهذه ظاهرةٌ لم تختصَّ بها الشِّيعة وحدَهـا . فكما أنَّ مِنْ فِـرَق الشِّيعة : مَنْ يتبرأُ منها الشِّيعة المعتدِلـون ، كذلـك نجد مِنْ بـين الفِرَق السُّنِّيَّـة : مَنْ يتبرأُ منها أهل السُّنَّة المعتدِلون ، لِخُروجهم مِنَ الحظيرة الإسلاميَّة .

ونحن نُقـدِّر للكـاتب هــذه المـلاحــظةَ والإشـارة ؛ إذ أنَّ مِنْ واجب الباحث أوِ النَّاقد : تحديدَ موقفِهِ ، وتعيينَ النُّقطة التِيْ يرتكـز عليها نقْـدُه ، أو يدور بحْثه .

ولوِ التزم هذا الواجبَ جميعُ الباحثين والنُّقَّاد ، لَمَا أقدم الكثـيرُ منهم على لصْق التُّهم الباطلة ، والدعاوى الزَّائفة بالشِّيعـة ، على أسـاسِ قولـةٍ ، قَدْ تكون منسوبةً لإحدى الفِرَق الضَّالَّة . . . !

فإذا قُوبل بجنس عملِهِ ، ورُدَّ عليه بأُسلوبه ، اضطرَّ الرَّادُّ عليـه لِذكْـر أقوالٍ ، ونسبةِ عقائدَ زائفـةٍ إليه ، عـلى أساس أنَّ بعضـاً مِنَ الفِرَق السُّنيَّـة

الضَّالَّة ، تقول بها ، أو تُنسب إليها . . .

وهذا ما حَدَثَ ـ ويا للأسف ! ـ لدى بعض الهـدَّامين : مـأْجورين ، ومُسْتَعْمَـرِين ؛ فألَّف مـا ألَّف ، وكَتَبَ مـا كَتَبَ ، ونَسَبَ مـا نَسَبَ ، دون ارْتكازٍ لدليلٍ ، ولا اعتْضادٍ ببرهانٍ ، ولا اعْتمادٍ على مصدرٍ . . .

. . . فَعَمَـلَ ـ بتوجيـه المُسْتَعْمِر المستأْجِر ـ مـا اسْتطاع العمـل ، على توسعة الفِرقة ؛ وخَـدَمَ ـ قاصـداً ، أو دون قصدٍ ـ أغـراضَ تلك السِّياسـة المنحرفة ، المبتنية على هذه الأسس المنهارة ، حيث لا تعرف الصَّيد إلاَّ فِيْ : العكِر مِنَ الماء ، والمكفهرِّ مِنَ الجوِّ .

- ٢ -

ذَكَرَ الكاتبُ المحترم : أنَّ أهمَّ مواطن الشِّيعة إيران ، ثمَّ العراق .

وهذانِ القطران تُؤلِّف الشِّيعةُ فيهما الأكثريَّةَ السَّاحقةَ ، ولا سيَّما فِيْ إيران ، حيث إنَّ المذهب الرَّسمِيَّ فيها ، هو : المذهبُ الجعفرِيُّ ؛ إلَّا أنَّ فِيْ كثيرٍ مِنْ بقيَّة الأقطار الأخرى - حيث يُوجد فيها مسلمون - كثيراً مِنَ الشِّيعة .

فَفِيْ الجزيرة : السُّعوديَّةِ ، والْبَحْرَيْنِ ، والكويتِ ، وغيرها ، واليَمَنِ ، وسوريَّا ، ولبنان ، وغيرِها مِنَ البلاد العربيَّة ؛ وفِيْ : الهندِ ، والباكستانِ ، وأفغانستانَ ، وروسيا ، والصِّين ، والتِّبت ، وأندونيسيا ، وغيرِ هذه وتلك مِنَ البلاد ، يُوجد الكثيرِ مِنَ الشِّيعة .

- ٣ -

ذَكَرَ - بعدئذٍ - قولَه :

« ومــذهبُهم فِيْ الفِقـه ، أقــربُ إلى مذهب الإمام الشافِعِيِّ » .

وإذا شئنا شيئاً مِنْ تعمُّقٍ وتقصٍّ ، كان علينا أنْ نقول :

« ومذهبُ الإمام الشافعِيِّ فِيْ الفِقه ، أقربُ إلى مذهبهم » . . .

ذلك أنَّ الإمام الشافِعِيَّ ، مثلُه مثلُ غـيره مِنْ أئمَّة المـذاهب الأرْبعة ، يرجعون فِيْ التَّلمذة إلى واحدٍ مِنْ أئمَّة أهل البيت .

ونكتفِيْ للتَّدليل على ذلك ، بقولةٍ للعلاَّمة ابن أبِيْ الحديد - المعتـزلِيِّ : أصولاً ، الحنفِيِّ : فروعاً - حيث أرْجَعَ جميـعَ العلوم إلى الإمام علِيٍّ - عليه السَّلام - وأنَّها عنه أُخذت ، ومنه عُرفت ؛ ووَصَلَ إلى الفقه ، فقال بالحرف الواحد :

[ومِنَ العلوم : عِلمُ الفقه] .

[وهــو عليـه السَّــلام - يعني عليّـاً - أصْلُه وأســاسُـه ؛ وكــلُّ فقيـهٍ فِيْ الإسلام فهو عيالٌ عليه ، ومستفيدٌ مِنْ فقهه] .

[أمَّا أصحاب أبِيْ حنيفة ـ كأبِيْ يوسفَ ، ومحمَّدٍ ، وغيرِهما ـ فأخذوا عن أبِيْ حنيفة] .

[وأمَّا الشافِعِيُّ فَقَرَأَ على محمَّدِ بن الحسن ، فيرجع فقهُه أيضاً إلى أبِيْ حنيفة] .

[وأمَّا أحمد بن حنبل ، فَقَرَأَ على الشافِعِيِّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبِيْ حنيفة] .

[وأبو حنيفة قَرَأَ على جعفرِ بن محمَّدٍ عليه السَّلام ، وقَرَأَ جعفرٌ على أبيه عليه السَّلام ، وينتهِيْ الأمر إلى عليٍّ عليه السَّلام] .

[وأمَّا مالكُ بن أنس ، فَقَرَأَ على ربيعةَ الرأْيِ ، وقَرَأَ ربيعةُ على عِكْرِمَة ، وقَرَأَ عِكرمة على عبدِ الله بن عبَّاسٍ ، وقَرَأَ عبدُ الله بن عبَّاس على عليٍّ عليه السَّلام] .

[وإنْ شئتَ فَرَدَدْتَ إليه فقهَ الشافِعِيِّ

- بقراءته على مالكٍ - كان لك ذلك . فهؤلاء الفقهاء الأربعة] - إلخ [1] .

ثم أثبتَ أخْذَ فقهاء الصَّحابة - كعمر بن الخطَّاب ، وعبد الله بن عبَّاس - عن عليٍّ ، عليه السَّلام ؛ وأتى على كلماتٍ لعمر ، حين :

[رجوعِه إليه فِيْ كثيرٍ مِنَ المسائل ، التِيْ تشكل [2] عليه ، وعلى غيره مِنَ الصَّحابة ، وقولِهِ غير مرَّةٍ :

« لولا عليٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ » .

وقولِهِ : « لا بقيتُ لمعضلةٍ ليسَ لَهَا أبُو الحسن » .

وقولِهِ : « لا يُفتِينَّ أحدٌ فِيْ المسجدِ وعليٌّ حاضِرٌ »] [3] .

ولعلَّ فضيلة الرَّافِعِيِّ ، اسْتند على مثل هذه الحقائق ، والوقائع الثَّابتة ، حين ما قال قولتَه الواضحة ، تلك التِيْ أشرنا إليها فِيْ صدر هذا الحديث [4] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ص ٨ ج ١ طبعة بيروت « المغلوطة » . تجدها في ص ١٨ ، ج ١ - طبعة دار إحياء الكتب العربيَّة ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، عام ١٣٨٥ هـ .

(٢) في طبعة دار إحياء الكتب « أشكلت » .

(٣) المصدر السابق - في طبعتيه .

(٤) ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

- ٤ -

لا ندرِيْ ـ بالضَّبط ـ ماذا تعنيْ قولة الأستاذ :

[والمُؤسِّس حقّاً لِفقه « الإمـاميَّة » فِيْ إيران ، هو « أبـو جعفرٍ محمَّـدُ بن الحسن بن فرُّوخٍ الصفَّار »] ؟ .

فإنْ كان يعنِيْ بتأْسيس الفقه الشِّيعيِّ : تأْسيساً إيجاديّاً ، فهذا مالا تقُرُّه الحقـائق الثَّابتـة ، لأنَّ التشيُّع والإسـلام شيْءٌ واحدٌ ، حَتَّى أنَّـه لا تصـدق عليهما تلك الكلماتُ المألوفة ـ عند القُدامى ـ فِيْ التعبير عن واشج القربى ، وامتداد الصِّلة ، بقولهم :

[رضيعَا لبانٍ ، وفرسَا رِهانٍ] .

لأنَّ مُؤسِّس الإسلام ، وباذِر التَّشيُّع واحدٌ ، هـو : صاحب الـرِّسالـة الأقْدس .

وهذا شيْءٌ مِنَ الحقائق الرَّاهنة ، التِيْ لا تحتاج لبرهنةٍ أو تدليـل ، فهِيَ مِنَ الثُّبوت الواضح بمكانٍ ، لا يرقى إليه الشَّكُّ ، ولا يناله الجدال .

* * *

وإنْ كان يعنِيْ به نقْلَ المذهب الشِّيعِيِّ إلى إيران ، وسبب انتشاره فيه ، فإنَّ مبدأه كان فِيْ أواخر الدَّولة الأمويَّة .

ولابدَّ أنَّ لوجود الإمام الرِّضا ، عليه السَّلام ، هناك ـ فِيْ عهد المأْمون العباسِيِّ ـ وموتِه ، ومدفنِهِ فِيْ خراسان ، أثرَه البعيد ـ أيضاً ـ الذِيْ أسهم ، فِيْ انْتشار المذهب الجعفرِيِّ فيها .

ولكن لم يكن ذلك الانتشار الواسع ، إلاَّ على عهد الملك المغولِيِّ المسلم ، المعروف بشاه خُدابنده ـ المتوفَّى سنة ٧١٦ هـ ـ حيث أظهر التَّشيُّع فِيْ فارس ، وكان داعيةً إليه ، لحادثةٍ مشهورةٍ ، وَقَعَتْ له . . .

. . . فَطَلَبَ ـ بسببها ـ العلاَّمة الحلِّيَّ ـ الإمامَ الحسنَ بن المطهَّر ـ مِنَ العراق ، وكان هذا مِنْ أكابر علماء الشِّيعة ، فكانت هناك مناظراتٌ مذهبيَّةٌ ، فازَ فيها العلاَّمةُ بالسَّبق [1] .

وهذه الحادثة التأْريخيَّة ، أخذت مِنَ التأْريخ ما يُناسب ضخامتها . . . ونالتِ الشيْءَ الكثير مِنَ الشُّهرة .

وقَدِ اتُّخذ المذهب الشِّيعِيُّ رسميّاً ، بحيث أصبحت حكومة فارس شيعيَّةً محضةً ، فِيْ عهد الشَّاه عبَّاس الصفوِيِّ الكبير [2] .

---

(١) ص ٧٢ ، ٧٣ (تحت راية الحقّ) للعلاَّمة الشَّيخ عبدالله السُّبيتي .

(٢) المصدر السابق .

ـ ٥ ـ

أمَّـا موضـوع القيـاس ، ورفْضُـه لـدى الشِّيعـة ، فصحيـحٌ ؛ إلاَّ أنَّ التَّعليل فِيْ ذلك ، قَدْ يكون مِنْ بينه شيْءٌ ، ممَّا ذكره الأستاذ .

تعتمد الشِّيعة أدلَّةً أربعةً : الكتابَ ، والسُّنَّةَ ، والعقلَ ، والإجماعَ .

فـالقـرآنُ لـدى الشِّيعـة ـ كـما هـو لـدى المسلمـين ـ الـدَّستـور للدِّين الإسلامِيِّ .

والسُّنَّةُ : موضِّحةٌ ، ومفسِّرةٌ له ، ومتمِّمةٌ . فما جاء مِنَ السُّنَّة يجب أنْ يُبحث عن رُواته ؛ فما خالَفَ الكتابَ ، رُمِيَ به عرْض الحائط .

وليس يُقبل مِنَ السُّنَّة شيْءٌ يُخالف القرآن ـ لأنَّـه ليس منها ، قـطعاً ـ إذ أنَّ الكذَّابة والوضَّاعين ، كانت لهم سوقٌ رائجةٌ ، عُرضتْ فيها الضَّمائر ، وبيعتِ الذِّمم ، حسب ما أرادتِ السُّلطة الجـائرة ، آنـذاك . وقَدْ ثَبَتَ عنِ الرَّسول تحذيرُه ، مِنَ : الوضع ، والوضَّاعين ! .

***

ومِنْ هنا بَطَلَ القياس ـ لدى الشِّيعة ـ كدليـلٍ يُستند عليـه فِيْ الأحكام الشرعيَّـة ؛ إذ أنَّ على المجتهـد : أنْ يستعمل عقلَه ، لِيَبحث ـ لا لِيَقيس ـ عنِ الأدلَّة الشرعيَّة ، فِيْ مصادرها الأوْلى ـ الكتـاب ، والسُّنَّة ـ فتبتنِيَ عليهـا الفروع ؛ إذ لابدَّ للفرع مِنْ أصلٍ .

أمَّا القياس ، فَيُكتفى فيه : بمشابهة هذا الفرع لذاك ، لِيُقاس عليه .
وهو إنْ قُدِّر جوازُه فِيْ شيْءٍ مِنَ المادِّيَّات ، فإنَّه لا يجوز بحالٍ مِنَ الأحوال ، عند الشِّيعة ـ فِيْ الدِّين ، ولديهم نصوصٌ ، تنهى عنه . . . ومنها ما يرى :

« أَنَّ حُكْمَ اللهِ لا يُصَابُ بِالْعُقُولِ ؛
وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ [1] ، **وَأَنَّ**
الدِّينَ إِذَا قِيْسَ مُحِقَ » .

إلي غير إلى غير ذلك مِنَ العِلل ، التِيْ جاءتهم عنِ الأئمَّة مِنْ أهل البيت ـ عليهم السَّلام .

ونرى أنْ نُلفت النَّظر إلى : أنَّ الشِّيعة ، لا تُعطِّل العقل ، لأنَّ القياس لا يستند إلى العقل ؛ وإنَّما يستند على الظَّنِّ والحدْس ، فحسْب .

. . . وأنْ لا تناقض بين القول بأنَّ « حُكْمَ اللهِ لا يُصَابُ بِالْعُقُولِ » ، وبين اعْتبارها للعقل دليلاً شرعيّاً .

فالعقل المقارِن المُقيس ، هو المُبْطَل عندها . أمَّا العقل المُستنبِط الباحث ، فهو المعتَمَد .

بل إنَّ الدليل العقليَّ ـ عندها ـ هو أوَّل ما تستخدمه مِنَ الأدلَّة ، حيث تُوجب إثبات الأصول الدِّينيَّة الخمسة ـ التَّوحيد ، والعدل ، والنُّبوَّة ،

---

(١) إشارة للآيات الكريمة ، التي رفض فيها إبليسُ السَّجودَ لآدم ؛ لأنَّ الله خلق آدم مِنْ طينٍ ، وخلقه مِنْ نارٍ . مثل قوله تعالى :

﴿ قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ * خَلَقْتَنِيْ مِنْ نارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ ﴾ ـ الأعراف : ١٢ ـ ص : ٧٦ .

والإمامة ، « الكلِّيَّتين » ، والمعاد ـ بالدَّليل العقليِّ ، مِنْ دون ظنٍّ ، أو تقليدٍ واتِّباعٍ ؛ أوِ اسْتدلالٍ بالنَّقل ، مِنْ كتابٍ أو سنَّةٍ ، لأنَّ ذلك لا يُمكن ؛ بل يؤُول إلى الدَّور والتَّسلسل ـ كما يُوضحون .

إذ كيف يجوز ـ عقلاً ـ الاستدلالُ على ثبوت الخالق ، بقول هذا الخالق نفسِه ، أو إثباتِ توحيده وعدالته بقوله بذلك عن نفسه ، متى لم يكن وجودُه ثابتاً ، عند هذا الطَّالب للدَّليل ؟ ! [1] .

وهِيَ تعتمد العقل ، فِيْ مواطن أُخرى ، كالحسن والقبح العقليَّيْن .

وما فتْحُها لِباب الاجتهاد على مصراعيه ، سوى دليلٍ آخر على إيمانها بالعقل ، الباحث المنتج .

وقَدْ يجوز لنا أنْ نقول بأنَّ الشيعة قَدْ تعتمد القياس ـ أحياناً ـ وذلك فِيْ : منصوص العلَّة ، وقياس الأوْلويَّة .

والمثال على الأوَّل ، نأْخذ قاعدة :

« كلُّ مسكرٍ حرامٌ » .

فمتى كان هذا مسكراً ، فهو حرامٌ .

أمَّا الثانِيْ ، فنأْخذ ـ مثلاً ـ قولَ الله سبحانه ، فِيْ حق الوالدَيْنِ :

« فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ » [2] .

فإذا كان النَّهْيُ عنِ التَّضجُّر والتأفُّفِ فِيْ وجهيهما ، فَمِنْ بابٍ أوْلى : أنْ

---

(١) بعد إثبات الخالق عقلاً ، يُمكن الاستدلال بقوله : تعضيداً للعقل ، في خطواتٍ ، تتلو التَّوحيد .

(٢) الإسراء : ٢٣ .

يكـون النَّهْيُ عن : شتمهـما ، وسبِّهـا ؛ فضـلاً عن ضربهـما ، وغـيره مِنَ الأذى .

وهـذا لا يُسمَّى قيـاسـاً ـ بـالمعنى المعـروف لكلمـة : « قيـاسٍ » ـ إلاَّ تجـوُّزاً ، لأنَّه مبتنٍ عـلى أُصولٍ وقـواعدَ شرعيَّـةٍ ، ويُـطبَّق عـلى النُّصـوص والواردة فيْ الموضوع .

فأصْـل الإبـاحـة ، وأصْـل الـبراءة ، وأصْـل الـطَّهـارة حتَّى تعلم بالنَّجاسة ، وغيرها ، كلُّها أُصولٌ ثابتةٌ ، تُقاس عليها الفروع ، حيث منهـا تتفرَّع ، وإليها ترجع .

***

وأمَّا الإجماع ، فهو : دليلٌ مِنْ بين الأدلَّة الأربعـة ـ أيضاً ـ ولـه شروطٌ لديهم ، إلاَّ أنَّ مِنْ أهمِّها : أنْ يكون هذا الإجماع مندرجاً تحته قولُ معصومٍ ـ وهو ، عدا الرَّسول : أحد الأئمَّة مِنْ أهل البيت ـ عليه وعليهمُ السَّـلام ـ فلا يقوم إجماعُ ولا ينعقد ، متى كان مخالفـاً لقول الإمـام ؛ إذ أنَّ هذا يُبـطل القول بالإمامة والعصمة .

ومتى قام الإجماع على شيْءٍ ، أصبح ضرورةً مذهبيَّةً ، يُعدُّ مخالفها ـ إذا كـان شيعيّاً ـ خـارجاً عنِ المـذهب ؛ حيث لا يُعدُّ خـارجاً مِنَ الـدِّين ، إلاَّ المخالف للضَّرورة الدِّينيَّة [١] ، التيْ تقوم عليها إجماعُ المـذاهب كلِّها ، إنْ لم يكن فيها قرآنٌ صريحٌ ، أو سنَّةٌ صحيحةٌ .

---

(١) يُشترط في المخالفة : أنْ تكون عن : جحودٍ ، ونكرانٍ ، لا عن معصيةٍ ، مع إقرارٍ بها ـ وهو موضوعٌ مبسَّطٌ في مراجعه

وإنَّ الحديث حول هذا ، والمزيد مِنَ التَّوضيح ، يتطلَّب الجهْد الكبير ، مِنْ : سعة وقتٍ ، واتِّساع مجالٍ . وهذا ما يأْباه موضوعنا ؛ إذ علينا أنْ نُلمَّ بشيْءٍ مِنْ توضيحٍ ، فحسْب .

- ٦ -

صحيحٌ ما قاله الأستاذ ، عنِ اعْتبار النِّكاح ـ لدى الشِّيعة ـ دائماً ، ومنقطعاً ؛ إلاَّ أنَّ هناكَ متَّسعاً لمجال النِّقاش معه ، فِيْ قوله :

[فأهْل السُّنَّة والزَّيديَّة يرون أنَّ نِكاح المُتْعة ، نُسِخَ فِيْ أيَّام الرَّسول . والشِّيعةُ يُصرُّون على عدَم النَّسْخ ، ويُصرُّون على ما رواه ابن عبَّاسٍ وغيرُه عنِ الرَّسول فِيْ جواز المُتْعة] .

. . . فإنَّه لَيُعوزه الدَّليل ، ولا يستطيع البرهنةَ على إثبات النَّسْخ ، فِيْ أيَّام الرَّسول ؛ وصريحُ القرآن ، يدلُّ على بقاء الحليَّة .

ولو سُلِّم وجود خبر ، فما هو سوى خبر آحادٍ ، لا يُؤْخذ به ، حيث لا يُعارض صريحَ القرآن ؛ بالإضافة إلى وجوب البحث عنِ الرُّواة ، ومعرفة مكانهم مِنَ : الوثاقة ، والصِّدق ! .

ثمَّ إنَّ هناك عدَّةَ أحاديثَ تدلُّ على الحليَّة ، شُحنت بها الكُتُبُ المعتَمدة ، لدى الشِّيعة ، وأهل السُّنَّة .

ونرى أنْ نأْتِيَ بشيْءٍ ، ممَّا لدى أهل السُّنَّة :

[قـدِم جـابـر بن عبـد الله معْتمِـراً ،
فجئناه فِيْ منزله ، فسألـه القوم عن
عن أشيـاءَ . ثُمَّ ذَكَـرُوْا المُتْعــة ،
فقال :

نَعَمْ ! اسْتمتعنـا على عهْـد رسول الله
ـ صـلّى الله عليـه « وآلـه » وسلّم ـ
وأبِيْ بكرٍ ، وعمرَ][1] .

وهنـاك مِنَ الأحاديث مـا تُشير إلى أنَّ الحليَّـة كانت دائمـةً ، وأنَّ المُتْعة معمولٌ بها على عهْد الـرَّسول الأعـظم ـ صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم ـ وعهْـد أبِيْ بكرٍ ، وشطرٍ مِنْ عَهْد عمرَ ؛ وأنَّ النهْيَ كان مِنْ عمرَ نفسِـهِ ، فِيْ الشَّطر الأخير مِنْ خلافته ، فِيْ حادثةٍ رأى المصلحةَ فِيْ النَّهْيِ المؤقَّت عنها . ففيها ما يقول عن جابر أيضاً

[حتَّى نهى عنه عمرُ فِيْ شأْن عمرو بن
حريث] .
أو :
[ثمَّ نهانا عنهما ـ مُتْعة الحجِّ والنِّســاء ـ
عمرُ ؛ فلم نعُدْ لهما][2] .

وإنَّ الخليفة الثَّانيَ نفسه ، قَدْ صَرَّحَ بعدَم النَّسْخ ، فِيْ قولته المشهورة ،

---

(١) صحيح مسلم ص ١٣١ ج ٤ . وتجدها في ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٩ منه ، بشرح النَّوويِّ ـ طبعة المطبعة المصريَّة ومكتبتها .

(٢) المصدر السابق .

وذلك عند الحادثة ، التِيْ أشارْ إليها جابر ، فِيْ حديثه :

[مُتعتـان كانتـا على عهـد رسـول الله صـلَّى الله عليـه « وآلــه » وسلَّم ، وأنـا أنهى عنهما وأُعـاقب عليهـما : مُتْعة الحجِّ ، ومُتْعة النساءِ] .

وقَدِ احتجَّ الرَّازِيُّ ـ فِيْ تفسيره ـ على حرمة المُتعة ، بقولة الخليفة هذه ، لا بدعوى النَّسخ .

وقَدْ كرَّر الخليفة هذا النَّهْيَ ، وأضاف إليه ـ مرَّةً ـ نهْياً ثالثاً ، هـو النَّهْيُ عن « حيَّ على خير العمل » ـ فِيْ الأذان .

وقَـدْ تمتَّع ربيعـة بن أُميَّة ـ عـلى عهد الخليفـة عمر ـ بـامرأةٍ ، فحملتْ منه ، فلمَّا وَصَلَ خبره للخليفة ، خَرَجَ فزعاً يجرُّ رداءه قائلاً :

[هذه المُتْعة . . . ! ولو كنتُ تقدَّمتُ فيها لَرَجَمْتُ] [1] .

وهذا يُشير إلى أنَّ هذه الحادثـة ، كانت قبْـل نهيه ذاك ـ إذ لـو سَبَقَهَا ، لَرَجَمَ ـ فتكرَّرت لديه حوادثُ ، لم يُعطنا التأْريـخ شرحاً مفصَّـلاً عنها ، ممَّـا دعاه لنهْيه المُؤقَّت ذاك ، حيث رأى المصلحة فيه . . . « ؟ ! »

ونحن نُحاشِـيْ الخليفة : أنْ يُريد بهذا النهْيِ حرمةً ، أو نهْياً مؤبَّـداً ، وهو الذِيْ يجب أنْ يـرى ـ ككلِّ مسلمٍ ـ أنَّ حـلالَ محمَّدٍ حـلالٌ ، وحرامَـهُ حـرامٌ ، إلى يوم القيـامة ؛ وأنْ ليس لأحـدٍ ـ بعْـده ، صـلَّى الله عليـه وآلـه

---

(١) الموطأ ص ١٢ ج ٢ .

وسلَّم ـ حقٌّ فِيْ : تحليلٍ ، أو تحريمٍ ، أو تبديلٍ ، وتغييرٍ .

ولـو كـان هنـاك نَسْـخٌ أو نَهْيٌ ، لَمَا كـان ـ ثمَّـة ـ خِـلافٌ بـين أكـابـر الصَّحابة ، أو أنْ يُوجد قـائلٌ منهم بحلِّيتهـا ، فكيف والقائلون مِنْ أكـابر الصَّحـابة وفُقهـائها . . . ؟ ! بـل ومَنْ هُمْ أفْقَـهُ مِنَ القـائـل ، أوِ المحـرِّم لها . . . ؟ !

وفِيْ طليعتهم الإمام عليٌّ عليه السَّلام ـ وعمَرُ يعترف له بالفقاهة ، بمثل ما نقلناه قبْل خطواتٍ [1] ـ فكان عليه السَّلام يقول :

« لولا أنَّ عمر نهى عنِ المُتعة ، ما زنى إلَّا شـقِيٌّ ـ أو : شـفِـيٌّ ، ـ أيْ : قليلٌ » .

ومِنْ بينهمُ : ابنُ عبَّـاسٍ ، وجـابـرٌ ، وعبـدُ الله بنُ مسعـودٍ ، وعمران بن الحصين ، وغيرُهم ، بل حتَّى ابنـه عبد الله بن عمـر ، قَدْ كـان مِنَ القائلين بحلِّيتها ، حيث أجاب مَنْ سأله عنها ، بقوله :

[والله ما كُنَّا على عأْدِ رسـول الله صلَّى الله عـليـه وآلـه وسلَّم زانـين ، ولا مسافحين] ـ الخ [2] .

ومرَّةً أُخرى ، قال : هِيَ حلالٌ .

فقيل : إنَّ أباك نهى عنها .

---

(١) ص ٢٢٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد ـ ص ٩٥ : ٢ .

فقال :

[أرَأيْــتَ إنْ كــانَ أبِيْ نَهى عَـنْـهَــا ، وصَنَعَهَا رَسُوْلُ الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنَتْرُكُ السُّنَّـةَ ، ونَتَّبعُ قَوْلَ أبِيْ ! ؟] [1] .

والأحاديث القائلة بالنَّسْخ ، لا ترْجُع عـلى القائلة بـالحليَّة ، فِيْ حـالٍ مِنَ الأحـوال ، حتَّى ولو لم يستنـدِ المحلِّلونَ لصريحِ القـرآن ، إذ أنَّ جانب التَّرجيح ، هو لِصَالح المُحلِّلين ، ما دام النَّاسخون معترِفين بأصْل الحليَّـة ، ومدَّعين النَّسْخَ ـ وهذا ما يعرفه العلماءُ المختصُّون .

* * *

ولسنا نُريد مزيداً مِنَ البرهنة عليها ، أو توسعةَ البحث حـولها . فهـذا موضوعٌ كان له النَّصيب الوافر مِنْ عناية البحث والدِّراسة .

فَقَدْ كان مجـالاً للأخْـذ والرَّدِّ . . . ولا سيَّـما أنَّ بعض المفرِّقـين ، اتَّخذ منه : مِعْول هدْمٍ ، فِيْ صرْح الوحدة الإسلاميَّـة ، وحاول أنْ يجعـل منه ، نقطةَ ضعْفٍ ، لِيُركِّز منها طعناتِه المزعومة نحو الشِّيعة .

فكان لعلماء الشِّيعة ـ فِيْ جميع العصور ـ أشـدُّ العناية بهذا المـوضوع ، لتوضيح رأْيهمُ الصَّريح نحوها ، وإقامة الدَّليـل عليها ، هـادفين ردَّ السَّهْم لِنَحر الباغِيْ ، وإعادة الصَّفاء بين الإخوة .

---

(١) مسائلُ فقهيَّةٌ للسيِّد عبدالحسين شرف الدِّين ، ص ٦٦ ، عنِ التِّرمذي في صحيحه .

وقَدْ تناول هذا الموضوع تناوُلاً شاملاً ـ فِيْ هذا العصر ـ جماعة مِنْ علماء الشِّيعة ، الذين حَمَلُوْا لِواء الوَحْدة ، ودَعَوْا لِنَبْذ الطَّائفيَّة . نخصُّ بالذِّكر منهم :

الإمامَ أبو الحسن الخنيزِيَّ ، فِيْ كتابه : « الدَّعوة الإسلاميَّة إلى وحدة أهل السُّنَّة والإماميَّة » .

والإمامَ كاشفَ الغِطاء فِيْ « أصْل الشِّيعة وأُصولها » .

والإمامَ شرفَ الدِّين ، فِيْ عِدَّةٍ مِنْ مؤلَّفاته [1] .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الخلاف العلمِيَّ بين : الشِّيعة ، والسُّنَّة ، فِيْ المُتعة ، لا يخرج عن كونه مسألةً إجْتهد الفريقانِ فيها ، فكلٌّ عمل بما رأى الحقَّ .

وهُمْ مأْجورون ـ إنْ شاء الله ـ أصابُوْا ، أم أخطأ مَنْ بَذَلَ الوِسْعَ والطَّاقةَ ، وكان الخطأُ ـ عنده ـ غيرَ مقصودٍ .

وهو لا يُوجب شيئاً مِنْ : فِرقةٍ ، وبِعادٍ . ولا يُجيز لطائفةٍ : أنْ تحمل الأخرى على رأْيها ، قسْراً ، وتترك رأْيها ، فِيْ الموضوع ، دون احتكامٍ للبرهنة ، وتقديم الأدلَّة العلميَّة فِيْ الموضوع ، والرُّضوخِ لحكمها .

---

(١) ليس اقتصارنا على ذكر هؤلاء ، غمطاً لحقوق الآخرين ، لأنَّا لا نُريد تقصِّي كلَّ مَنْ كتب في الموضوع ـ وهناك مَنْ ألَّف في الموضوع كتاباً مستقلا ـ وإنَّما نكتفي بالإشارة للتَّدليل .

- ٧ -

نَسَبَ الأستاذ للشِّيعة : القولَ بتحريم الـزَّواج ، مِنِ امرأةٍ نصرانيَّـةٍ ، أو يهوديَّةٍ .

وهذا القول ـ على إطلاقـه ـ لا يصحُّ بـوجهٍ مِنَ الـوجوه ، لأنَّ للشِّيعـة ـ هنا ـ أقوالاً ثلاثةً :

فمنها : ما يُحرِّم الزَّواج الدَّائم بالكتابيَّة ، يُحلُّه مُتْعةً ، ومُلكَ يمينٍ .

ومنها : ما يُجيزه فِيْ الجميع .

ومنها : ما يمنعه فِيْ الجميع ، أيضاً[1] .

إلَّا أنَّ الأكثريَّة مِنْ علماء الشِّيعـة ، تميل للقـول الأوَّل . وعلى العكس القائلون بالرَّأيِ الثَّالث ، الذِيْ هو المنْع .

وممَّنْ يميل للقول الثانِيْ ، الذِيْ يُجيز الزَّواجَ ، بأنواعه ، مِنَ الكتابيَّـة : الإمامُ السيِّد أبو الحسن الأصفهانِيُّ ، حيث يقول فِيْ الموضوع :

[وقِيل بالجواز كذلك ، وهُوَ لا يخلو مِنْ قوَّةٍ][2] .

---

(١) اللَّمعة للشَّهيدين ص ٨٢ ج ٢ ، طبع إيران ١٣١٠ هـ ـ راجع ص ٢٢٨ ج ٥ ، مِنَ الطَّبعة المحقَّقة ، مِنْ منشورات جامعة النَّجف الدِّينيَّة ـ ووسيلة النَّجاة للسيِّد أبو الحسن ص ٣٣٤ ج ٢ ط ٧ .

(٢) وسيلة النَّجاة ـ المصدر السابق .

ـ وهذا يعنيْ قولَه بالجواز .

كما يميل إليه ـ أيضاً ـ الإمامُ السيِّد كاظم اليزدِيُّ ، حيث علَّق على قول العلاَّمة الحلِّي :

[لا يجوز للمسلم أنْ ينكح غيرَ الكتابيَّة إجْماعاً ؛ وفيها قولان . . .] [1] .

ـ بقوله :

[والأظْهَرُ : الجوازُ ، خصوصاً مُتْعَةً ، وإنْ كان الأحوطُ : التَّركَ ، سيَّما دواماً] [2] .

والمعروف ـ هنا ـ بأنَّ قوله : [والأظهر] ، يعنِيْ رأيَه فِيْ الموضوع .

أمَّا الاحتياط ـ بعْد أنْ سبقته الفتوى ـ فهو : احتياطٌ ، يُحمل على التَّنزيه فقط .

فرأْيُ السيَّدين : متساويان فِيْ النتيجة . . . وهما مِنْ مراجع الشِّيعة الكِبار فِيْ التقلد . وقَدْ كانت لهما ـ فِيْ حياتهما ـ المرجعيَّةُ العامَّةُ ـ تقريباً ـ فِيْ العالم الشِّعِي .

***

(١) التَّبصرة ص ٢٦١ ـ طبع بغداد ١٣٣٨ هـ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥ .

هذه ملاحظاتٌ ، حاولتُ ـ ما استطعتُ ـ اختصارَها ، تنويراً للقرَّاء ، قاصداً بها وجهَ الحقِّ ، وحده ـ والله مِنْ وراء القصد .

القطيف : { ٢٢/٨/١٣٧٩ هـ
٢٠/٢/١٩٦٠ م

مَعَ أخي في ديوانه

"النَّغَمَ الجريح"

قبل الدّيوان*

يميل البعض إلى أنْ يتجنَّب الحديث عن شخصٍ ـ سواءً أعن شخصيته ، أم عن أثرٍ مِنْ آثاره ـ إذا كانت ، ثمَّة ، بينهما رابطةٌ مِنْ نَسَبٍ . . . حتى لَيُسرف البعض منهم ، فيعدُّ هذا الحديث مِنَ الأنانيَّة المقوتة ، فهو لا يعدُّه ، سوى حديثٍ عَنِ الذَّات . . . !

وإنِّيْ لَعلى العكس مِنْ هذا الرأيِ تماماً . . .

فأيُّ مانعٍ يمنعنيْ ، وقَدْ رأيتُ مجال الحديث متَّسعاً ، عن أبيْ ، أو أخِيْ ـ مثلاً ـ أو عن أثرٍ مِنْ آثارهما : أنْ لا أُعبِّر عن رأْيِيْ هذا ، كما أُعبِّر عنه ، لو كان حول شخصٍ بعيدٍ ، لا يمتُّ لِيْ بواشجةٍ مِنْ : نسبٍ ، أو سببٍ ؟ !

أيْ : أنْ يكون هذا الرأْيُ ، مجرَّداً عن كلِّ أسباب العاطفة ، هادفاً لتوضيح الرأْيِ المجرَّد ، فيُسجِّل الحسنة التيْ يجدها ، وإلى جانبها الهنةُ ، إنْ وجدها . . . ! ويُجرِيْ المِبْضعَ فِيْ موضعه ، كما يُقدِّم باقاتِ الثناء ، متى استحقَّها . . . ؟ !

قلتُ : إنِّيْ على العكس مِنْ ذاك الرأْيِ ، فترجمتُ لأبِيْ ، وترجمتُ لابن عمِّيْ [1] ، دون أنْ ألْحَظ فِيْ الترجمتين عاطفةً مِنْ رحِمٍ ؛ بعْد أنْ لم أستجز

---

(١) في كتابينا المطبوعين : [ذكرى الإمام الخنيزيِّ] ، و [ذكرى الزَّعيم الخنيزيِّ] .
والأوَّل باكورة النِّتاج الأدبيِّ ، يأْتي على شكل كتابٍ .

لنفسِيَ القعودَ ، عن تعظيم إنسانٍ ، بهرتنيْ شخصيَّته ، وقدَّستُ سيرتَه ، حتَّى لو قُدِّر له أنْ يكون بعيداً عنِّيْ ، كلَّ البُعْد . . .

وهل مِنْ ذنبٍ له ، أو لِيْ : أنْ كان قريباً منِّيْ ، لِكَيْ أتقاعسَ عن تقديس الحقِّ ، وتمجيد الفضيلة . . . ؟ !

وليس يعنِيْ هذا : أنَّنِيْ مِمَّنْ شُدَّتْ عيونهم إلى الوراء ، مفتونين باجْترارِ الماضِيْ ، والتغنِّيْ به ، والاتِّكال عليه ، دون عملٍ جديدٍ ، أو تقديمِ ثَمَرٍ مفيدٍ . . .

بل إنِّيْ مِمَّنْ ينظر للحاضر ، نظرتَه العميقة ؛ بحيث تتعدَّى الحاضر إلى المستقبل ، ويربط بين ذلك الرَّبْطَ الوثيق ، ويشدُّ هذا بذاك لِتَتَمَاسَكَ القِيم ، ويصلُب البناءُ ، ويشمخ الصَّرح .

وبعبارةٍ أُخرى : لستُ مِمَّنْ يرى فِيْ المجد العظامِيِّ وحده ، فضلاً ، يُكوِّن شخصيَّة إنسانٍ ، لم تمتدَّ يده بلبنةٍ ، فِيْ بناء هذا المجد ، أو تجديدِ بنائِهِ ، فكان خلواً مِنَ المجد العصامِيِّ ؛ لأنَّ ذلك المجد لنْ يُجديه نفْعاً ، إنْ كان هو ذاته قاحلاً مِنَ الفضيلة ، مهما كان ميراثُه مِنْ مجده الماضِيْ .

وخيرٌ منه ـ إنْ جاز التَّفاضل ـ مَنْ بنى مجده بيديه ، وإنْ لم يكن له ماضٍ مِنَ المجد ، فكان مبتور الجُذور . . . وكوَّن نفسه ، غير معتمدٍ على ماضٍ ، ليس له فيه تراثٌ .

نَعَمْ ! خيرٌ منهما مَنْ يرث الماضِيَ الحافلَ ، فيُضيف إليه الجديدَ النَّافعَ ، فيُتمِّمُ البعضُ الآخرَ ، لِيَبْتَنِيَ المجد على وطيد الأسُس ، ومكين الدِّعامات ؛ فيكون كما قال أحدهم :

لِسَـنـا ، وَإِنْ أَحْسَـابُنَـا كَـرُمَـتْ
يَـوْمـاً عَـلَى الأَحْـسَـابِ نَـتَّـكِـلُ
نَـبْـنِي كَـمَا كَـانَـتْ أَوَائِـلُنَـا
تَـبْـنِيْ ، وَنَـفْـعَـلُ مِـثْـلَ مَـا فَـعَـلُوْا

وحبَّذا إنِ اسْتطاع أنْ يفعل الأكثر والأحْسن ممَّا فعلوه . . . ! فالحياة تتطلَّب المزيد ! .

* * *

قدَّمتُ هذه المقدِّمة ـ وقدْ كنتُ أريد أنْ أُشير إليها ، قبْل الآن ـ لأنِّيْ أُريد الحديثَ عن أخِيَ الشَّاعر محمَّد سعيد ، أو بالأصحِّ : عن ديوان أخِيَ « النَّغَم الجريح » ، الذِيْ ربطتنِيْ به ذِكرياتٌ عزيزةٌ جميلةٌ . . .

فَقَدْ رافقتُه ـ فِيْ المطبعة ـ وهو يأخذ طريقَه لِيَنطلق مِنْ محبسه ، الذِيْ تسمَّر فيه ، فِيْ أحد رُفوف مكتبتنا ، يُناجِيْ شاعرَه ، مع أخوينِ له ، لا يزالان ينتظران اللِّحاق به ، لِيَكسرا قمقمهما المحصورين فيه ، ونرجو أنْ لا يطول ذلك كثيراً . . . (١)

. . . وإنْ كانت قصائدُ كثيرةٌ مِنْ هذه الإخوة الثَّلاثة ـ زادهما الله إخوةً أُخَرَ ، على الرَّغمِ مِنْ دعوات تحديد النَّسل ، التِيْ لا تشمل الأبناء الرُّوحيِّين ـ وإنْ كانت قصائدُ كثيرةٌ ، قَدْ طلعتْ فِيْ بعض الصُّحف العربيَّة الكبرى .

---

(١) لقد خرج أحدهما ـ بعد قرابة خمسة عشر عاماً ، مِنْ كتابة هذا البحث ـ حيث طُبع ديوانه : « شيءٌ اسمه الحب » ـ منشورات « مكتبة الأنجلو المصريَّة » ، بالقاهرة .
وشاء الله ـ أيضاً ـ أنْ أُرافقه في المطبعة ؛ ولعلّ لِي حديثاً عنه ـ إنْ شاء الله .

مَعَ الدّيوان[٧]

« النَّغم الجـريـح » : دِيـوانٌ يضمُّ ـ بـين دفَّتيـه ـ أربعـاً وعشرين قصيدةً [١] ، يسم أكثرَهـا ما يعنيـه هذا العنـوان الدِّرامِيُّ « الحـزين » [٢] ، وإنْ كانت بعض هذه القصائد ، قَدْ تمرَّدت على هذا العنوان ، وحملتْ روحاً مرحةً ، متفتِّحةً متفائلةً ، غيرَ برمةٍ بالحياة ، ودون أنْ تنطبع بالألم . . .

حَمَلْتُ هذا الدِّيـوان ـ فِيْ رحلتِيَ المتعة ، لتقـديمه للطَّبـع ـ وهو يحمـل اسْم « الأغاريد » .

وقَـدْ كنتُ أراه : عنوانـاً بعيداً عـمَّا يضمُّه الـدِّيوان ؛ إذ لا ينـطبق هذا العنوان ، إلَّا على جزءٍ يسيرٍ جدّاً مِنْ قصائدة . . .

أمَّا البقيَّة فعـلى خلافٍ كبـيرٍ ، بينها وبـين الأغاريـد ، التِيْ يُعْرَف منهـا المرح والطَّرب ، لا البكاءُ والبَرَم . . .

وقلتُ : فليكنِ هذا العنوان سبيلاً لتوجيـه أوَّلِ نقْدٍ للشَّـاعر ، فِيْ أوَّل

(١) ١٤٤ صفحةً مِنَ القطع الصَّغير ، منشورات [دار مكتبة الحياة ـ بيروت] .

(٢) الدِّراما ، تعني : الرِّواية ، يندمج فيها المشهد المحزن بالمضحك . . .

ولنا أنْ نُعبِّر به ـ هنا ـ عن هذا الدِّيوان ـ ولو تجوُّزاً ـ لأنَّ الدِّيوان يغلب عليه الطَّابع الباكي الحزين ، مع شيء مِنَ الطَّابع الضَّاحك ، بعض الأحيان . . .

ثم إن قصَّة (المعبود الثاني) ، تحمل هذه المأساة ، التي ينطبق عليها هذا التَّعبير .

ويجوز أنْ نُعبِّر عنه ـ ولعلّه أصدق ـ بالتَّراجيديا .

أثرٍ يطلع به على العالَم . . . وهو الذِيْ يفتح صدرَه واسعاً ، للنَّقد النَّزيه .

ولن يقوى على ردِّ هـذا المأْخـذ عليه . . . فـالعنوانُ يجب أنْ يـرمز لِمَا تحته . . .

وحَمَلَ لِيَ البريـد ـ فِيْ لبنان الجميـل ـ إحدى رسـائله ، وهِيَ تُشـير إلى الاسم الجديد للدِّيوان .

فهو : « النَّغم الجريح » ؛ وليس بـ « الأغاريد » .

فهو ثمرةٌ مِنْ ثمار الألم الدَّفين ، وقِطافٌ مِنْ نتاجه الخصب المبدع .

وهكـذا لا يفتح القـارىءُ هذا الـدِّيـوان ، حتَّى يقف عـلى طـائفـةٍ مِنَ النَّغَم ، الذِيْ يحمل فِيْ كلِّ نوتةٍ مِنْ مُوسيقـاه ، ما تنـطق بالألم ؛ وتُشـير إلى الجرح ، ينزُّ بالألَمِ الطَّافح .

***

قصيـدة الـدِّيـوان الأوْلى ، هي : « الغَـدُ البـاكي » . وقَـدْ سبق لِيَ الحديث عن هذه القصيدة ، وأنا فِيْ معـرض الحديث عنِ الألَم ونتـاجه [1] ، فعددتُها مِنْ نتاج الألم المبدع .

يُصوِّر الشَّاعـر ـ فِيْ هذه القصيـدة ـ غدَه البـاكِيْ ؛ إذ ينظر إليـه ، مِنْ حاضره الباكِيْ ـ أيضاً ـ فلا يـرى فيه سـوى صورةٍ لحـاضره ؛ إذ لا جديـد تحت الشَّمس ـ كما يقولون .

---

(١) مجلَّة صوت البحرين ج ١٢ مِنْ عامها الثَّالث ـ ذو الحجَّة ١٣٧٢ هـ .

وقد مرَّتِ الإشارة إليها ـ في هذا الكتاب ـ ضمن الموضوع ، المعنون بـ [أثر الألم في الفكر] ـ ص ١٤٩ .

فما غدُه سـوى روضةٍ ذاويـةٍ انْقطع معـينُ الحياة عنهـا ، وصمتتْ تلك الجـداول التيْ تملأُ جنبـاتها بشـدْوهـا الجميـل ، وحيـاتهـا الخِصبـة ، مثـل ما يعصف الخريف العتيُّ ، حـين ما تمتـدُّ كفُّه الخشنـة القاسيـة ، فتتقصَّف الأفنان الزَّاهية ، بورودها المتَّفتِّحة ، وثمارها اليانعة ، وجمالها المشرق ! :

أرَى مِـنْ زَوَايَـا حَـيَـاتِيْ « غَـدِيْ »
فَـأُبْـصِـرُهُ رَوْضَـةً ذَاوِيَـةْ
تَـوَقَّـفَ عَـنْهَـا مَـعِـينُ الْحَـيَـا
ةِ . . . وَغَـارَتْ جَدَاوِلُهَـا الشَّـادِيَـةْ
وَمَـدَّ الْخَـرِيـفُ بِهَـا كَـفَّـهُ . . .
فَـقَـصَّـفَ أَفْـنَـانَهَا الـزَّاهِـيَـةْ

ولَقَـدْ رأى غـدَه مِنْ كُـوَى ذلـك الحـاضر المؤلم ، فـماذا كـان آخرُ ما رأى . . . ؟ !

أرَاكَ « غَـدِيْ » مِنْ كُـوَى حَـاضِـرِيْ
فَـأُبْصِرُ أَشْبَـاحَـكَ الـرَّاعِـدَةْ . . .

. . . حيث كـان يُحسُّ الفـراغ العميق ، ولا تلمس كفُّـه ، سـوى « الدُّنَى » الباردة . . .

لا يا أخي ! .

لِمَ هـذا اليـأس كلُّه . . . وأنتَ فِيْ : الشَّبـاب القـويِّ ، والمستقبـل المشرق . . . ؟ !

فَلْتَقَعْ يدكَ على الحياة ، التيْ تتمـرَّد على المـوت ، فَتَدْفَـأُ تلك « الدُّنى » بالحياة الجديدة ، والشَّباب الثَّائر ، وتملأ هذا الفراغ ، بمـا يبقى ، ويُثمر ،

ويُعطِيْ ، لِتَهْرُبَ مِنْ أمامك تلك الأشباحُ وهي ترعَد خوفاً وفرَقا .

نَـظَمَ أخِيْ قصيدتَـه هـذه عـام ١٣٧١ هـ ، ونحن فِيْ عـام ٨١ هـ [١] ـ بعد عشرةٍ مِنَ الأعوام على نظمه لها .

ولا شكَّ أنَّ نظرته لغده ـ الآن ـ غـيرها ، قبْـل هذه الأعـوام ، إنْ كان لا يزال ينظر غدَه مِنْ كُوى حاضره ، فإنَّه لَغَدُ باسمٌ ، وأمَلٌ متفائلٌ مـطمئنٌ ـ إنْ شاء الله .

* * *

وثـانيةُ قصـائد الـدِّيوان ، تحمـل روحاً متسـائلةً مستفسرةً ، تُـريد أنْ تعرف هذا اللُّغَزَ المستعصِـيْ المسمَّى بالنَّفس .

فما هِيَ ؟ ، وما كُنْهُهَا ؟ .

أهِيَ المَلاك الطَّهور ؟ ، أم الشَّيطانُ القاهر الشَّقِيُّ ؟ .

وما هذه الأطوار التِيْ تمرُّ بها ، وتجتازها فِيْ : إصباحها ، وإمسائها ؟ .

وما هذا التَّناقض ، الذِيْ تحياه ؟ .

فَهِيَ ضحوكةٌ فِيْ دامس الـظَّلام ، مثل صبـحٍ مشرقٍ طـروبٍ ، وهِيَ عـلى العكس مِنْ ذلك ، يعلوهـا الحزنُ المميت ، فِيْ صبـحٍ جميلٍ مزهرٍ ، حتَّى أنها لَتُشْبِه اللَّيل ، قَدْ تغشَّى بدُجنَّته الكافرة :

مَنْ أَنْتِ ـ يَـا نَفْسِـيْ ! ـ مَـلاَكٌ طَـاهِـرٌ
أَمْ أَنْـتِ شَـيْـطَانٌ شَـقِـيٌّ قَــاهِــرٌ ؟ !

---

(١) أي : عام كتابة هذا الموضوع .

إِنِّيْ أَرَاكِ مَعَ الظَّلَامِ ضَحُوكَةً . . .

فَكَأَنَّكِ الصُّبْحُ الطَّرُوْبُ الزَّاهِرُ

وَأَرَاكِ فِيْ الصُّبْحِ الْجَمِيلِ حَزِيْنَةً . . .

فَكَأَنَّكِ اللَّيْلُ الدَّجِيُّ الْكَافِرُ !

وهو ـ رغم الصُّوَر المتناقضة ، التِيْ يراها فيها ـ لا يستطيع أنْ يُوافينا برأيه الأخير حولها ، بل يضلُّ عنه ، فلا يقع منه على مخرجٍ ؛ بل لا يرى إلَّا الحيرة والضَّلال :

إِنِّيْ أَرَاكِ مِنَ التَّنَاقُضِ صُوْرَةً

حَارَ اللَّبِيبُ بِهَا ، وَضَلَّ الشَّاعِرُ !

ويعود ـ فِيْ قصيدة : « إلى نفسِيْ » للحديث عنِ النَّفس ، ذلك اللُّغز الخفِيُّ ، الذِيْ لم يهتدِ لحلِّه ، فِيْ تلك القصيدة .

وما زاد أنْ أخبرنا عنه ، فِيْ حدود تصويره النَّفسَ ، وتنقُّلاتها مِنْ طورٍ إلى طورٍ ، متأثِّراً ـ لحدٍّ كبيرٍ ـ بابْن سِينا ، فِيْ عينيته الشَّهيرة .

والفرقُ بين الشَّاعرين : الفرقُ بين الفيلسوف المتبحِّر ، وبين الشَّاعر ، الذِيْ يقنع بالرَّمز والإيماءة ، عمَّا يعمل فِيْ نفسه ، ويخطر على باله .

ويعود ـ مرَّةً ثالثةً ـ لهذا الحديث ، فِيْ قصيدته : (روحٌ وهيكلٌ) .

وقصائدهُ الثلاث ـ هذه ـ يقع تأْريخها فِيْ شهرٍ واحدٍ ، فلم تتأَخَّرِ الثَّانيةُ عنِ الأوْلى ، سوى خمسةِ أيَّامٍ ، لحقتها الثَّالثة ، بعْد أُسبوعٍ واحدٍ فقط .

ولا أظنُّ أنَّ نَظْمَ ثلاثِ قصائدَ ، فِيْ بحر أُسبوعين ، تكاد تتناول

موضوعاً واحداً ـ هو : الرُّوح ـ بمحض مصادفةٍ . . . بل لا بُدَّ أنَّ لها أثرَها النَّفسِيَّ البعيد ، الذِيْ دَفَعَهُ لهذا النَّظم المتتابع . . .

. . . وليس مجرَّد الفترة الخصبة ، هِيَ التِيْ دفعتْ به لذلك ؛ إذِ الإخصاب يدعوه للنَّظم ، دون تحديدٍ للموضوع . . . ولا ندرِيْ بالمؤثِّر المباشر لذلك . . .

* * *

أمَّا قصيدة « بين يدَيِ العاصفة » فَهِيَ : قصيدةٌ تُسجِّل حادثةً للشَّاعر ، وتُصوِّرها بإطارها الزَّاهِيْ الجميل ، كريشة فنَّانٍ ماهرٍ .

وما رِيشةُ الفنَّان بالتِيْ ترسم اللَّوحة ، وتُنضِّد الألوان ، إلَّا بعْد عرْض الفكرة ، بوضعها الفنِّيِّ ، حتَّى تختار أناملُ الفنَّان لمساتِ الرِّيشة ، وتنظيمَ الخطوط ، واخْتيارَ الألوان المناسبة . . .

يصف لنا الشَّاعِر فيها : كيف خَرَجَ فِيْ أُمسيةٍ بطَّنها الضَّباب ، فاحْتجبتِ الشَّمس خلْفه ، تُرسل الإشعاعة ، فلا تلبث مسرعةً فِيْ لَمْلَمَتِها ، وكأنَّها تفتح جفناً ، سرعان ما يخشى شيئاً ، فيُطبق أهدابَه . . .

خَرَجَ الشَّاعرُ للحقل ، فِيْ إحدى القرى ، فِيْ الرِّيف القطيفِيِّ ، مع أخيه أُستاذ الجيل : « الْخَطِّيِّ » .

وفِيْ تلك الجلسة الحلوة ، بين : الأزهار ، والريحان ؛ بين : النَّخيل ، وأشجار اللَّيمون ؛ والقهوةُ تطوف عليهما بأقداحها ، والحليب فِيْ أكوابه ؛ فإذا بصوت العاصف يُدوِّيْ ، يُرسل نُذره العجلى . . .

. . . فيرتاع الشَّاعر ، رغْم تطمين أخيه له ، وهما يعودان لمنزلهما ، فِيْ طريقٍ ، قَدِ امتلأ جانباه بالنَّخل الطِّوال ، الذِيْ يتلوَّى فِيْ قبضة العاصف ، تلوِّيَ الأملود اللَّدن . . .

وما نَظَرَ إليها على أنَّها نخلٌ ، بل ليست سوى أشباحٍ مرعبةٍ مِنَ الجنِّ ! ، كأنهُمُ الجنود الشِّداد ، قَدِ اصطفَّت على الجانبين :

أَيْـنَ نَمْضِـيْ ، وَالـنَّـخْــلُ أَشْـبَــاحُ جِنٍّ
قَــائِمَـاتٍ صَفَّــيْنِ ، مِثْـلَ الجُنُــودِ ؟ !

وفِيْ حالة اللَّاوعْيِ ـ سجَّل أخِيْ على نفسه هذا الاعتراف الصَّارخ ؛ فإنَّه خاف حتَّى الفزع ، ودبَّ الرُّعب فِيْ أحشائه ، فهزَّه . . .

سجَّل على نفسه اعترافَه هذا . . . ببراءةِ الطِّفل ، ونقاءِ زهرة الفجر ، وصفاءِ الدَّمع :

نَـحْنُ نَمْـشِـيْ وَالـرُّعْـبُ مِـلْءُ فُـؤَادِيْ
وَصَــدَاهُ يَــرُنُّ فِيْ أَحْـشَــائِـيْ . . . !

وهذه القصيدة ـ بالإضافة إلى ما حفلت به ، مِنْ وصفٍ دقيقٍ وشاملٍ ، فسجَّلت هذه الحادثة ، حتَّى كأنَّ القارِىء ، يمرُّ بها : طوراً ، فطوراً . . .

ـ تمتاز بروحٍ إنسانيَّةٍ ، حيث اسْتغلَّ الشَّاعر هذا الرُّعبَ ، الذِيْ ملأ منه الجوف ، وغبَّر أمامه الكون ، بما فَعَلَ وأثار . . .

. . . فلم ينسَ ـ فِيْ خوفه هذا ـ غنيّاً فاحشاً ، فِيْ غناه الجائر ؛ وفقيراً مبغيّاً عليه ، قَدْ قَبَعَ فِيْ زاويةٍ ، مِنْ كوخه المهدَّم ، ببالِيْ أسماله المرقَّعة . . .

. . . فراح يُناجِيْ هذا العاصف ، ويطلب منه إقامة ميـزان العدالـة ، لِيَنتقم مِنْ ذاك ، ويرحم هذا . . .

أنْ يقوى ويشتدَّ . . . لِيَبطش بذاك فِيْ صرحه العتِيِّ ، وقَدْ بُنِيَ مِنْ حقِّ ذاك البائس ، وهذا المعدَم ـ فـ :

« مَا مِنْ نِعْمَـةٍ مَـوْفُـوْرَةٍ ، إلاَّ وإلى جَانِبِهَا حَقٌّ مُضَيَّعٌ » .

ـ كما يقول الإمام عليٌّ ، عليه السَّلام .

. . . ويهـدأُ ويلين كـالنَّسمــة النَّـاعمــة ، إذا مـرَّ بكــوخ الفقــير المسكين . . . !

فما لهذا الكـوخ ، مِنْ قوَّةِ التَّمـرُّد ، فِيْ وجه الـزَّوبعة المجتـاحة ؛ ومـا الفقير ـ فِيْ جسمه المنهك ، وبطنه السَّاغب ، وأسماله الحائلة ـ بالـذِيْ يقوى على مواجهة هذا العاصِف المارِد :

أيُّهَــا الــعَــاصِـفُ الــعَـتِيُّ ! تَــرَفَّــقْ
بِنُفُــوْسٍ فِيْ الكُــوخِ مِضْــطَّرِبَــاتِ !
كُــنْ قَــوِيّــاً إذَا مَــرَرْتَ بِــقَصْرٍ ،
وعَــلى الـكُــوخِ مُــرَّ كــالنَّـسَمَــاتِ

---

(١) مِنَ الخير : أنْ أُشير إلى غلطةٍ مطبعيَّةٍ ، وقعت في هذا البيت ، حيث حمَّلنيَ الشَّاعر مسؤُوليَّة الغلطات ، التي وقعت فيه ، بصفتي مصحِّحاً للدِّيوان ، ومشرفاً على طبعة .

ولكن ما ذنبي أنْ صحَّحتْ ، وفات على المطبعة بعضها ؟ .

ففي الدِّيوان كلمة « اقضى » بدون ياءٍ . وهناك أخطاءٌ أُخرى ، لا تخفى على ذي إلمام بالشِّعر ، أوِ الأدب .

اعْصِفِيْ - يَـارِيَـاحُ ! - بِـالنَّفـر المُجـ
ـرِمِ وَاقْضِيْ عـلى نُفـوسٍ بُغَـاةِ ! [1]
طَهِّـرِيْ الأرْضَ - يَـارِيَـاحُ ! - وَدُكِّيْ
شَـامِخَـاتِ القُصُـورِ والـغُـرُفَـاتِ !
وَارْحَمِيْ بَـائِسـاً وطِـفْـلاً يَتِيْـماً . . .
مِـلْءُ عَيْنَيْهِـما جُـرَاحُ الحَيَـاةِ . . . !
لَـيْسَ هَـذَا الـغُـبَـارُ إلَّا ذُنُـوْبـاً
مِنْ خَـطَايَـا الإنْسَـانِ مُـقْتَبَسَـاتِ !

* * *

وهذه الرُّوح الرَّحيمة ، التِيْ تعطف على الفقير ، وتُواسيه ، نلمسها فِيْ كثيرٍ مِنْ شعره .

ومِنْ بينها قصيدةُ « الشِّتاء » ، التِيْ تزخر فيها هـذه الرُّوح الإنسـانيَّة ، تُضمِّد جُراح الفقير ، وتتأوَّه لحالته التَّعسة :

وَارَحْمَـتَـا لِـلْكُـوْخ لاَحَ كَـزَوْرَقٍ
فِيْ المَـاءِ طَافِيْ الشَّكْـلِ ، دُونَ قَرَارِ
بَـاتَ الْفَقِـيْرُ مُشَرَّداً عَنْ كُـوْخِـهِ
نَهْبـاً إلى الأنْـوَاءِ وَالأخْـطَارِ

ومـا دمنا قَـدْ أشرنا للشِّتـاء ، فإنَّنـا نُشير إلى أنَّ الشـاعر ، قَـدْ نَـظَمَ فِيْ فصول السَّنة - عـدا فصل الصِّيف - فله فِيْ : الخريف ، والرَّبيـع - أيضاً - وقَدْ حفلت بوصفٍ جميلٍ لكلِّ فصلٍ منها .

ولكن لِمَاذا لم ينظم فِيْ فصل الصَّيف المِعْطاء ؟ .

ألأنَّ الحرارة اللاَّهبة ، والرُّطوبة المرتفعة ، تأْبيان عليه ذلك . . . ؟

ويروقنيْ ـ مِنَ « الشِّتاء » ـ وصفُه للثُّلوج ، قَدْ جلَّلتْ قِممَ الجبال ، حتَّى كأنَّه رأى ذلك ، وهو فِيْ الطريق بين : سوريا ، ولبنان ؛ أوعلى قمَّة جبَل الأرز ، وقَدْ تجلَّل ببياض الثَّلج .

ولكنَّ الشاعر ينظر لذلك بخياله ، إنْ فاته النَّظر إليها فِيْ واقعه .

وقَدْ ردَّدتُ هذه الأبياتَ ، إذ لاحتْ لِيْ هذه الجبال ، فِيْ هذا المنظر الذِيْ سجَّله الشَّاعر :

أضْفَى عَلى قِمَمَ الْجِبَالِ ثُلُوْجَهُ
فإذَا الْجِبَالُ تَلُوْحُ لِلأبْصَارِ . . .
. . . كَالشَّيْخِ جَلَّلَهُ الْمَشِيْبُ مَهَابَةً
وَجَلاَلَةً فِيْ أعْيُنِ النُّظَّارِ . . .
وَالْغَيْثُ كالشَّلاَّلِ يَهمِيْ صَاخِباً
مِنْ ذِرْوَةِ الأجْبَالِ كَالتَّيَّارِ !

***

وتطلُّ علينا ظِلالٌ مِنْ روح الشَّاعر المهجرِيِّ الكبير أبِيْ ماضِيْ ، فِيْ قصيدة « إليها » . . . ففيها شيْءٌ مِنْ روحه المتفلسفة ، فِيْ « ابْنة الفجر » .

فشاعرنا مِنْ مقدِّرِيْ هذا الشَّاعر ، والمُعجبين به ، حيث قرأه منذ نعومة أظفاره ، فِيْ حياته الشعريَّة ـ ولهذا الأثرُ الكبير .

فلا بِدْعَ أنْ يلتقِيَ معه فِيْ هذه الرُّوح ، أو تطلَّ ظِلالٌ مِنْ ذاك

الشَّاعر ، على فكرةٍ عند هذا . . . بـل مِنَ المحتَّم : أنْ نشهد شيئـاً مِنْ هذه الظِّلال .

والتجاوبُ فِيْ الفكر ، أوِ الرأْيِ ، لا مشاحة فيه ؛ بل لا بُدَّ منـه . . . ما دام فِيْ حدود التجاوب فقط ، دون أنْ يكون ، ثمَّة ، سطْوٌ ، أو سرقـاتٌ شعريَّةٌ .

وعلى كلٍّ فَقَدْ وُفِّق الشَّاعر ، فِيْ هذه القصيدة ، كثيراً . وهِيَ مِنْ جميل شعر الدِّيوان ، بأُسلوبها الحلو ، وفكرتها المتناسقة .

وجميـلٌ جدّاً مِنْ بينهـا هذا البيت ، بخفَّـةِ ظلِّه ، وسلاستِـهِ الشِّعـريَّـة العذْبة . ولعلَّ لكلمة « غَالِطِيْ » أثرَها البعيد ، فِيْ قيمة هذا البيت :

غـالِطِيْ النَّفْسَ ، ثُمَّ قُـوْلِيْ « إلَيْهَـا » :
هُــوَ حَـيٌّ يَـرْعَى الـنُّـجُـوْمَ الـدَّوَانِيْ

ونحن نشهد شيئاً مِنْ هذه الظِّلال ، فِيْ قصيدة « إذا . . . » ، رغم أنَّ الفكرة فِيْ (إذا) شاعرنا ، تختلف عنها عند أبِيْ ماضِـيْ ، فِيْ « إذا » . . .

وهذه القصيدة ـ أيضاً ـ تشعُّ فيها روحٌ متفائلةٌ ، رغْمَ ما بها مِنْ حـزينِ الصُّوَر ـ ولعلَّها ممَّا تنطبق عليه كلمة « دِراما » ، فِيْ معناها المحدود .

كما أنَّ قصيدة « سَرَاب » ، تشعُّ فيها هذه الرُّوح ، المتفائلة الباسمـة ، وهِيَ ـ أيضاً ـ ذاتُ ظِلالٍ مِنْ أبِيْ ماضِـيْ :

لاَ يَـغُـرَّنْـكَ مَـعْشَرٌ قَـدَّسُـوْا « الـبُـ
ـوْمَ » وَقَـالُـوْا فِـيْـهِ : هِـزَارُ السَّـماءِ

نَـفَـخُـوْا فِـيْـهِ كَـيْ يَـطِيْرَ ، وَلَـكِـنْ
هَـاضَ جُنْحَيْـهِ عَـاصِفُ الخُيَـلاَءِ
رَفَـعُـوْهُ ـ جَهْـلاً ـ عَـلى قِمَمِ الـزَّيْـ
ـفِ مِثَـالاً ، مُمَـوَّهَ الكِبْـرِيَـاءِ . . .
إنَّمَـا هَـذِهِ الأمَـادِيْـحُ كَـالأصْـ
ـبَاغِ ، تُمْحَى بِالرِّيْحِ ، دُوْنَ « ذَكَاءٍ » !

***

ولا بُـدَّ مِنْ إشـارةٍ إلى أكـبر قصيـدةٍ فِيْ الـدِّيـوان ، وهِيَ : « المعبـود الثانِيْ » ، التِيْ تُعالج مشكلةً كُبرى ، تكاد تعمُّ المجتمعَ الشرقِيَّ ، بعُقَدها المستعصية . . .

. . . إذ لا يـزال الـقسـم الأكـبر ، مِـنْ هـذا الجـنس ، المـسمَّى بـ « الإنسان » ، يعبُد المادَّة ، ولا عبادةَ الوثنِيِّ صنَمه النَّحيتَ ، حَتَّى يتخلَّى هذا الإنسان عن إنسانيَّته ـ وبها ميزتُـه ، التِيْ ترفعـه عن مصافِّ الحيـوان ـ فيسقط إلى أحطِّ منحدرٍ مِنَ السَّفالة . . .

فـما بعْـد مـوتِ الضَّمـير ، وتبلُّد الحسِّ ، مِنْ خـيرٍ يُـرجى ، أو يقـظةٍ تُؤمَّل ! .

وقَدْ عالَجَ الشَّاعر هذه المشكلة ، فِيْ أُسلوبٍ قصصِيٍّ جميـلٍ ، يُرغِّب القارِىءَ فِيْ متابعة أحداث القِصَّة ، التِيْ تتلخَّص فِيْ :

أنَّ شـابَّيْنِ قَـدْ أحبَّ أحدُهمـا الآخرَ ، منـذُ التقتْ نـظراتهـما فِيْ حفـلٍ

بهيجٍ ؛ فنما هذا الحبُّ بنموِّهما ، وتطوَّر بأطوار حياتيهما . . . وذكراً وأُنْثى خَلَقَهُمْ . . .

فلا بُدَّ أنْ يحنَّ كلُّ جزءٍ لجزئه الآخر ، فتعاقدا على الزَّواج : الشابِّ الشَّاعر الفقير ، والفتاة الكَعَاب اللَّعوب ، بعْد أنْ أثمر هذا الحبُّ وأورق :

أَوْرَقَ الْحُبُّ - فِيْ فَمِ الشَّاعِرِ - لَحْ
ـنـاً وَجَـنَّـةً مِـنْ عَـبَـاهِـرْ . . .

وفِيْ ما هما فِيْ أمَل الحياة يعيشان ، ومِنْ حلاوة المستقبل الحالم ، ينسجان برودَ الحياة موشَّاةً بالحبِّ - وهو روح الحياة - وإذا بالخبر المفاجِىءِ تُلقِيْ به الفتاة فِيْ أُذُن الشَّاعر . . . فَقَدْ تقدَّم لخطبتها شيخٌ مهدَّم القوى ، جهولٌ وفقيرٌ ، إلاَّ مِنَ المال « المعبود الثانِيْ » . . .

وقَدْ نُؤاخذ الشَّاعر فِيْ هذا المشهد ، حيث لم يكن متسلسلاً ، كما يجب ، بل نُحسُّ بهوَّةٍ ، تفصل بين مشهد هذا الخبر المؤْلم على قلبيهما ، فلا يتَّصل بذلك المشهد الحلو ، الموشَّح بالتَّمتمات السَّكرى ، والحديث النَّاعم :

تَمْتَمَاتٌ مِنَ الشِّفَاهِ النَّشَاوَى
وَحَدِيثٌ يَسِيْلُ كَالسَّلْسَبِيْلِ
فَإِذَا بِالْفَتَاةِ تَهْمِسُ فِيْ أُذْنَيْ فَتَـ
ـاهَا حَدِيْثَ خَطْبٍ مَهُوْلِ . . . ! :
إنَّ فِيْ ذَا الصَّبَاحِ وَالِدِيَ الشَّيْـ
ـخَ رَمَى بِيْ فَرِيْسَةً لِجَهُوْلِ !

. . . إذ لا شكَّ أنَّ فِيْ هذا اللِّقاء ، كانتِ الفتاة على علمٍ بهذا الخبر الفاجِع . . .

. . . ولا بُدَّ أنَّها كانتْ تنوءُ بحمْله إلى فتى أحلامها ، وتأْمل أنْ يُخفِّف عنها ثِقْلَ الوطْأة ، ويُشاركها فِيْ حمْل الألَم ، فلا تمتمات فِيْ هذا اللِّقاء ، بل شهقاتٌ ودموعٌ غزارٌ ؛ ولا حديثَ كالمعتاد ، فِيْ : سلاسته ، وعذوبته ، بتبادل كلمات الحبِّ والشَّوق ؛ بل حديثٌ كاسفٌ ، ولقاءٌ فاجعٌ ، فلا مهلةَ ، ولا تأْخيرَ . . . !

كما أنَّ شاعرنا لم يصِفْ لنا أثَرَ هذا الخبر الكاسف ، وموقعَه مِنْ نفس الشَّاعر الولهان ، ولم يُشرْ لِشيْءٍ مِنْ ذلك ، رغْم أهميَّة هذا المشهد ، كما هو منتظرٌ ومأْمولٌ . . .

بلِ اكتفى الشَّاعر بوصْف ما يمتلكه الشيخُ الثَّرِيُّ المحطَّم ، مِنْ : ثروةٍ عظيمةٍ ، وجاهٍ كبيرٍ ، ونُضارٍ وافرٍ ، ونخيلٍ جمَّةٍ ، وقصورٍ تكفل النَّعيمَ ، والعيشَ الأنيق . . .

ولكنه يُشير إلى أنَّ الفتاة ، دفَعت بحبيبها الشَّاعر ، إلى أنْ يتقدَّم لخطبتها مِنْ والدها ، الذِيْ يقف مِنْ شِعْره ساخراً ، فيسأله عمَّا يمتلكه مِنَ « المعبود الثانِيْ » ؟ .

فما هِيَ حقوله ؟ ، وأيَّ قصْرٍ بناه ، يزحَم النَّجم البعيد ، تحوطه الإماءُ والعبيد ؟ .

فإنْ تكن ثروتُه الشِّعرَ ، فهو صعلوكٌ حقيرٌ ؛ إذ ليس هذا بالزَّاد الذِيْ يُؤْكل ، أوِ الماء الذِيْ يروِيْ غلَّةً :

نَـحْنُ لا نَــأْكُــلُ الْـقَــرِيْضَ ، وَلانَشْـ
ـرَبُ مِنْ جَــدْوَلِ الْخَيَــالِ الـنَّــائِيْ !
إِنَّــنَــا نَــطْلُبُ الْـغَــنِيَّ وَنَـسْـعَــى
ـ مُـنْــذُ كُـنَّــا ـ إِلى ذَوِيْ الإِثْــرَاءِ !

وكذلك يُهمل الشَّاعر ذكْر ما انْتاب الفتاة ، عندما عاد حبيبُها خافقاً فِيْ مسعاه ، ويكتفِيْ بإلقاء الحبيب خبرَ فشلِه على حبيبته ، فِيْ صورةٍ تفقِد الحرارة والألَم الكاسف :

مَـيُّ ! قَــدْ عُــدْتُ وَآمَــالِيْ تَـلاشَتْ كَــالْهَبَــاءِ !
لَمْ أَكُــنْ ذَا الْمَــالِ وَالجَــاهِ ، فَــأُحْــظَى بِــاللِّقَــاءِ !

ثمَّ ـ بعْد مشاهدَ أُخرى ـ يتمُّ زفاف الفتاة إلى الشيخ المحطَّم ، الكبير الثَّروة ، فيتحطَّم أمَلُ شابَّين ، فِيْ حياة النَّعيم ، تحت ظِلال الحبِّ الوارف ، ضحيَّةً للمال المعبود ، مِنْ دونما جريمةٍ أو جنايةٍ :

رَبِّ ! مَــاذَا جَـنَيْـتُ فِيْ الـكَــوْنِ حَـتَّى
حَــطَّمَــتْ مِـشْــعَــلِيْ يَــدُ الأَقْـدَارِ ؟

وهذا بيتٌ ما أكثر مردِّديه ! .

فكثيرون هُمُ الذين تتحطَّم أحلامهم ، حين ما يُخفقون فِيْ حبٍّ طاغٍ ، عندما لا تتساوى كفَّتا الحبِّ بين الحبيبين ، فلا تتوازن العواطف ، ولا تُقابل المشاعر بمثلها . . . أو تتساوى ، فتحول بينهما عقباتٌ ، تتحطَّم عليها سعادة الحياة . . .

كما أنهم كثيرون مَنْ يُخفقون فِيْ ناحيةٍ ، مِنْ نواحِيْ الحياة ، فتتحطَّم

أحلامٌ وآمالٌ ، فيُنفِّس كلُّ واحدٍ عن ألمه ، وهو ينفث هذا البيت ، المعبِّر عمَّا يختلج فِيْ سرِّه . . .

وتنتهِيْ القِصَّة - كما هو المفروض - بنهايةٍ حزينةٍ .

فالعروس المحطَّمة القلب ، تذوِيْ كزهرةٍ صوَّحتها الهاجرة ، وتسقط ضحيَّةً رخيصةً ، فِيْ سبيل عبادة المال ، وهِيَ التِيْ عرفتْ هذا المصير ، منذ أُعدَّت إلى زفافٍ يتحوَّل إلى مأْتمٍ :

سَيَقُوْلُونَ فِيْ غَدٍ : مَلْكَةُ الحُسْـ
ـنِ تَوَلَّتْ ضَحِيَّةَ الدِّيْنَارِ !
أَتُرَاهَا ضَحِيَّةَ الْمَالِ وَالْجَاهِ
وَآمَالِ أَشْيَبٍ خَوَّارِ . . . ؟
رَامَ أَنْ يُدْرِكَ الأَمَانِيْ ، فَضَحَّى
بِعَرُوسٍ كَطَلْعَةِ الأَقْمَارِ !

وهكذا يتحوَّل حفْل الزِّفاف ، إلى مأْتمٍ تُشيِّع فيه الفتاة إلى مقرِّها الأخير :

احْشُدُوْا الْمَوْكِبَ الرَّهِيْبَ وَطُوْفُوْا
بِسَرِيْرٍ ضَمَّ الغَرَامَ العَاثِرْ !

لَقَدْ سقطتِ الزَّهرة النَّديانة :

هذِهِ زَهْرَةُ حُسْنٍ لَمْ تُمَتَّعْ بِالشَّبَابِ .

لعلَّ مَنْ يقول : إنَّ هذا موضوعٌ ، تناوله الكثير مِنَ الشُّعَراء والكُتَّاب ، ولكنَّ موضوعاً إنسانيّاً كهذا ، ومشكلةً اجتماعيَّةً كبرى ، تتكرَّر

فِيْ : كلِّ أُمَّةٍ ، وكُلِّ شعبٍ ، ليستْ بالأمر السَّهل ، التِيْ يُكتفى بأنْ يتناولها واحدٌ أوِ اثنان ، وضحاياها لا تُعدُّ كثرةً ولا تُحصى . . .

ونحن أحوج ما نكون لِيَتناول الأدبَاءُ هذه المشاكل ، لعلَّ العلاج يأْتِي بالشِّفاء العاجل ، وهو مَرضٌ مسْتعصٍ ، يحتاج إلى بذْل الجهد الكبير ، مِنَ الأطباء والنُّطُس الخلَّص . . .

ويُشرِّفُنِيْ أنْ أنضمَّ إلى قافلةِ مَنْ عَالَجَ هـذه المشكلة ؛ إذ وَضعْتُ قِصَّةً تتناول هذا الموضوع ـ أيضاً .

***

وفِيْ الـدِّيوان قِصَّةٌ أُخرى ، تختلف عن هـذه ، بـالنسبة للموضـوع والنِّهاية .

فَهِيَ قِصَّة حبيبين ، لم يعثرِ الحظُّ بهما ، بل حالفهما التَّوفيق ، فكان حبُّهما محلَّ رضى والـدَيِ الفتاة ، فمهَّدا لـ « ليلة العمر » ـ وهو عنوان القِصَّة . . .

. . . فكانت ليلةً حالمةً ، جسَّدتِ الحُلُم ، وحقَّقتِ الأمل ، إلى واقعٍ رهينٍ ، فجنى مِنْ ثمارها ما شاء ، مِنْ روضـةٍ بِكـرٍ ، وارْتشف مِنَ الرُّضاب ، الذِيْ لم تعتصره كفٌّ ، تُلوِّث منه النَّقاء الطَّهور :

دُوْنَـكَ الـرَّوْضَ فَـامْـلإِ الْكَفَّ مِنْـهُ
زَهَـرَاتٍ رَيَّـا الأدِيْـمِ عَـوَاطِـرْ . . .
وَارْتَـشِفْ مِـنْ فَـمِـيْ أَلَــذَّ مِـنَ الـشَّـهْـ
ـدِ : حُمَـيَّـا ، لَمْ يَجْنِهَـا كَـفُّ عَـاصِرْ

اسْـدُلِ السِّتْرَ بِـالصَّبَـاحِ عَـلَى جَنَّـ
ـةِ عِـرْسٍ ، كـأنَّهَا حُـلْمُ شَـاعِـرْ

وإنَّنا لَنَلمح ـ فِيْ هذه القصيدة ـ وجـه الشاعـر إبراهيم العُـرَيِّض ، فِيْ « ليلة الزِّفاف » ، يطلُّ واضحَ الملامح ، عريضَ الخطوط .

ولكن لابُـدَّ مِنَ الإشـارة إلى أنَّ هـذه القصيـدة ، تمتـاز بكـونها صـورةً حيَّـةً ، تُسجِّل ليلة الـزِّفاف ـ فِيْ القـطيف ـ بأوضـاعه الـوطنيَّة ، وعـاداتـه المألوفة ، وقَدْ وصفتِ العاداتِ وصْفاً دقيقاً شاملاً .

* * *

قلتُ : إنَّ الطابع الدِّرامِيَّ ـ أوِ التَّراجيـدِيَّ ـ هو الـظَّاهرة الملمـوسة فِيْ الدِّيوان ، وَقَدِ انطبعت به أكثرُ قصائده .

وقصيـدةُ « النَّغم المجـرَّح » مِنْ تلك القصـائـد ؛ حيث عَـرَضَ فيهـا للسَّبب الـذِيْ طَبَعَ شعـرَه بهذا الحـزن ، وأشار فيهـا إلى منْبَع الألم ، الـذِيْ شربَ فؤادُه كؤُوسَه المترعة ، حتَّى عاد حفنةً مِنْ رمادٍ ، يُغطِّيْ جَمْـرَ الشقاء ، وجحيمَ العـذاب ، وراح يصبُّ جامَ غضبِـه عـلى القضـاء ، الـذِيْ سَكَبَ اللَّيلَ بعينه :

اهْـدَإيْ فـالقَضَـاءُ قَـدْ سَكَبَ الـلَّيْـ
ـلَ بِـعَـيْـنِيْ ، فَـحَـالَ دُوْنَ مُـرامِـيْ
أنْبَتَ الْيَـأْسُ فِيْ طَـرِيقِيَ شَـوْكـاً . . .
إنَّ دَرْبِيْ جَـمُّ المـخَـاوِفِ دَامِـيْ
مَنْبَـعُ الـيَـأْسِ وَالشـقَـاءِ « عُيُـوْنِيْ »
فَـعُـيُـوْنِيْ مُـسْـتَـوْدَعُ الآلامِ !

ونحن لا نُريد أنْ نُحاسبه على كلمة « عيونِيْ » ، وإنْ لم نجد فِيْ بَنِيْ الإنسان أكثر مِنْ عينين .

وجميلٌ جدّاً هذه الصُّورة الباكية ، التِيْ تصف ، أساتَه ، بعْد تلك الأبيات مباشرةً :

هَـلْ أُطِيْقُ الْحَيَـاةَ ، وَالأمَـلُ الحُلْوُ
ذَبِيْـحُ عَـلى شِفَـاهِ الـشَّبَـابِ . . . !
. . . وَالْكِتَـابُ الْحَبِيْبُ عِنْـدَ فُـؤَادِيْ
مِثْلُ قَلْبِ الـظَّمْـآنِ عِنْدَ الشَّرَابِ ؟ !
كـلَّ مَـا رُمـتُ أَنْ أُرَوِّيْ فُـؤَادِيْ
عُـدْتُ مِنْـهُ بِحُـرْقَـةٍ والْـتِهَـابِ
مَـاتَ لَـوْنُ الحَيَـاةِ فِيْ جَفْـنِيَ الـظَّا
مِـيْ إلى مَنْـظَرِ الـرَّبِـيْـعِ الـسَّـابِيْ

ولكنَّ الشاعر خانه الأداءُ الفنيُّ ـ فِيْ البيت الثانِيْ ـ فأصبح قاصراً عن إعطاء المعنى ، الذِيْ حاول الشاعرُ تجسيدَه ؛ لأنَّ الشاعر يُريد :

أنَّ الكتاب قريبٌ منه ، ويُريد أنْ يقرأ سطورَه ؛ ولكنَّ عينه لا تُسعفه فِيْ ذلك ، رغْم شدَّة شوقِه وحاجتِه إليه ، فهو شبيهٌ بقلبِ الظامِىءِ الملتهبِ الحشا ، قَدْ وَقَفَ عند المعين الزُّلال ، دون أنْ يستطيع الارتشافَ منه ، لِيُطفىءَ تلك اللَّهبة الواقدة . . . !

وبعْد تلك الأبيات ، ينفتح بابٌ مِنَ العزاء ، وإشراقةٌ مِنَ الأمل الوضيْءِ ، فتشعُّ تلك الصُّورة القاتمة ، ببعضٍ مِنَ البصيص :

فَـعَــزَائِـيْ أَنَّ الــضِّـيَــاءَ بِــقَـلْبِــيْ
سَــرْمَـدِيُّ الإشْــعَــاعِ وَالإصْــبَـاحِ
وَعَــزَائِـــيْ أَنِّيْ شَـقَــقْـتُ عُــبَـابَ الْـ
ـبَحْـرِ ـ وَحْـدِيْ ـ فِيْ عَـاصِفِ الأتْـرَاحِ

ولكنَّها إشراقةٌ باهتةُ الضَّوء ، لا تقوى على فرْيِ الـظُّلمة ، فـلا تلبث أنْ تتلاشى ، لِيَعود القَتَام بصورته المريرة ، ويأْسه القتَّال :

مَنْبَــعُ اليَــأْسِ فِيْ حَيَــاتِيْ « عُـيُــوْنِيْ »
فَـعُيُــوْنِيْ يَـنْـبُــوْعُ يَـــأْسٍ عَـصِـيْــبِ

ويعود لعرْض هذه الصورة المؤْلمة فِيْ : (ضحيَّة القدر) .

فَهِيَ ملتهبةُ الألَم تُجسِّدُهـا مأْسـاته ، فِيْ : شقـائها ، ويـأْسها المـرير ؛ وتتصاعدُ منها الشَّكوى الحزينة ، وتُصوِّر الحيرة القاسية :

وَيْــلَ الْقَضَـاءِ ! فَــإِنَّــهُ . . . أَلْقَى عَــلَى عَيْنَيَّ سِـتْرَا
لا أَلْمَــحُ النَّجْمَ الْبَعِيــدَ ، وَلا أَرَى فِيْ اللَّيْــلِ فَجْــرَا

وفِيْ هذه القصيدة بيْتٌ قَدْ لا يعرف مناسبةَ التَّشبيـه فيه ، إلَّا مَنْ يعيش صيفاً ملتهبَ الحَرارة ، لا صيفـاً ربيعيّاً شتـويّاً ـ كصيف لبنـان ، فِيْ جبالـه الشمَّاء ، حيث يجمـع بـين : عـطاء الصيف المِخْصـاب ، وجمـال الـرَّبيـع المُخضوضِر ، وبُرودة الشّتاء بلذَّةٍ ، دون قارٍّ صِرِّه . . .

نَــامَ الــظَّلامُ بِمُــقْــلَتِيْ . . .
كَــالــصَّــيْــفِ فِيْ جَــفْــنِ الــزُّهُــوْرِ

دَبَّ الْـفَـنَـاءُ بِـرَوْضَـتِيْ
وَمَشَى عَـلَى الْـغُـصْـنِ الـنَّـضِـيْرِ
إنْ كَـانَ فِيْ عَـيْـنِيْ الـظَّـلاَ
مُ . . . فَفِيْ فُـؤَادِيْ نَبْـعُ نُـورِ . . . !

ونحن إنْ كنَّا نعرف بكاءه على ذاوِيْ أحلامه ، فإنَّنا لا نعرف كيف يبكِيْ على هذا الفراغ ، الذِيْ يُشيع الموت . . . وكيف يكون هذا البكاء ؟ :

لَـكِـنَّـمَا أَبْـكِـيْ عَـلَى حُـلُمٍ ذَوِي ، مِثْـلَ الْـوُرُوْدِ . . . !
أَبْـكِـيْ عَـلَى هَـذَا الْـفَـرَاغِ يَـشِـيْـعُ مَـوْتـاً فِيْ وُجُـوْدِيْ

ولا نُريد أنْ نتتبَّع كلَّ هذه الصُّور الباكية ، مادام هذا الديوانُ يحفل بالكثير منها ؛ إذ علينا ـ لو أردنا ذلك ـ أنْ نقف عند كلِّ قصيدةٍ ، عدا القليل .

* * *

ولابدَّ لنا أنْ نُشِير إلى شيْءٍ وَقَعَ فِيْ الصياغة ـ عدا ما عرضنا له فِيْ ثنايا البحث ـ وإنْ كانت غير ذاتِ تأْثيرٍ كبيرٍ ، على القيمة الشعريَّة .

ولكنَّا نودُّ لو تجنَّبها ، كقوله :

« وعَلَيْنَا أَغْصَانُهُ حَانِيَاتٌ » ـ ص ٢١ .

فنحن لا ندرِيْ على مَ يعود الضمير فِيْ هذه الأغصان ؟ . فقبْل هذا البيت :

وَمَدَدْنَا الْبِسَاطَ فَوْقَ الرَّيَاحِينِ ، وَبَيْنَ الْغُدْرَانِ وَالأَعْشَابِ

. . . وكلٌّ هذه ليس لها أغصانٌ ، تحنُو عليه .

فالرَّيحان والعِشْب ، لا يكاد يرتفع كلٌّ منهما أكثر مِنْ ذراعٍ ، حتَّى تمتدَّ لهما أغصانٌ تطوله ـ حتَّى ولو كان جالساً ـ فتحنُو عليه . . . ولاسيَّما وأنَّ البساط ـ كما يقول ـ قَدْ مُدَّ فوق الرَّياحين ، فكيف تحنُو منها الأغصان ـ لو كانت ـ وقَدْ قَصَّفَ البساطُ منها المستقيمَ . . .

كما أنَّه قَدْ أغاظ سيبويه ، حيث لم يجزِمْ « أُشاركُكِ » فِيْ قوله :

« مَثِّلِيْنِيْ حَيّاً أُشَارِكُكِ الْعَيْشَ » ـ ص ٣٣ .

وكان باستطاعته أنْ يُرضِيَ الخليل فِيْ فنِّيه ، لو قال :

« مَثِّلِيْنِيْ حَيّاً أُشَارِكْكِ فِيْ الْعَيْشِ » .

وقَدْ أَفْلَتَ ثانِيْ هذين البيتين ، مِنْ وزنه ، فلم يزِنْهُ الشاعر بذوقه الفنِّيِّ :

فَعَادَتْ لِعَيْنَيَّ أَطْيَافُهُ . . .
وَطَافَتْ عَلَى الْعَالَمِ الْحَاضِرِ
فَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ طَيْفاً كَئِيْباً
تَكَسَّرَ فِيْ جَفْنِيَ السَّاهِرِ

ـ ص ٨٤

وقبْل هذا بيتٌ نافر التَّشبيه .

فأيُّ مناسبةٍ بين أشباح اللَّيل ، ترفُّ على مقلته ، وبين رفيف النَّدى فِيْ الزهرة :

وَأَشْـبَـاحُ لَـيْـلٍ عَـلَى مُـقْـلَتِيْ
تَـرُفُّ رَفِيْفَ النَّـدَى فِيْ الـزَّهَـرْ . . . ؟

ولا نعرف المناسبة ، فِيْ تمثيل أحلام الجريح بالسَّراب :

إنَّمَـا ذِكْـرَيَـاتُ أَمْـسِيَ أَحْـلاَ
مَ جَـرِيْـحٍ تَـلُوْحُ مِـثْـلَ السَّرَابِ

- ص ٨٦

فبعد أنْ يجعل الذِّكريات أحلامَ جريحٍ ، فَهِيَ أحـلامٌ مفزعـةٌ مؤْلمةٌ ، لا تُبشِّر بـرجاءٍ ، كـما يُبشِّر السَّرابُ البهرجُ ، مَنْ كـان على وقِيْـد الظَّمَـإِ ، بالرِّيِّ المعيْن . . .

اللَّهُمَّ ! إلاَّ أنْ يُريد الشاعر ، بأحلام الجريح فِيْ الشِّفاء ! .

وقَدْ جاءت كلمـة « باحـترامٍ » فِيْ بيتٍ ، فوقعتْ عليـه ضيفاً ثقيـلاً ، لا تحمل الموسيقى الشِّعريَّة - فَهِيَ مِنْ إضبارة المعاملات .

ولعلَّ القافية اضَّطرتْه لذلك ، فِيْ قصيدته الفلسفيَّة (روحٌ وهيكلٌ) ؛ أو أنَّ روح القصيدة الفلسفيَّة ، تقبَّلت هذه الكلمة :

حَـدِّثِـيْـنِي ! فَـإِنَّـنِيْ أَتَـلَقَّـى
كُـلَّ مَـا تَنْـطُقِيْنَـهُ بِـ « احْـتِرَامٍ » !

وجاءت كلمة « الشَّكل » حشواً فِيْ هذا البيت - أيضاً :

وَارَحْمَـتَـا لِـلْكُـوخِ ! لاحَ كَـزَوْرَقٍ
فِيْ الْمَاءِ ، طَافِيْ الشَّكْـلِ ، دُوْنَ قَـرَارِ !

وحشوةٌ أُخرى جاءت فِيْ هذا البيت :

أفْلَتِّ مِنْ سِجْنِ الْجُسُوْمِ وَقَيْدِهَا
وَسَمَوْتِ بِالشِّعْرِ الذِيْ هُوَ طَائِرُ

وَهِيَ حشوةٌ ليست مِنَ « اللَّوزينج » ، الذِيْ يُعطِيْ الطعمَ اللَّذيذَ ؛ وإنَّمَا هِيَ حشوةٌ جمَّدت حركةَ البيت ، وقضتْ على جماله الشعرِيِّ .

وليس لنا أنْ نُطيل الحديث - أكثر مِنْ هذا - حول الدِّيوان ، بعْد أنْ وقفنا عند أكثر قصائده . فعلى القارِىءِ أنْ يستجلِيَ النَّواحِيَ الأخرى منه ، بذاته . . .

***

وخلاصة القول فيه : أَنَّ الدِّيوان تطبعه الرُّوح الدِّرامية ، بصورةٍ خاصَّةٍ فِيْ بعض القصائد ؛ ويكاد يتَّسم بـ « التَّراجيديا » فِيْ عمومه - عدا القليل .

وتلك تكاد تكون ظاهرةَ الشَّاعر فِيْ كلِّ ما نَظَمَ ، حتَّى غزله ، الذِيْ قَصرَ عليه ديواناً بكامله - مِنْ بين دواوينه الثلاثة - وسمَّاه « إلَيْها » . . . [1] .

ولعلَّ هذا راجعٌ إلى جانبٍ مِنْ حياته ، التِيْ يُحاول أنْ يُسجِّلها للنَّاس .

فعُقدة العُقَد - فِيْ نفس أخِيْ محمَّد سعيد - إصابتُه فِيْ عينه ، منذ نعومة أظفاره .

(١) عاد ، فأبدل عنوانه بـ « شيءٌ اسمه الحبُّ » ، وهو الذي أشرنا إلى أنَّه تمَّ طبعه ، في صدر هذا البحث ، ص ٢٤٧ .

فَهِيَ : منْبَع الألَم العميق ، والشكوى المرَّة ، ومصدر الشقاء ، والمِنظار الأسود ، الذِيْ يعكس الحياة ـ بمفاتنها ، ومُتَعِها ، وسحرها ، وكلٍّ ما فيها مِنْ ألوانِ النَّعيم واللَّذة ـ سوداءَ ، كاسفةَ اللَّون ، رمداءَ الطَّلعة ، كريهةَ الطَّعم ، مرَّةَ المذاق .

إنَّه ـ بسببها ـ لا يجد مِنْ نفسه القدرة ، على إشباع نَهَمِهِ الأدبِيِّ ، مِنَ القراءة والاطِّلاع ، بدون المساعدة ، فكان فِيْ حاجةٍ مستمرَّةٍ ، لمعونة إخوانِهِ وأخدانِهِ ، مِنْ هذه الناحية ، فهو فِيْ غنىً بهم . . .

ثمَّ إنَّه ـ بسببها ـ لم يكنْ ليقوم بأيِّ عملٍ ، سوى عمله الأدبِيِّ ، الذِيْ أنتج منه ، فِيْ تلك الفترة ، نِتاجاً ممتازاً ، كان للألم الفضلُ الأكبرُ ، فِيْ : تجويده ، وإخصابه . . .

فهذه العقدة ليستْ شرّاً محضاً . . . وإنّما هِيَ مزيجٌ مِنَ : الخير ، والشَّرِّ ؛ حيث كانت نبْعَ شعرِه الثَّرِّ ، ومثارَ الوحْيِ والإلهام عنده . . .

ولكنّه لَمَّا تغلَّب على هذه النُّقطة ، وَنَزَلَ لمعترك الحياة ، فشقَّ العُباب ، وخاضَ الغمار ، بقوَّةٍ ، ومِضاءٍ ، وتوفيقٍ ، كاد يُطلِّق الشعر ، لولا أنَّ إلـهة الشعر ، عطف عليه بين لحظةٍ وأُخرى ، وتحنُّ لعهده الماضِيْ ، فتُرسل إليه قبساً مِنْ وحيها . . .

ومِن آخر ما فِيْ هذا الدِّيوان قطعةُ « الجدب » ، التِيْ صوَّر فيها أعوامه السِّتَّة المجدبة ، مِنَ الإنتاج المعنوِيِّ . . . حيث شُغِل بالنِّتاج المادِّيِّ . . .

. . . وكأنَّه لا يعرف أنَّ مِنَ الممكن : أنْ يجمع بين : الرُّوح ، والمادَّة ، جمْعاً لا يُضير هذه ، ولا يقضِيْ على تلك .

وإنَّ له مِنْ مهنته (المحاماة) ، لَمَعيناً يُمِدُّه بـالْحَيِّ مِنَ المواضيـع ، حيث يعيش فِيْ قلب المـآسِـيْ والمشـاكـل ، وفِيْ كـلِّ يـوم ٍ يمـرُّ بـه الشيْءُ الكثـير منها . . .

فعلاجه لها ـ بروحٍ إنسانيَّةٍ ـ تكون عن معرفةٍ ودراسةٍ عميقتين . . .

فعسى أنْ يُوافينا بشيْءٍ مِنْ ذلك ، فِيْ القريب العاجل . . .

ونحن نُحَيِّيْ الشَّاعر ، ونرجو أنْ ينال الدِّيوان ما يستحقُّـه مِنْ إقبالٍ ، ليكون مشجِّعاً ودافعاً له ، فِيْ تقديم بقيَّة ثماره . . .

وعسى أنْ نلتقِيَ به فِيْ أحد الديوانين ، فِيْ وقتٍ قريبٍ ـ إنْ شاء الله .

القطيف : { ١٣٨١/٢/٢٣ هـ
١٩٦١/٨/٠٦ م

الشِّعرُ وَالحَيَاة

إذا كان أدب كلِّ أُمَّةٍ ، هو المِنظار ، الذِيْ يُنظر منه إلى مدى تقدُّم تلك الأمَّـة ـ أو تأخُّـرها ـ فِيْ مجـالات الحياة ، وميـزاناً نـزِن به قيَمهـا الحضاريَّـة والثقافيَّة والمعنويَّة ، وجميع القِيم الأخرى . . . لأنَّ الأدب يجب أنْ ينبـع مِنْ صميم الحياة ، ليستمدَّ منها الوجود ، ويكفل لها البقاءَ . . . فيكـون سجِلاًّ حـافلاً وأمينـاً ، يرسم الـواقـعَ للمجتمـع ، الـذِيْ انْبثق عنـه ، ويُسجِّـل الأحداث الّتِيْ مرَّ بها . . .

إذا كـان كـذلـك ـ ويجب أنْ يكـون ـ فـإنَّ فِيْ أدبنـا العـربِيِّ ، لـثروةً ضخمةً ، وتراثاً باقياً ، هو صـورةٌ رائعةٌ ، فِيْ وضـوح معالِمِهـا ، تدفق فيهـا الحيـاةُ الخِصبة ؛ حيث تعكس هـذه الصُّوَرُ الـواضحة ، مـا مرَّت بـه الأمَّة العـربيَّة ، مِنْ حضـارةٍ عريقـةٍ ، وتقدُّم كبـيرٍ ، حتَّى كـانتِ المنهـل الـثَّرَّ ، للأمَمِ الأخرى ، تقبِس منها ، وتستنير ممَّا تقبس .

وقَدْ كان للإسلام ـ فِيْ هذا المضمار ـ الفضـلُ الأكبر ، فَقَـدْ كان العنصرَ المبـاشر ، فِيْ نشرِ الثقافـة الصَّحيحة ، مبتنيـةً على مفـاهيمَ رفيعةٍ ، وأُسُسٍ قويَّةٍ ، بفضل مبادئه الخالدة ، التِيْ تُساير الزَّمَنَ ، بما فِيْ طاقتها الهائلة ، مِنْ عناصر الحياة ، المتجدِّدة ببقاءٍ مستمرٍّ . . .

وله ـ مِنَ النَّاحية الثقافيَّـة الخالصـة ـ الفضلُ الأكـبر ، أيضاً ، إذْ أمـدَّ اللُّغة العربيَّة ، بدَمِ الحياة الدَّافِق ، فحفظها مِنَ الضَّياع ، ورسم لها طريقَ البلاغة الفصحى .

فالقرآنُ الكريمُ ، هو العنصر لبقائها ، والحافظُ الأمينُ عليها ، والمدماكُ لتدعيمها .

وبهذا ضمنتِ اللُّغة العربيَّة لنفسها الخلودَ الدَّائم ، والبقاءَ المستمرَّ ، لأنَّ بقاءها ووجودها ، قَدْ رُبطا ببقاء القرآن ووجوده ؛ فَهِيَ باقيةٌ ما بَقِيَ ، وقَدْ شُدَّ وجودُها بوجوده ، وهما مضمونان له ، قَدْ كفلهما مُنزِلُ هذا القرآن العظيم ، ومشرِّفُ هذه الأمَّة به .

* * *

والأدَبُ ـ كما هو مفهومٌ ـ ينفرع لفرعين أساسيَّين : نثرٍ ، وشعرٍ . ولكلٍّ منهما خصائصُه ومميِّزاته ؛ ولكلٍّ منهما نواحيه التيْ يستطيع أنْ يُعالجها ، أو يُسجِّلها ، أو يُعبِّر عنها .

ولستُ أُريد أنْ أعرض لهذه الخصائص والمميِّزات ، أو تلك النواحِيْ والمواضيع ، أو أقوم بمقارنةٍ بينهما ، أو تحليلٍ لكلِّ ذلك .

وإنَّما أُريد أنْ أعرض لخصيصةٍ فِيْ الشِّعر ، لا تتوفَّر للنَّثر منها الأسبابُ .

ومع ذلك فَهِيَ ـ أيِ : الخصيصة ـ قَدْ تُوجد فيه ، ولكن على قلَّةٍ . . . لأنَّ للشِّعر موسيقاه وقافيتَه ووزْنَه ، وهِيَ أدواتُ تمنحه هذه الخصيصة .

فَفِيْ الشِّعر العربِيِّ أبياتٌ ، قَدْ تطول فتصل إلى مقاطعَ ؛ وقَدْ تقصر ، فلا تتجاوز صدْراً أو عجْزاً مِنْ بيتٍ ؛ ولكنَّها تُعبِّر عن ناحيةٍ مِنْ نواحِيْ الحياة تعبيراً دقيقاً ، فترى واحداً يُردِّد هذا البيتَ ، أو ذلك الجزء مِنَ

البيت ، لأنَّه يرسم حالةً يعيشها هو ، وواقعاً يحياه ، فِيْ حين أنَّ واحداً آخر يُردِّد بيتاً بعكسه ، لأنّه يُعبِّر عن حالته هو ، وهِيَ تُعاكس حالةَ ذاك الأوّل .

ويُـردِّد هذا وذاك مـا يُردِّد ، وقَـدْ لا يعرف ـ حتَّى وإنْ كـان أديبـاً ، أو مثقَّفاً ـ مَنْ قائلُ هذا البيت ؟ .

بل يُردِّده ، حتّى ذاك الأمِّيُّ الجاهل ، الذِيْ لا يعرف الحـروف المقوِّمـة لِاسْمِـهِ ، ولعلَّه يقـرأُه قـراءةً عليلةً ، يصرخ لشـاعـره ممَّـا أصـابـه ، مِنْ : رضوضٍ ، وكسورٍ ، بهذه القراءة الشَّوهاء .

ولكنَّه يُردِّده ، لأنَّه يُريد التَّعبير عن ألمٍ ضاقَ به ذرعـاً ، أو حالـةٍ نفسيَّةٍ كان معها فِيْ صراعٍ ، أو تجربةٍ حلوةٍ ، أو مـريرةٍ ، أو أيَّـةِ حالـةٍ مِنْ أحوال الحياة ، فِيْ : مرِّها ، وحلوِها ؛ خيرِها ، وشرِّها ؛ طيِّبِها ، وخبيثِها . . .

إنَّـه يُريـد أَنْ يُعبِّر عن شيْءٍ مِنْ هـذا ، فتضيق عليـه أدواتُ التعبـير ؛ ويُحاول النُّطقَ ـ ولو كان ذلـك الفصيح المِنـطيق ـ فيخونـه المنطِق ، وتخـذله البـلاغة ، فـيركن إلى هذا البيت أو ذاك ، ممَّـا حفِظ أو سمِع ، لِيُخفِّف عن حـالته النَّفسيَّـة ، هذه التِيْ يُعـانيها مِنْ جـديـدٍ ـ وهِيَ الـرَّغبـة فِيْ التَّعبـير ـ بالإضافة إلى ما كان قَدْ دَفَعَ به إلى هذه الرَّغبة ، مِنْ حالةٍ أوَّليَّةٍ .

وتقوم هذه الطَّائفة مِنْ شعرنا العربِيِّ ، لسدِّ هذه الحاجـة ، لأنَّها لمساتٌ مِنَ الحياة ، مِنْ صميمها ، مِنْ واقعها ، فِيْ جميع صُوره وأطواره .

هِيَ تعبـيرٌ دقيقٌ ، عن تجاريبَ ودروسٍ ، تتكـرَّر ، فتتكـرَّر الحـاجـة للتعبير عنها . . .

وقَـدْ كانت تلك الأبيـاتُ ، نفحةً مِنْ نفحـات الإلهام ، وإشعـاعةً مِنْ أشعَّة الوحْيِ ، فبقيتِ الحاجة إليها ، كلَّ ما مرَّت بـالإنسان مـا يشبهها مِنْ صُوَرٍ ، على شريط الحياة المكرور .

تمرُّ بالشَّاعر أحداثٌ ، ويُشاهد مثلها ، ويَسمـع بأضعـافها ـ والشَّـاعرُ مرهَفُ الحسِّ ، مشبوبُ الخيالِ ، دقيقُ الملاحظةِ ـ فتختزن هـذه الأحداثُ ـ أوِ الأصحُّ : صُورها ـ فِيْ مخيلته ، وتبقى هذه الخلجات حيَّةً فِيْ ذهنه . . .

. . . فتمتدُّ إليها يد إلـٰهةِ الشِّعر ، لِتَسكبها فِيْ بوتقةِ الفنِّ ، وتُقدِّم منها العصارةَ الحيَّة ـ وهِيَ الجوهر الـذِيْ لا تُذيبـه النار ، بعْـد أنْ تخلَّص مِنْ كلِّ ما يشين ـ تنبض بالحياة الدَّافئة . . . وما هِيَ إلَّا الحياة ذاتها ، بكلِّ مـا فيها فتبقى هـذه العصـارة ، الَّتِيْ هِيَ روحُ الحيـاة ، وقَـدْ تجـرَّدتْ مِنَ الشَّـوائب والطُّفيليَّات . . .

. . . تبقى مصـدراً وينبوعـاً ، ينتهل منـه هذا الكـائنُ الحَيُّ ـ المسمَّى بالإنسان ـ لِتُعبِّر له عن خلجـاته ، في كـلِّ حدَثٍ يمـرُّ به ، فِيْ : مـأْساتِـهِ ، وفرحِهِ ؛ فِيْ : ضحكِهِ ، وبكاهُ ؛ فِيْ : هدوئِهِ ، وصخبه ؛ فِيْ جميعِ أطـوار حياته .

***

ومِنْ بـين شعرائنـا القُدامي ، نجـد ـ ولعلَّنَا لا نُخـطىءُ الـواقـعَ ـ أنَّ نصيب شـاعرَيِ العـربيَّة الضَّخْمَـيْنْ : أبِيْ الطيِّب ، والشَّريف ، مِنْ هـذا التّراث الإنسانِيِّ ، ما لعلَّه يزيد على غيرهما . . .

. . . عـلى أنَّ الأوَّل منهما ، قَـدْ يزيـد نصيبه عـلى الآخر ، حتَّى جُمعتْ

هذه الأبياتُ مِنْ شعره ، ووُضعتْ فِيْ كتابٍ مستقلٍّ ، منذ القديم .

ولسنا ـ بهذا نُنكر أثر ما للرَّكائز الأخرى ـ من شعراء العربيَّة ـ كأبِيْ تمَّامٍ ، والبحترِيِّ ، وأبِيْ فِراسٍ ، والمعرِّيِّ ، وابن الرومِيِّ ، ومَنْ إليهم .

كما أنَّ هذا التراث لم يُسلِّمه لنا هذا العصرُ وحده ؛ بل هو يمتدُّ بامتداد اللُّغة العربيَّة ، ضارباً ، فِيْ جذور التأْريخ ، حتَّى العصور الجاهليَّة ، فِيْ ما حفِظ لنا منها هذا التأْريخ ، الذِيْ أضاع علينا مِنْ ثروتنا ما لا تُقدَّر خسارته . . .

ثم هو لا ينتهِيْ بانتهاء هؤُلاء ؛ بل هو ـ كما تضرب منه الجذور فِيْ سحيق الماضِيْ ـ فإنَّ أغصانه المتشعِّبة المشتبكة ، لتَتَجاوز الحاضر ، إلى المستقبل .

***

وتُسمَّى هذه الطائفة مِنَ الشِّعر باسْم « الأمثال » .

ذلك أنَّها تتردَّد « مَثَلاً » لكلِّ حادثةٍ ؛ وتعرض صورةً ، لكلِّ حالةٍ بشريَّةٍ ، يختلج بها الكثير مِنَ الشِّفاه ، ويُتمتم بها العديد مِنَ الألسن . . .

وإلى جانبها ـ أيضاً ـ ثروةٌ لا يُستهان بها مِنَ النَّثر ، تُؤَدِّيْ نفْسَ الغرض ، وترمِيْ نحو الهدف ذاته ، إلاَّ أنَّ الأُوْلى أسْهلُ للحفظ ، وأيْسرُ للتَّداول ـ كما قَدَّمْنا ـ للنَّغمة الموسيقيَّة ، التِيْ تُسهِّل السَّبيل لِحفظها ، وتُعبِّد الطَّريق لِتَصل الأسماع .

وليس أدلَّ على أنَّ سبب ذلك هو النُّوتة الموسيقيَّة ، التِيْ تأْتِيْ فِيْ الشِّعر ، على تمامٍ . . . مِنْ أنَّ نصيب الشِّعر الحرِّ ـ مِنْ هذه الخصيصة ـ

علـى قلَّةٍ ، تكاد تُسـاويه بنصيب النَّـثر منها ؛ لأنَّ الشعـر الحرَّ يفتقـد النَّغمة الموسيقيَّة المتكاملة .

ونخصُّ بهـذا : الشعرَ الحـرَّ ، الذِيْ لم يبلغ بـه الإسفافُ إلى الهـذَر ، فضلاً عمَّا زاد عنه ، فكان غُثاءً ، خاوِيَ المعنى ، محطَّمَ الهيكل ، لا يهضمـه الذَّوق الفنيُّ ، ويقيئه الفكر الواعِيْ . . .

ولعلَّه لهذا السبب ـ أعنِيْ النَّغمة الموسيقيَّة ـ نجـد مِنَ العامَّـة الأُمِّيِّين ، مَنْ يحفظ بعض هـذه الأمثال الشِّعـريَّة ، دون النَّثـريَّـة ، وإنْ كـانت قـراءة بعضهم تهدِم الوزن ، وتكسِر النَّغم ، وتُحيله إلى نثرٍ مهلهلٍ . . .

ولكنَّ الأصل فِيْ حفظهم هذا الشِّعر ، الذِيْ ينثرونه هو : كثرةُ ترديـده ممَّنْ يسمعـونه منهم ، دون النَّـثر الذِيْ يقـلُّ ترداده ، ثمَّ هـو أسهل وصـولاً لآذانهم مِنَ النَّثر .

***

إنّك لا تجد مَنْ لا يحفظ ، فيتلو عند أدنى مناسبةٍ :

« مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ » .

أو :

« لِكُلِّ آمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا » .

أو :

إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْتَ الْـكَـرِيْـمَ مَـلَكْـتَـهُ

وَإِنْ أَنْتَ أَكْـرَمْتَ الـلَّئِيْـمَ تَمَـرَّدَا . . .

ولعلّه لا يعـرف أنَّ عملاقـاً اسْمُهُ المتنبِّيْ ، قـال ذلك العجـز ، أو ذاك

الصَّـــدر ، أو هـذا البيت ، والتيْ صــوَّر فيهـا جــوانِبَ مِنْ صُـوَر الحيــاة المتجدِّدة ، التيْ لا تبلى . . .

ومـا لهم لمعرفـة قائله مِنْ حـاجةٍ ، وهـاهم أُولاء يُردِّدون مـايرون فيـه حكايةَ الواقع المحسوس .

* * *

ولَقَدْ مضتِ القرون الكِثار ، على قول شاعرنا طَرَفة بن العبد :

سَتُبْـدِيْ لَـكَ الْأَيَّــامُ مَـا كُنْتَ جَــاهِـلًا
وَيَــأْتِيْــكَ بِــالْأخْبَــارِ مَـنْ لَمْ تُــزَوِّدِ !

وهـو ـ مع ذلـك ـ لاتزال عليـه مسحـةٌ مِنَ : الجـدَّة ، والنَّضـارة ، لم تُغيِّرها الأزمنة ، ولم تُبلها الأيَّام ، لأنّه تعبيرٌ عن أحداث الحياة ، يتجدَّد مـع تجدُّدها ، ولا يبلى إلَّا ببلائها .

ولَقَدْ قيل : إنَّ الرَّسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ سمع هذا البيت الحَيَّ ، فقال :

« إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » .

* * *

وإنَّكَ لَتَشهد الحـادثَة بـأُمِّ عينيكَ ـ كـما يقولـون ـ وتُسايـر خطوطهـا : خطّاً ، فخطّاً ؛ فـلا تلبث أنْ يأْتيـك مخبرٌ بشيْءٍ ، لا يمتُّ للحـادثة بصلةٍ ، ويأْتيكَ ثـانٍ ، وثالثٌ ، وعـاشرٌ ، وكلٌّ بمـا يُخالف الآخـر ، وكلٌّ لا يتَّصـل بشيْءٍ مِنَ الخطوط الواقعيَّة ، مِنْ قريبٍ أو بعيدٍ . . .

. . . فتهتف وقَدْ لا تدرِيْ بأنَّ الشَّاعـر الضَّخم الشَّريف ، هو القـائل لِمَا تهتف به :

« وَمَا آفَةُ الْأَخْبَارِ إِلَّا رُوَاتُهَا » .

وتبلغ بـك الوطنيَّـة أعْـلَى ذُراهـا السَّـامقـة ، حتَّى تُصبـح فيهـا ذلـك المتطرِّف ، تتعرَّض للمخاطر والأهوال ، فلا تخشاها . . . !

وتُريد أنْ تُعبِّر عن هذه الصِّفة الحميدة ، التيْ يجيش بها صدركَ ، نحـو هذا الوطن ، الـذِيْ تُقدِّسـه حتى العبادة ، فـلا تجد تعبيـراً تستكين إليـه ، وترضى عنه ، أحْسَن مِنْ أنْ تهتف بهذا الوطن :

وَطَـنِيْ ! لَـوْ شُـغِـلْتُ بِـالْخُـلْدِ عَـنْـهُ
نَـازَعَـتْـنِيْ إِلَـيْـهِ فِيْ الْخُـلْدِ نَـفْـسِـيْ !

* * *

وتأْلَفُ صديقـاً ، أو أخاً ، أو أيَّ شيْءٍ آخـر ، مِنْ أيِّ نوعٍ كـان . . . وتتعمَّق هـذه الإلفـة إلى أعمق الأعـماق ؛ ولا تستـطيـع عنهـا انْفكـاكاً ، ولا تبديلاً ، أو تحويلاً . . .

. . . فقلبـكَ يأْبى عليـكَ أنْ لا تكون ذلـك الألوف الـوفِيَّ ، أو تكـون ذلـك القلَّب الحوَّل ، فِيْ كـلِّ يـومٍ تُفـارق مَنْ ألفتَ ، وتَقْلُوْ مَنْ أحببتَ ، وتبحث عن صـديقٍ جـديـدٍ ، أو أليفٍ لم تعـرفـه ، لِتُفـارق ذاكَ القـديمَ ، المتجدِّدَ الحبِّ والإلفة . . .

وليس يبلغ لديك تعبيرٌ عن إلفتكَ تلك . . . ووفائكَ العميق لعهـدٍ ، أو صـديقٍ ، ألفتَـه فـأحببتَـه ، أحْسَن مِنْ أنْ تتصـوَّر نفسـكَ فِيْ عهـد :

المشيب ، والشَّيخوخة الواهنة ـ وهِيَ نذير الفنـاء ، وطلائـع الموت ـ يُهـاب منظرها ، ويُخشى الوصول إليها . . .

. . . ولكنَّكَ وصلتَها ، فألفتَها وصاحبتَها ، فتعمَّقتِ الصُّحبـة ، حتَّى أنَّك لا تستطيع فِراقها ، ولو إلى الصِّبا الغضِّ الرَّيَّـان ، وهو غـاية مـا يأْمله الإنســان ، وأوثق قربى مِنْ قلبـه ، فهـو أَوْلى طـورٍ مِنْ أطـوار العمـر ، يُحنُّ إليه ، ويُرجى دوامه . . .

. . . ولكنَّ إلفتكَ تلك ، تأْبى عليكَ فراق شيبـكَ ؛ فإنْ أُجبـرتَ على هذا الفراق ، ولـو إلى الصِّبا النَّضر ، فـإنَّك تُفـارقه بقلبٍ مـوجَعٍ ، وجفْنٍ باكٍ . . .

ويُريحكَ هذا البيت ، الذِيْ يجمع لكَ شتات هذه الخواطر :

خُلِقْتُ أَلُــوْفــاً لَــوْ رَجَعْتُ إلى الصِّبَــا
لَفَــارَقْتُ شَيْبِيْ مُـوْجَــعَ الْقَلْبِ بَـاكِيَــا

* * *

أمَّا أبو تمَّامٍ ، فَقَدْ صوَّر جانباً مِنْ هذا الحنين والإلفة ، فـرأى أنْ لا بُدَّ مِنْ يومٍ يعود فيه حبيبٌ نقَّل فؤادَه ، فأرضى نزعـاتِ هواه ، مثـل ما تنتقـل الفراشة مِنْ زهرةٍ لأخرى ، أوِ النَّحْلة التِيْ تجمع ـ ممَّا تمصُّه مِنْ قلب الزَّهـر ـ مُجاجَ النَّحل : (العسل) .

. . . فإنَّ يوماً مَّا سيأْتِيْ ، لِيَعود فيه هذا التَّائه ، بـين أفنان الحبِّ ، إلى حبيبه الأوَّل ، مثل ما يحنُّ الضَّارب فِيْ فجاج الأرض ، والمتنقِّل بـين عديـد المنازل ، إلى منزله الأوَّل (الوطن الأمِّ) ـ كما يُسمَّى :

نَـقِّــلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْـتَ مِـنَ الْهَــوَى
مَــا الْحُـبُّ إِلاَّ لِلْحَـبِيْـبِ الأَوَّلِ . . . !
كَمْ مَنْــزِلٍ فِيْ الأَرْضِ يَــأْلَـفُــهُ الْفَـتَى
وَحَنِيْنُــهُ ـ أَبَـداً ـ لأَوَّلِ مَنْــزِلِ . . . ؟

ويـرى البعض توحيـد الحبِّ ، فلا حبيب أوَّل ، أو ثـانيَ ، بـل حبيبٌ أوحـدُ ، لا يتثَّنى ، ولا يُشرَكُ به أحـدٌ ، كما لا يُشرَكُ بـالخلَّاق العـظيم إلـٰهٌ سواه . . .

وقَدْ صوَّر ذلك أُستاذُنا الخطِّيُّ ، فِيْ قوله :
أَنَــا وَحَّــدْتُ خَــالِــقِــيْ وَغَــرَامِــيْ
إِنَّ سِرَّ الغَـرَامِ فِيْ التَّـوْحِيْــدِ . . . ! [1]

* * *

وهناك جانبٌ آخر يُناقض الإلفة ؛ تلك التِيْ أشرنا إليهـا ، حيث تأْلف مَنْ لا يستحقُّ ، أو لا يُقيم لـلإلفة وزنـاً ، فـترحـل عمَّنْ ألفتَ ، ويـرضى بذلك ، وهو قادرٌ على عدم فراقكَ ، فتُعزِّيْ نفسكَ بقول المتنبِّيْ :
إِذَا تَــرَحَّلْتَ عَنْ قَـوْمٍ ، وَقَــدْ قَــدِرُوْا
أَنْ لا تُفَــارِقَهُــمْ ، فَــالــرَّاحِــلُوْنَ هُمُ

* * *

(١) قال أُستاذنا الخطِّيُّ ، هذا البيت الفريد ، يوم كان يُطبِّق معناه ، في حياته الزَّوجيَّة . أمَّا الآن ، وقد ثنّى حياته الزَّوجيَّة ، فلا ندري ماذا يُعبِّر عن هذه الحياة ، في بيتٍ رائعٍ ، مثل هذا ؟ ! .
لولا أنّه أراح وتره عنِ الصُّداح ، وما هي براحةٍ . . . !

يُقدِّم إنسانٌ ممتازٌ ، خدماتِه الجلَّى ، لبَنِيْ قومه ووطنه فلا تُقابَل إلَّا بالجحود والنُّكران ، حتَّى يَتناسى هؤلاء وجودَه وأعمالَه ، ومسيسَ الحاجة إليه ، فيجدُّ جِدُّهم ـ بعْد افْتقادهم له ـ وتحزِبهم الأمور ، فيفزعون ، ولا مفزع . . .

وحينذاك يُحسُّون بعمق الفراغ ، الذِيْ تُمثِّله الحاجة اللَّحوح ، مثل ما يُحسُّ بالظُّلمة الكافرة ، ضاربٌ فِيْ متاهات الصحراء ، ولا بدْر يشعُّ مِنَ السَّماء ، فيُحسُّ ـ حينئذٍ ـ بقيمة النُّور الهادِيْ ، فِيْ وقتٍ ، هو فِيْ أمسِّ الحاجة ، إلى إشراقةٍ مِنْ ضوءٍ ، يتلمَّس على وهجِه طريقَه ، لِيَتجنَّب المهالك والعثرات .

وَلَقَدْ عبَّر عن هذا أبو فراسٍ ـ فيا أجمل التَّعبير ! :

سَيَذْكُرُنِيْ قَوْمِيْ إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ . . .
وَفِيْ اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ . . . !
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِيْ مَا سَدَدْتُ اكْتَفَوْا بِهِ
وَهَلْ كَانَ يَغْلُوْ التِّبْرُ ، لَوْ نَفَقَ الصِّفْرُ ؟

* * *

وتجد نفسك فِيْ حاجةٍ لشيْءٍ مَّا ، وهو قريبٌ منكَ جدّاً ، بحيث تطاله يدكَ فِيْ أيسر جهدٍ ، لو خُلِّيَ بينك وبينه السَّبيل ، وما هو سوى حقٍّ مِنْ حقوقكَ ، فِيْ : الحياة الحرَّة الكريمة ، والعيش الرَّغيد . . .

ولكن هناك قوىً ، تحول بينكَ وبينه ، رغم أنَّ ثقله وجهده تتحمَّله أنتَ ، وفائدتَه وثمارَه مِنْ نصيب غيرك ؛ فتتمثَّل نفسك المعنيَّ بهذا البيت :

كَـالْعِيْسِ فِيْ الْبَيْـدَاءِ يَـقْتُـلُهَـا الـظَّمَا
وَالْمَـاءِ فَـوْقَ ظُـهُـوْرِهَـا مَحْـمُـوْلُ

* * *

وهنـاك مَنْ يمنحُ الـدِّفـءَ غيرَ أصحـابه ، ويتـركُ مَنْ هـو بـه أوْلى ، فِيْ الصحـراء ، وصرِّها القـارسِ ، حيث احتلَّ مكـانَهم ذلك البعيـدُ ، الذِيْ لا حقَّ له ، ولا نصيبَ فِيْ هذا الحِجْر الدافِئِ ، والعشِّ الحاضِنِ . . .

فـترى فيه صـورةً لتلك . . . التِيْ تـترك بيضَهـا بـالعـراء ، وهـو أحقُّ بالدِّفـءِ والرِّعاية ، لِتُلحف جناحَها بيضَ غيرِها :

وَتَـارِكَـةٍ بَيْضَهَـا بِـالْعَـــرَا . . .
وَمُلْحِفَـةٍ بَيْـضَ أُخْرَى جَنَـــاحَا

* * *

وقريبٌ ممَّا يهدف إليه هـذا البيتُ : بيتٌ آخر ، يُصـوِّر ما يلحق بـالمرء مِنِ اغْتصـاب حقِّه ، وإبْعـادِه عن محلِّه ، ومُطاردتـه عنه ، لِيَحـلَّ محلَّه بعيدٌ غريبٌ ، لا ذرَّة له مِنْ حقٍّ فِيْ ما احتلَّه :

أَحَـرَامٌ عَـلَى بَـلاَبِـلِهِ الـدَّوْحُ . . .
حَـلاَلٌ لِلطَّيْـــرِ مِـنْ كُـلِّ جِنْـــسِ ؟

* * *

ولا يقـع منـكَ البصر ، عـلى واحـدٍ طـاردتـه قُـوى الـظُّلم والجـور ، بأساليبها المتنوِّعة التِيْ تشنُّ بها الحـرب ، على كـلِّ مَنْ لا يتعامـل معها ، فِيْ سوق تجارتها بالحقوق ، التِيْ تشترِيْ بها الضمائر .

فيضطرُّ ذلك الحيُّ الضَّمير ـ وقَدْ أبى بيْعَ الضَّمير ـ أنْ يبرح تربةَ وطنِه ، التيْ أحبَّ ، وكأنَّه مِنَ المجرمين الكِبار ، فِيْ حين أنْ لا جريمة له ، سوى يَقظَة الضَّمير . . .

تقع عينكَ عليه ، فتراه كأنَّه المعنيُّ :

مُشَـرَّدُوْنَ نُفُـوْا عَـنْ عُـقْـرِ دُوْرِهُـمُ
كَـأَنَّهُمْ قَـدْ جَنَـوْا مَـا لَيْسَ يُـغْتَـفَـرُ

* * *

وتمرُّ بالمرء قاسِيْ المحن ، وشديدُ الصِّعاب ، حتَّى تفرض عليه أنْ يُخلف رأْيه ، فيُظهر ما لا يعتقدُ ، ويُبارك ما كان يشجب ؛ أو يُجدِّف على ما كان يُبارك ، فيرى حَسَناً ـ أو هكذا يُظهر مضْطرّاً ـ ما كان يعتبره صورةً مجسَّمةً للقبح الذَّميم :

يُـقْضَى عَـلَى الْمَـرْءِ فِيْ أَيَّـامِ مِحْنَـتِـهِ
حتَّى يَرَى حَسَنـاً مَا لَيْـسَ بِالْحَسَـنِ !

* * *

ومِنْ هذه الظُّروف القاسية ، ما تحتم عليه أنْ يُظهرَ صداقةَ مَنْ هو العدوُّ الألدُّ ؛ ويتودَّدَ إلى مَنْ لا يحمل قلبُه له ، ذرَّةً مِنْ حبٍّ :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَـا عَـلَى الْحُـرِّ أَنْ يَـرَى
عَـدُوّاً لَـهُ ، مَا مِـنْ صَدَاقَتِـهِ بُدُّ !

* * *

يبنِيْ المرءُ مِنْ أحلامه وأمانيه : ما يفرش مستقبلَه بالرَّغد ، مِنَ الحياة ، والأمل الخضِل ؛ ولكن لا يتحقَّق شيْءٌ منها ، ولا يُدرك مِنْ أمـانيه ، بعضَ ما كان يصبو إليه :

مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّى الْمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ . . .
تَجْـرِيْ الرِّيَـاحُ بِمَا لا يَشْتَهِـيْ السُّفِـنُ

* * *

وتكـثر هـذه الأمـانيْ ، وتـزداد ـ « والأمَـانِيْ رَأْسُ مَـالِ الْمُفْلِسِ » ـ ويُضاعف هذه الأمانِيْ أُمنيةُ تحقيقها . . .

فليت ، وما عسى أنْ تنفع « لَيْتُ » ؟ ! .

ليتَ الصِّدق يكون يوماً مَّا إلى جانب « ليتَ » هذه الملعونـة ! ؛ فيهتف مِنْ عميق أعماقه :

« **أُوَّاهُ لَوْ تَصْدُقُ يَا لَيْتَنِيْ** ! » .

ولكنّه قَدْ يعيش على تلك الأمانِيْ ، ويلتـذُّ بها فِيْ تصـوُّره لها ، فـيرضى بهـذا التَّصوُّر والخيـال ، الذِيْ يـأْمـل أنْ يتحـوَّل إلى واقـعٍ ، وهـو يـرضى بذلك ، ويعيش على هذا الأمل :

مُـنىً إنْ تَكُـنْ حَقّـاً تَـكُنْ أَحْـسَنَ الْمُـنَى
وَإلاَّ فَقَــدْ عِشْنَـا بِهَــا زَمَنــاً رَغْــدَا

* * *

ثم يفجأُه الواقع المرُّ ، ويفتح عينيه على الحقيقة المتجسِّدة ، فتنهار كـلُّ تلك الآمـال ، ولم تُبنَ إلاَّ مِنَ الـوهم ، فيـأْسف عـلى عمـره ، أضـاعـه فِيْ الوهم ، وأمانيْه بَنَاهَا مِنَ الخيال المتلاشِـيْ :

أَنَـا مَـنْ ضَيَّـعَ فِيْ الأَوْهَـامِ عُـمْـرَهْ
نَسِـيَ التَّـأْرِيْـخَ ، أَوْ أُنْسِـيَ ذِكْـرَهْ !

* * *

ولكنَّ آمـال المرء ـ حتَّى ولـو تحقَّق أكـثرهـا ـ لا تقف عنـد سـاحـلٍ ؛ وأمانيْه لا تنتهِيْ . . . فكلَّ ما تحقَّق أمَلٌ ، انبثقتْ آمالٌ . . .

وهكذا . . . حتَّى يصل إلى النِّهـاية ـ نهايـةِ كلِّ إنسـانٍ ـ فتموت آمـالُه معه ؛ وإلَّا فَهِيَ باقيةٌ ، ما دام هو على رقعة الوجود :

تَمُـوْتُ مَـعَ الْمَـرْءِ حَـاجَـاتُـهُ
وَتَـبْـقَـى لَـهُ حَـاجَـةٌ مَـا بَـقِـيْ

هناك حاجاتٌ تُقضى ، فتتجدَّد أُخـرى . وهناك حـاجاتٌ تبقى هِيَ ، ولا تُقضى أبداً ، وإنْ قُضِـيَ غيرها ممَّا جاء بعدها :

كَـمْ بَقِـيَتْ فِيْ الـنَّفْسِ مِـنْ حَـاجَـةٍ
لا تَنْقَضِـيْ لِلْمَـرْءِ حَتَّى الْمَمَـاتْ ؟ !

* * *

وَقَدْ يفشل إنسانٌ فِيْ ناحيةٍ مِنْ نواحِيْ الحيـاة ، على صعيـدِ الحبِّ ، أوِ الحيـاة العمليَّـة ، أوْ بنـاءِ البيت السَّعيـد ، أو تتهـدَّم الآمـال ، وتخيْب الرَّجاواتُ ، فيرى مِشعلَ حياته قَدْ تحطَّمَ ، فَيُنفِّس شيئاً مِنْ أَلَمِهِ المكبـوت ، هاتفاً ، مناجياً ربَّه :

رَبِّ ! مَـاذَا جَنَيْـتُ فِيْ الْكَـوْنِ حَـتَّى
حَـطَّمَتْ مِشْـعَلِيْ يَـدُ الْأَقْـدَارِ ؟ !

* * *

تمتدُّ يدكَ لصحيفةٍ ، فتجد فيها الصِّبغة التِّجاريَّة ، وتراها صورةً بشعةً للانتهازيَّة ، وسياسةِ التقلُّب الماكـر ، والنِّفاق الخـادع ، تسير وراء المـادَّة ، فَتُسـارع فِيْ رضى السُّلطة ، مهـما كـان لـونها ، ومهـما كـان الـرأْيُ البـاطِنيُّ ـ للصَّحيفة ـ فيها . . .

. . . فَهِيَ تدور ، لِتُقَدِّس مَنْ بيده الزِّمام ، إذ لا رادعَ لها مِنْ ضميرٍ ، وقَدِ افتقدته ، إنْ قُدِّرَ له فيها وجودٌ . . .

فتُردِّد ، حتَّى لو قُدِّر أنْ تكون تلك الصَّحيفة ، لصاحب هـذا البيت ، الذِيْ تُرَدِّد ، فتكون بضاعتُه قَدْ رُدَّتْ إليه :

وصَحَـائِفٍ صِفْـرِ الضَّـمِـيْرِ كَـأَنَّهَا
سِـلَعٌ تُبَـاعُ ، وَتُـشْـتَرَى ، وَتُـعَـارُ

* * *

وتجد المجتمعَ المتفسِّخ ، قَدِ انهارتْ فيه القِيَمُ الأخلاقيَّـة ، وتفشَّتْ فيه الدَّعارةُ ، إلى حدٍّ أصبح فيه مهدَّداً بالانقراض ، فترى صورةَ فنـائه فِيْ هـذا البيت :

وإنَّمَـا الأمَـمُ الأخْـلاقُ مَـا بَقِيَـتْ
فَـإنْ هُمُ ذَهَبَـتْ أخْـلاَقُهُـمْ ذَهَبُـوْا

* * *

كلٌّ منّا يُحبّ للعدالة أنْ ينبسط منها الظّلُّ ، فَيَفيْءَ إليها أيُّ إنسانٍ .

وحبُّ العدالة ، لابُدَّ أنْ يُقابله ـ فِيْ الجانب الآخر ـ كُرْهُ الجور ، وبُغْضُ الظُّلْم ؛ فَنَعاف الظُّلْم ، ونكره الظّالم ، ويسوؤُنا أنْ يفشوَ هذا فِيْ المجتمع ، أو نجد فيه تلك النُّفوسَ الشِّرِّيرة الظّالمة . . .

وقَدْ تكثر صُوَر هؤُلاء الجائرين فِيْ نَظَر أحدنا ؛ فلا تكاد تلتقط باصرتُه ، سوى صُوَرٍ مِنَ الظُّلم الشّنيع ، فِيْ ألوانه العديدة ، فيفزع ويرتاع حتىَّ يبلغ لديه التشاؤُم حدّاً بعيداً جدّاً ، ويغلو فِيْ ذلك غلوّاً مفرطاً ، فلا يرى الظُّلْم إلاّ غريزةً مِنَ الغرائز النَّفسيَّة ، ذاتِ الجذور البعيدة ، وشيمةً مِنْ شيمها اللاّزمةِ ، وظاهرةً مِنْ ظواهرها البارزة ، التِيْ لا تحيد عنها . . .

فإنْ وَجدَ مَنْ لا يُقارف الظُّلْم ، عزا ذلك إلى علَّةٍ خاصَّةٍ ، حالتْ بينه ، وبين طبْعِهِ . . . !

ونحن لا نُؤْمِنُ بهذا الرأيِ الأسود . . . ولكن هناك مَنْ آمَنَ به ، ولا يزال مَنْ يُؤْمِنُ به . . .

بل حتىَّ أنَّ أمثاليْ مِمَّنْ لا يُؤْمنون به ، قَدْ تمرُّ بهم حالاتٌ ، تتكاثر فيها صُوَر الظُّلْم ، فيهتفون مع المتنبِّيْ ـ وإنْ كانوا على غير وفاقٍ معه ، فِيْ رأيه الغاليْ المفرط :

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوْسِ فَإنْ تَجِدْ
ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ . . . !

ولعلَّ المتنبِّيْ متأثِّرٌ ـ فِيْ هذا الرأي ، إلى حدٍّ بعيدٍ ـ برأيِ زهيرٍ ، الذِيْ يرى :

[وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ] .

ورأْيُ زهـيرٍ هذا ، يُمثِّـل الـرُّوح الجـاهليَّـة ، التِيْ مـارستِ الـظُّلْم ، بأشكاله وألوانه ، فاعْتادتِ الحروب ، والغزوَ والسَّلب ، وأنواعَ العدوان ، لِتَحمِيَ كلُّ قبيلةٍ نفسَها ، حين ما تُباهِيْ بقواها وبطشِهـا وغلبتها . . . وإلَّا تعرَّضتْ لمثل ذلك مِمَّنْ هِيَ أقوى منها .

ومـا الغلبةُ إلَّا للقـويِّ ؛ والحقُّ ـ عندهـا ـ هِيَ القـوَّة ، ليس إلَّا . . . وهو منطقُ القوَّةِ الباطشةِ ـ فِيْ كلِّ زمانٍ ومكانٍ ـ ولغةُ الحديدِ والنَّارِ ، بدافعٍ مِنْ حبِّ : الغلبة ، والقهر ، والسَّيطرة .

وهـذه الرُّوح ، وإنْ كـانتْ جاهليَّـةً ، إلَّا أنَّنا نجـد أبشع منهـا ، الآن ـ ويا للأسف المرير ! ـ فِيْ عصر العلم والصَّواريخ ، وغزْوِ الفضاء . . .

وإلَّا فَلِمَاذا نرى هذه التَّهديدات ، التِيْ نشمُّ منها رائحة الحرب ، تحمل نُذُر الفناءِ للبشريَّة ، والقضاءِ على الوجود ، فِيْ وحشيَّـةٍ بغيضةٍ ، لا تعـرف الإنسانيَّة . . . ؟ !

هذه التَّهديـدات تتبادلهـا الدُّول الكـبرى ، فتُبعثر الـطُّمأْنينـة ، وتُهدِّد السِّلم ، وتقضِـيْ عـلى الأمْنِ ، رغم أنَّها تزعـم لنفسهـا ـ قولاً ، لا عمـلاً ـ بأنَّها نصيرةُ السَّـلام ، والمدافعـة عنِ الشُّعوب ، وحقـوق المُستضعَفين ، فِيْ توفيرِ حريَّةٍ ، وتوطيدِ سِلْمٍ ، وإشاعة أمْنٍ . . .

فكيف تكون هذه الادِّعاءات الكاذبـة المغرِّرة ، مـع تلك التَّهديـدات السَّافرة . . . ؟

. . . حتَّى أنَّ تلك الرُّوح الجاهليَّة ـ فِيْ قولتها تلك ـ لم تستطع أنْ تُؤدِّيَ ما تحمله هـذه الـرُّوح « العلميَّـة » ، مِنْ حبِّ الانتقـام والغَلبـة ، وتحقيق المآرب بالقوَّة والقهْر . . . !

***

وما مِنْ شكٍّ فِيْ أنَّ الظُّلْم مراتبُ ودرجاتٌ ، يزداد بعضهـا عنِ البعض الآخر ؛ ويختلف ـ أيضاً ـ باخْتلاف المقارِف للظُّلْم .

فظُلْم البعيد أخفُّ وقْعاً ، مِنْ ظُلْم مَنْ تربـطكَ به وشـائجُ قـربى ، مِنْ حبْل نَسَبٍ أو سَبَبٍ . . . وفِيْ ذلك يقول طَرَفة :

وظُلْمُ ذَوِيْ القُـرْبَى أشَـدُّ مَـضَـاضَـةً
عَـلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْـعِ الْحُسَـامِ الْمُهَنَّـدِ

لذلك يجب علينا أنْ نعاف الظُّلْم ونستنكره ، ونشنَّها حربـاً لمقاومتـه ، والقضـاء عليه ، وعَـلَى مخلَّفـاتـه مِنَ : الـذُّلِّ ، والضَّيْم . . . وليس يصـبر عليهـما إلاَّ ذليلُ النَّفس ، مـرضوضُ الهمَّـة ، مهدورُ الكـرامـة ؛ حتَّى أنَّـه لا يفترق عن حيوانٍ ـ كالحمار ـ أو جمادٍ ـ كوتَد الخِبْاء :

وَلاَ يُـقِـيْـمُ عَـلَى ضَـيْـمٍ يُـرَادُ بِـهِ
إلَّا الأذلَّانِ : عِـيْرُ الْحَـيِّ ، وَالْـوَتَـدُ

***

ولا شكَّ أنَّ مِنَ الأسباب الفعَّالة للقضاء على الـظُّلْم ، ورَدْعِ الظَّالم ، هـو مبدأُ القِصـاص العادل الـذِيْ سنَّـه الإسـلام بـروحٍ إنسـانيَّـةٍ ، تحفظ

الحقوقَ ، وتُحارب الجريمة ، بـالقضاء عليها فِيْ مهدها ؛ فـإنْ وقعتْ ، فالقِصاص يحصرها فِيْ ضيِّق النِّطاق . . .

على أنَّه عَمِلَ على تربية الـرُّوح الإنسانيَّـة ، فِيْ تسامـحٍ ، وتعاطفٍ ، يرتفع على مبدإ القِصاص ـ على رفعة مستواه ـ وذلكُ فِيْ الدَّعـوة إلى العفو ؛ فإنْ يكنِ العدلُ يحكم بالقِصاص ، فإنَّ الرَّحمة تدعو للعفو .

ولعـلَّ بعضهم يرى الـدَّعـوةَ لمبـدإ القِصـاص ، تتمـثَّل فِيْ هـذا البيت الجاهِليِّ :

أَيـا جَارَتَـا ! سَفْكُ الـدِّمَـا يَحْقِنُ الـدِّمَـا
وَبِـالْقَتْـلِ تَنْجُـوْ كـلُّ نَفْسٍ مِنَ الْقَتْــلِ

وبيتٌ جاهليٌّ آخـر ، يرى ردَّ الـظلم بأشـدَّ منه ، فهـو يزيـد على مبـدإ القِصاص العادل ، وليس يكتفِيْ عند حدٍّ :

(**ضَرْبَةٌ بِضَرْبَةٍ ، وَالْبَادِىءُ أَظْلَمُ**) .

بل يرى ردَّ الصَّاع صاعين :

أَلَا لَا يَجْـهَـلَنْ أَحَـــدٌ عَـلَيْـنَـا . . .
فَنَجْـهَـلَ فَـوْقَ جَهْــلِ الْجَـاهِـلِيْنَـا

* * *

وقَدْ تمرُّ ظروف يطغى فيها الجهل ، فـلا يُجدِيْ معهـا الحِلْم ولا ينفع ؛ بل لابُدَّ مِنْ عـلاجها ، أو ردِّهـا بغير الحلم ، بعـد أنْ لا يأْتِيْ بـالغايـة . . . فحينذاك يستعمل الجهل ، الذِيْ يُعتبر مِنَ الحلم ، أيضاً :

مِنَ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُوْنَهُ
إذَا كَثُرَتْ فِيْ الْحِلْمِ طُرْقُ الْمَظَالِمِ

* * *

ينظر الإنسان حواليه ، فيرى الحياة لا تصفو لواحدٍ ، فَهِيَ لا تصل واحداً ، إلاَّ بجفاء آخر ، مثل ما تفعل العطبول ، المدلَّة بجمالها وفتوَّتها ، وطول عنقها ، تملُّ مَنْ واصلته ، فتجفوه ، لِتُواصل سواه :

هِيَ دُنْيَا . . . إنْ وَاصَلَتْ ذَا جَفَتْ
هَذا - مِلالاً - كَأَنَّهَا عُطْبُوْلُ . . . !

* * *

ويُريد الإنسان حياته مثالاً للصَّفاء ، لا يشوبها كدَرٌ ، ولكن هذا لا يتحقَّق له ؛ بل لابُدَّ مِنَ الصَّبر على القذى ، وليس الصَّفاءُ بالميسور أوِ الدَّائم ؛ فيُعزِّيْ نفسَه :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَصْبِرْ - مِرَاراً - عَلَى الْقَذَى
ظَمِئْتَ . . . وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُوْ مَشَارِبُهْ ؟

* * *

ويرى فِيْ الحياة ألواناً شتَّى ، قَدْ يرى ، فِيْ نظرةٍ بسيطةٍ وسطحيَّةٍ ، أنَّها لا تقوم على منطقٍ . . .

فهذا عالمٌ مخلِصٌ ، يكاد يكون مغموراً ، قَدْ ضَاعَ ، وضَاعَ علمُه ؛ حتَّى أنَّ الجاهل المتردِّيَ فِيْ حمأة الجهل ، يُغطِّيْ ذلك العالِمَ : شهرةً ،

وتقديراً ، ومكانةً ، وكأنَّه لم يكن ذلك الجاهلَ المركَّب ، فترى أنَّ مكانة هذا لذاك ، وذاك لهذا . . .

. . . وتبحث عنِ السَّبب ، فإذا المال ـ وليس غيرَه ـ هو الذِيْ فَعَلَ فعْلَه البغيض ، وقَدَّمَ ثمارَه الشَّائكة ، فأَضاع عدَمُ جودِه ذاك العالِمَ ، وغطَّى وجودُه ذاك الجهلَ المخزِيَ :

رُبَّ عِلْمٍ أضَاعَهُ عَدَمُ الْمَالِ

. . . وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيْمُ

***

وتقع على إنسانٍ كارثةٌ ، وترميه المصائبُ بسهمٍ ، يُصيب منه الكيان ، فَيهزُّه . . . ولكنَّه يخشى شامتاً به ، فَيَتجلَّد ، ويُخفِيْ آثار ما أَلَمَّ به ، لِيَقول :

وَتَجَلُّدِيْ لِلشَّامِتِيْنَ أُرِيْهُمُ

أَنِّيْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

ويقولون : إنَّ معاوية أنشد هذا البيت ، قُبيْل احْتضاره ، لِيَرْمِيَ مَنْ أنشده عليه ، بأنَّه شامتٌ به ، ويُظهر نفسه ذلك الجلدِ ، الذِيْ يهزأُ بالأحداث ، ولا يعبأُ لها ؛ فأجابه ذاك ، بهذا البيت ، مِنْ نفس القصيدة :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لا تَنْفَعُ !

***

وتزداد المعاناة مِنَ الأحداث ، ومرارتها ، والظُّلْمِ وشدَّتِه ، وتختزن بين

طيّات الصَّدر ، وتفعل فعْلَها السيِّء فيه . . .

وَهِيَ كلَّ ما ازْدادَتْ ، ثقُلتْ شدَّةُ المعاناة ، وازْداد ضِيْقُ الصَّدر وبَرَمُه بها ، حتَّى لا يحتمل شيئاً مِنْ مزيدٍ ، بل يخشى على الصَّدر ـ حينئذٍ ـ أنْ ينفجر ، ممَّا حَمَلَ حتَّى ضاق .

فليس لِمَنْ يحمل فوق طاقته ، إلاَّ أنْ ينوءَ تحت ثِقْل العِبْء البهيظ :

ضَاقَ صَدْرِيْ مِمَّا أُعَانِيْ . . . وَمَاذَا
بَعْدَ ضِيْقِ الصُّدُوْرِ غَيْرُ انْفِجَارِ ؟ ! [1]

* * *

يعيش الإنسان فِيْ هذه الحياة ، ماشاء الله له أنْ يعيش . . . ويموت ، فيموت ذكْره ، ويتلاشى ظلُّه ، فيزول كلُّ أثرٍ يُشير لوجوده ، حتَّى كأنَّه لم يمرَّ بهذه الحياة . . .

وليس يبقى اسمٌ إلاَّ لِمَنْ قام بجليل العمل ؛ فأبقى خالد الذِّكر ، مِنْ : طيِّب الأثَر ، وكريم الأُحدوثة ؛ فإنَّه يعيش عمراً ثانياً ، قَدْ يُطاول عمرَه ذاك فِيْ امتداد الزَّمَنِ ، ويبقى ما بَقِيَ العملُ ناطقاً ، والأثرُ مفيداً :

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِيْ ؛ وَحَاجَتُهُ
مَا فَاتَهُ ؛ وَفُضُوْلُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا بيتٌ قَدْ جَمَعَ مواضيع ثلاثةً فِيْ : إيجازِ تعبيرٍ ، وسلاسةِ حبْكٍ ، وحُسْنِ ترتيبٍ :

---

(١) هذا بيتٌ مما ينظمه المؤلِّف ، بين فترةٍ ، وأُخرى ـ أحياناً .

فليس للمرء مِنْ حياته المادِّيَّة ، سوى ما يُقيتُه ، فَيحفظ له رَمَقَ الحياة . . . أمَّا الفضول مِنَ العيْش ، فليستْ بذات جدوى أو نفعٍ . . . وما هِيَ إلاَّ أشغالٌ ، تُجهد وتُتعب ، فعليه أنْ يبنِيَ بها العمر الثَّانِيَ ، ويُخلِّفَ بها طيِّبَ الذِّكْر ، لِتَمتدَّ حياتُه الثَّانية ، بمقدار ما يُقدِّم ويعمل .

وليس ينال العُمُرَ الثانِيَ إلاَّ مَنْ عمِل له ، قبْل الموت ، فَرَفَعَ ذكْرَه ، بما عمله مِنْ جليلٍ :

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ ـ قَبْلَ مَوْتِكَ ـ ذِكْرَهَا
فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِيْ

* * *

وعلى الإنسان أنْ لا يتأخَّر عن إسْداء يدٍ بمعروفٍ ـ وهو قادرٌ عليه ـ وأنْ لا يبخل بمعونةٍ يُقَدِّمها ، وهو يقوى عليها . . . فمَنْ يفعلْ ذلك ، فليس له غيرُ الذَّمِّ يحوطه ، بعْد الاستغناء عنه ، وقَدْ بَخِلَ بما هو عليه قديرٌ :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ ، وَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ
عَلَى غَيْرِهِ ، يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

منذ يُوجد ابن آدم على رقعة الوجود ، ويلتقط سمعُه الصوتَ ، فَيُميِّز ما يلتقط ، تتكرَّر على هذا السمع مثل هذه الكلمات : مَاتَ . قُتِلَ . انْتَحَرَ .

فالإنسان يسير نحو هدفٍ لا يحيد عنه ؛ بل يسعى إليه ، منذ يومه الأوَّل ؛ فلا يمرُّ يومٌ ، إلاَّ وتسقط ورقةٌ ، مِنْ شجرة الحياة ـ وتختلفُ هذه الشجرة مِنْ إنسانٍ عن آخر ، بعدد هذه الوُريقات : كثْرةً ، وقلَّةً .

فمع آخر ورقةٍ تذبلُ الحياة ، كشمعةٍ أذابتْها النار ، أو مصباحٍ نفِدَ زيتُه فانْطفأ ، حين ما لَفَظَ خفقتَه الأخيرة ـ كما يقول شوقِيْ [1] .

فلا يلبث الإنسان ، يسمع مثل هـذا النَّعْيِ ، ولا يقف عن هـذا السَّماع ، حتَّى يكون هو المنْعِيَّ :

تَنْفَكُّ تَسْمَعُ مَا حَيِيْتَ
بِهَالِكٍ حَتَّى تَكُوْنَهْ

وإلَّا فالأيَّام تمضِيْ رتيبةً ؛ فَلَيْلٌ يسبقه نهارٌ ، ونهارٌ يتلوه ليلٌ ؛ وهكذا . . . حتَّى يقف تيَّار الحياة ، وينقطع الشِّريان ، الذِيْ يمدُّ الجسمَ بالوقود ، فينبتُّ الحبل ، فِيْ ليلٍ لا يتلوه نهارٌ ، أو نهارٍ لا يُعقبه ليلٌ :

لَابُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلَا لَيْلَةٍ
أَوْ لَيْلَةٍ ـ تَأْتِيْ ـ بِلَا يَوْمِ

***

ولا تطأُ قدماك ترابَ المقبرة ، حتَّى تزدحم لديك الصُّوَر ، وتتسابق على لسانك الأبيات ، التِيْ تسجِّل هذه الصُّوَرَ الحيَّة ، مِنْ : قديمٍ ، وحديثٍ :

---

(١) هذا البيت لشوقي ، فيه دفءٌ مِنْ حرارة الحياة الدَّافقة ، بحيث تضعه في طليعة الشِّعر الحي ، الذي يُعبِّر عن حاجات الإنسان :

لقدْ بقيَتْ خفقةٌ في السِّراج ، سيلفظُهَا ثمَّ لَا يسطعُ

ولشوقي أبياتٌ كثيرةٌ ، تنضمُّ إلى هذه الطَّائفة ، التي نعرض لها ـ هنا .
وروايته (مجنون ليلى) قد حفلت ، مِنْ هذا الشِّعر الرَّفيع بالشيء الكثير جدّاً .

صَاحِ ! هذِيْ قُبُوْرُنَا تَمْلأُ الرَّحْـ
ـبَ . . . فَأَيْنَ الْقُبُوْرُ مِنْ عَهْدِ عَادِ ؟
خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيْمَ الأرْ
ضِ إلَّا مِنْ هذِهِ الأجْسَادِ
وَقَبِيْحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ
ـدُ . . . هَوَانُ الآبَاءِ وَالأجْدَادِ
سِرِانِ اسْطَعْتَ فِيْ الْهَوَاءِ رُوَيْداً
لَا اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً
ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدَادِ
وَدَفِيْنٍ عَلَى بَقَايَا دَفِيْنٍ
فِيْ طَوِيْلِ الأزْمَانِ وَالآبَادِ

أو :

أُنْظُرِيْ كَيْفَ تَسَاوَى الْكُلُّ فِيْ هذَا الْمَكَانِ
وَتَلاشَى فِيْ بَقَايَا الْعَبْدِ رَبُّ الصَّوْلَجَانِ
وَالْتَقَى الْعَاشِقُ وَالْقَالِيْ فَمَا يَفْتَرِقَانِ

وغير هذا وذاك مِنَ الصُّوَر ، التيْ يبعث بعضها ، فِيْ النَّفس ، جذوةً ، مِنَ الإيمان ، حتّى أنَّ بعضها ممَّا يحمل شيئاً مِنْ تشكيكٍ ، لَيمحوه ، إمعانُ الفِكْر ، والنَّظرُ فِيْ تجلِّيْ العدالة الإلهيَّة الكبرى . . .

بل قَدْ تشعُّ هذه الجذوة ، فِيْ نفوسٍ ، على غير نصيبٍ مِنْ إيمانٍ عميقٍ ؛ بل ومِنْ إيمانٍ سطْحِيٍّ . . .

. . . ولكنَّ ضَعْفَ الإنسان ، أمام القوَّة الكبرى ، التِيْ تدمغه بالواقع الرَّهين ، تدفع به إلى التَّمرُّد على الإلحاد ، والابتعاد عنِ التَّشكيك ، والعودة إلى نبْعِ الإيمان ، ولو إلى حينٍ . . . ما دامتْ عيناه مفتوحتين ، على الحقيقة المجرَّدة ، قَدْ بهرته بِهول مفاجأتها ، فغمرتْه بموجةٍ مِنَ الخشوع والاستسلام . . .

وكذلك وجدنا شاعر التَّشكيك أبا العلاء ، فِيْ داليَّته ، تلك التِيْ كانت صورةً نابضةً ، مِنْ صُوَر عودةِ الإنسان إلى الإيمان ، وقَدْ أذهلتْه المفاجأة ، حين ما يقف وجهاً لوجهٍ ، أمام القوَّة الجبَّارة ، التِيْ تدمغُه بالبراهين . . .

وبذلك كانتْ هذه القصيدة ، نفْحةً مِنْ نَفَحَات الإيمان ، المقتنع بالدَّليل ، حتَّى كأنَّها لم تكن لشاعرٍ ، عُرف بالإلحاد ، أو ـ على الأقلِّ ، كما يُحاول البعض ـ بالتَّشكيك ، وعدم الاستقرار على قاطع الرأيِ . . .

وفِيْ ما تركْنَا مِنَ القصيدة ، تتجلَّى هذه الرُّوح المؤْمنة المطمئنَّة ، بصورةٍ أوضح وأجلى .

ولعلَّ مِنَ المناسب أنْ نقرأ منها هذه الأبيات ـ أيضاً ـ ولا سيَّما وأنَّ بعضها ممَّا ينضمُّ إلى طائفة أبيات هذا البحث ، حيث تُتْلَى مثلاً حيّاً :

تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْـ
ـجَبُ إلاَّ مِنْ رَاغِبٍ فِيْ ازْدِيَادِ . . . !

إنَّ حُزْناً فِيْ سَاعَةِ الْمَوْ
تِ أَضْعَافُ سُرُوْرٍ فِيْ سَاعَةِ الْمِيْلاَدِ

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ ، فَضَلَّتْ
أُمَّةٌ يَحْسَبُوْنَهُمْ لِلنَّفَادِ . . .

إِنَّمَا يُنْقَلُوْنَ مِنْ دَارِ أَعْـ
ـمَالٍ إلى دَارِ شِقْوَةٍ أوْ رَشَادِ
ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيْحُ الْـ
ـجِسْمُ فِيْهَا ، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

بَانَ أَمْرُ الإلَـهِ وَاخْتَلَفَ النَّا
سُ ، فَدَاعٍ إلى ضَلالٍ ، وَهَادِ
وَالَّذِيْ حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيْهِ
حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
فَاللَّبِيْبُ اللَّبِيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْـ
ـتَرُّ بِكَوْنٍ مَصِيْرُهُ لِلْفَسَادِ

ولكن هناك مَنْ لا تُراوحه ، حتَّى نفحةٌ مِنْ إيمانٍ ـ وقَدْ تحوَّلتْ جذوته ، فِيْ أعماقه ، إلى رمادٍ باردٍ ـ فليس تُجديه عِظاتٌ ، وهو سادرٌ فِيْ الغواية ، منغمسٌ فِيْ الإباحيَّة :

عِظَةُ الْمَوْتِ لا تَمُرُّ عَلَى قَلْـ
ـبِ غَوِيٍّ . . . وَلا ضَمِيْرِ إبَاحِيْ

***

إنَّ حاجة المجتمع ـ كلِّ مجتمعٍ ـ إلى قائدٍ مخلصٍ محنَّكٍ ، ذِيْ تجاربَ ، نافعةٍ ، لحاجةٌ لا يُقدَّر مداها ؛ ولا يُمكن أنْ يُتصوَّر للمجتمع وجودٌ ، ما لم يُوجدِ الرأس المفكِّر ، والدِّماغ المدبِّر . . .

أمَّا إذا كانتِ السِّيادة والرِّئاسة ، بيد الجاهل الطَّائش ، أوِ الشابِّ النَّزق ، أوِ الشَّيخ الخرِف ، أو مَنْ تتوق نفسُه للزَّعامة ، دون اسْتكماله أدواتها ـ فَيَالِضَياع ذاك المجتمع ودماره . . . !

وهل يُمكن للبيت أنْ يقوم على غير قواعد راسيةٍ ، وأُسُسٍ ثابتةٍ ، ودعاماتٍ مكينةٍ . . . ؟ !

وهل يُفيد الخِباء لاجئاً إليه ، قَدْ هَرَبَ مِنْ : وقْدة الهجير ، ولافح الصَّحراء ، إنْ لم يُفِيءِ الخباءُ ظلَّه ، حين ما يقوم العَمَدُ فِيْ وسَطِه ، والأوتادُ مِنْ جوانِبِه :

الْبَيْتُ لا يَبْتَنِيْ إلاَّ عَلَى عَمَدٍ . . .
وَلاَ عِمَادَ إذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
لاتَصْلُحُ النَّاسُ فُوضَى لا سُرَاةَ لَهُمْ
وَلاَ سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

أمَّا إذا رأى كلُّ واحدٍ لنفسه الزَّعامةَ ، وأعدَّ مِنْ نفسِه الرأْسَ والقائدَ ، فَقَدِ انحلَّتِ الرَّابطة بين هذا المجتمع ، وأصبح مهدَّداً بالانقراض والضَّياع . . . وخيرُما يُشبَّه به ، مزرعةُ بصَلٍ ، كلٌّ فيها رأْسٌ مستقلٌّ :

قَوْمِيْ رُؤُسٌ كُلُّهُمْ
أَرَأَيْتَ مَزْرَعَةَ الْبَصَلْ . . . ؟ !

***

والمجتمع بشبابه وشِيبه ، يجب أنْ يعرف كلٌّ واجبَه ، ويُقدِّر العضوُ الآخرَ مِنَ المجتمع ، ليبتنِيَ على أُسُسٍ مِنَ التَّفاهم ، وحبِّ الصَّالح العامِّ . . .

فلا ينجرف الشَّباب ، فِيْ : طيشه ، ونـزَقه ، والـرَفه ، التِيْ يـدعو لهـا فورانُ الشَّباب ، فيتردَّى فِيْ الميوعة ، فالفناء . . .

ولا يتحجَّر شيوخه ، فيضرب المثل فِيْ : تبلُّدِ الحسِّ ، وجمودِ العقليَّة ، وموتِ القلب . . .

فإنْ كان ذلك . . . فَقَدَ المجتمعُ حيويَّتَه ، ولم يجد مَنْ يثق به ، ويُظهره بالمظهر اللَّائق ، فهو مهدورُ الكرامة ، ميتُ الضَّمير :

شَــبَــابٌ طَــائِشٌ نَــزِقُ
وَشِــيْــبٌ مَــا بِــهِ رَمَــقُ
وشَــعْــبٌ طَــالِــبٌ ثِــقَــةً
فَــدُلُّــوْهُ بِمَــنْ يَــثِــقُ

***

وكـلُّ مَنْ فِيْ المجتمع ، تُـوجد لـديه الـرَّغبـة المنـدفعـة ، لِيَتَسلَّم ذروةَ الـرِّئاسـة ، ويُمسـك زِمـامَ القيـادة ، ولكن ذلـك محفـوفٌ بـالشَّـدائـد والمخاطر . . . وهذا ما يردُّ الكثيرَ عنها ! ؛ ولولا ما حُفَّتْ به مِنَ الأهـوال ، لكانتِ السِّيادة مُتاحةً لكلِّ أحدٍ .

ولعلَّ فِيْ طليعة خصائص الرِّئاسة : الشَّجاعة والجود ـ وهما تُوءمان :

الشَّجاعةُ بأطرافها : شجاعةُ القلب ، والعقل ، والجسم ؛ فلا يخشى صولةَ عدوٍّ ، ولا بطْشَ قويٍّ ، ولا كيْدَ محتالٍ .

والجود يُضارع فيه سخِيَّ الدِّيم ؛ فلا تتقبَّض يده عن مشروعٍ خـيِّرٍ ، أو مدِّ يَدِ العون ، لِضعيفٍ ، أو محتاجٍ ، وما إلى ذلك :

لَـوْلاَ اْلَمشَـقَّـةُ سَـادَ النَّـاسُ كـلُّهُـمُ
الْجُـوْدُ يُـفْـقِـرُ ؛ والإِقْـدَامُ قَـتَّـالُ

* * *

وهذه الشَّجاعة ، والفروسيَّة العربيَّة ، قَدْ يهيم فيهـا شخصٌ ، فيحتقر المخـاوف ، ولا يعرف قـاموس حيـاته معنىً لكلمـةِ « الخـوف » ؛ فـيرى فِيْ السَّرجِ العزَّةَ ، حتَّى لَيَراه أَعزَّ مكانٍ لديه . . .

فإنْ أضاف ـ إلى ذلك ـ روحاً أدبيَّةً ، مغرمةً بالأدب ، ترى فِيْ الكتاب غـذاءَ الروحِ ، وأنيسَ المجلسِ ، وصـديقَ الوحـدةِ ، قـال مـع المتنبِّيْ ، الشَّجاعِ الفارسِ ، والشَّاعرِ الخالدِ :

أَعَــزُّ مَكَـانٍ فِيْ الــدُّنَى سَـرْجُ سَـابِحٍ
وَخَــيْرُ جَــلِيْسٍ فِيْ الــزَّمَـانِ كِـتَـابُ

* * *

ونجد محبّاً ، بَلَغَ بـه الشَّوق ذِروتـه ، فَيَلومه مَنْ لم تعتلج نـار الشَّوق ، بـين جوانحـه ، ولم تَطْغَ بـه الصَّبابـة ، حتَّى تسلبه القـرار ، فَيُضجره هـذا اللاَّحِيْ ، وقَدْ خلا قلبُه مِنَ الحبِّ ، فكان كالجـدب الأقفر . . . لا يعـرف ما يُعانيه المحبُّ ، ولا يدرِيْ ما يُكَابده .

فلبس يُحسُّ بحـرارة نـار الحبِّ المضْـطَّرمـة ، إلاَّ مَنْ لامست شغــافَ قلبه ، فأبقتْ فيه الحروقَ الملتهبة :

لا يَـعْـرِفُ الشَّـوْقَ إلَّا مَـنْ يُكَـابِـدُهُ
وَلا الصَّبَـابَـةَ إلَّا مَنْ يُعَـانِيْهَـا . . . !

* * *

وتختلف الآراء فيْ : الـصَّـداقـة ، والصَّـديـق ، وتضْـطَّرب أيَّمـا اضْطِّرابٍ ! .

ذلـك أنَّ كلَّ إنسـانٍ ، ينظر إلى هـذا الموضـوع ، مِنْ خـلال تجـاريبـه الذَّاتيَّة ، فيُسجِّـل هذه التجـربة الخـاصَّة ، لِيَميـل إليها مَنْ يشبهـه فيْ هذه التجربة ، ويرى فيها صورةً له . . .

فـإنَّ مَنْ يـرى اخْتـلاف الـرأيِ بـين اثنـين ، ليس يُؤثِّـر عـلى الـودِّ ، ولا يفصم عرى المحبَّة ، يهتف كما هَتَفَ شوقِيْ على لسان المجنون :

اختِلَافُ الرَّأْيِ لَا يُفْسِدُ لِلْوُدِّ قَضِيَّةْ

* * *

وإنْ مَنْ لم يجدْ صديقاً يطمئنُّ إليه ، أو وَجَدَهُ واطمأنَّ إليه ، فخـاب فيْ النَّتيجة ، وطغَتْ عليه موجةُ هذا الخوف وأصبحتْ ـ لديه ـ عُقدةً مِنْ تكرار هذه التَّجاريب المريرة ، فصار فِيْ بحرٍ مِنَ الشَّكِّ ، قَدْ غرق فيه إلى أُذُنيـه ، واستشرى هـذا الشَّـكُّ ، حتَّى لم يعـد بقـادرٍ عـلى اصْـطفـاء مَنْ لا يشـكُّ فيه . . .

. . . إنَّـه لَيُردِّد مـع المتنبِّيْ ـ ودائماً مـع المتنبِّيْ فيْ كلِّ حـالـةٍ بشـريَّـةٍ ، وتجربةٍ اجتماعيَّةٍ :

وَصِـــرْتُ أَشُــكُّ فِي مَـــنْ أَصْــطَفِيْــهِ
لِــعِــلْمِــيْ أَنَّــهُ بَــعْــضُ الأَنَــامِ

* * *

وتبلغ عند بعضهم هذه العُقدة أقصى حدودها ، حتّى أنَّه لَيَحذر مِنْ صديقه ـ وبئس الصَّديق يحذر منه صديقه ! ـ أكثر ممَّا يحذر مِنْ عدوِّه . . . ! لأنَّ هذا الصَّديق ، المطَّلع على السَّرائر ، يكون أدرى بطُرق الإضرار ، مِنْ عدوٍّ بعيدٍ . . . فيهتف مع هذا النَّاظم :

اِحْــذَرْ عَــدُوَّكَ مَــرَّةً . . .
واحْــذَرْ صَـدِيْقَــكَ أَلْفَ مَــرَّةْ !
فَــلَرُبَّمَــا انْــقَــلَبَ الــصَّــدِيْـ
ـقُ وَصَــارَ أَدْرَى بِــالْمَضَــرَّةْ . . . !

وقَـدْ فات عـلى هذا النَّـاظم ، أنَّ مَنْ حذَّر منـه ، ليس بصـديقٍ ، ولا يُمكن أنْ يُعطى هذه الصِّفة . . .

. . . فهو عدوٌّ مخادعٌ محتالٌ ، فِيْ ثوب منافقٍ ، لم يتَّصـل بذاك ، الـذِيْ موَّه عليه عداءَه بمظهر الصَّداقة ، إلَّا وهو ذو هـدفٍ دُونٍ ، وغايـةٍ منحطَّةٍ ، يعمل على تحقيقها ، ويهدف إليها ، منذ يوم تعرَّف فيه به ، أو تـظاهر بهـذه الصَّداقة الكاذبة . . .

. . . فمتى انتهتْ غايتُه ـ بنجـاحٍ ، أو فشلٍ ـ كشَّر عن نـابه ، وخلع عنه مستعار الأصباغ ! .

* * *

وهنـاكَ مَنْ طُبعت روحـهُ ، عـلى حبِّ التَّقلّب والتّغيير ؛ فله كـلَّ يـومٍ صـديقٌ ، حيث لا يعرف مـع صـديقٍ قـراراً ، فكـأنّما قلبـه قَـدِ اشْتُقَّ مِنَ التَّقلُّب :

وَمَـا سُـمِّيَ الإنْسَـانُ إلاَّ لِنَـسْيِـهِ
وَلاَ الْـقَـلْبُ إلاَّ أنَّـهُ يَـتَـقَـلَّـبُ

والصُّوَر ـ كما قلنا ـ لدى هؤُلاءِ ، وعنهم ، كثيرةٌ ، لأنَّها تُسجِّل العديد مِنْ هذه التَّجاريب . . .

فصديقٌ نجده يُخاطب صاحبه ، حين مـا يرى منه الموقف الغـائم ، فلا يعرف فيه نفسَه ، ولا موقفَه منه :

أهو ذاكَ الصَّديقُ الحميمُ ؟ ، أوِ العدوُّ البغيضُ ؟ .

ويُريد أنْ يكون مِنْ ذلك على واسعِ المعرفة ، ويكـون مِنْ أمْرِ صـديقه على بيِّنةٍ .

وهو ـ إلى رغبته فِيْ هذه المعرفة ـ لا يرضى بالحلِّ الوسط ـ كما يقـولون ـ ولا بأنصاف الحلول . . . فإمَّا عدوٌّ ، وإمَّا صديقٌ :

فَـإمَّـا أنْ تَـكُـوْنَ أَخِـيْ بِـحَـقٍّ . . .
فَـأَعْـرِفُ مِـنْـكَ غَثِّيْ مِـنْ سَـمِـيْـنِيْ
وإلاَّ فَـاطَّـرِحْـنِيْ وَاتَّخِـذْنِيْ
عَـدُوّاً أَتَّـقِـيْـكَ وَتَـتَّـقِـيْـنِيْ

* * *

وقَـدْ تتضاعف تلك العقـدة المستعصية ـ وقَـدْ ولَّدتهـا هـذه التَّجـارب

وإنَّنا لَنَقف كثيراً عند هذه الفقرة مِنْ مقاله ، إذ يقول :

القاسية ، فِيْ موجع ألمها ـ حتَّى يلجأ معها المرءُ ، بعد ذلك الفشَل المتواصِل إلى : العزلة ، والوحدة ، والانفراد . . .

بل ويزيد على مرتبة الشَّك فِيْ الإنسان ، التِيْ شهدناها عند المتنبِّيْ ، حتَّى يبلغ إلى كُرْهِ بنِيْ جنسِه ، ووحشته مِنْ صوْت أخيه الإنسان ، ويستعيض عنه بالوحش الفاتك ، والحيوان المفترس . . .

. . . وإنَّه لَيَأنس بهذا ، بمقدار وحْشته مِنْ ذاك ، وقَدْ صَوَّرَ ذلك شاعرٌ مهوِّسٌ ، فِيْ هذا البيت :

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إذْ عَوَى
وَصَوَّتَ إنْسَانٌ فَكِدْتُ أطِيْرُ[1] . . . !

* * *

وهذه الصُّوَر المحزنة الكئيبة ، بفشلها ، وخيبتها ، ومرارتها ، لا تعنِيْ انْعدام الصَّديق ، حيث بَلَغَ عند بعضهم عدُّه مِنْ أوَّل المستحيلات . . .

وليس مِنْ سبيلٍ إلى نكرانِ وجود صداقاتٍ ، هِيَ مثالٌ للوفاء والاحترام ، والودِّ والإخلاص ، حيث يستريح الصَّديقُ لصديقه ، فينسى همومه ، ويراه المفْزعَ والمْلجأ له فِيْ المهمَّات ، ومستودعَ السرِّ ، وملتقى الأملِ ، وسامعَ الشَّكوى . . . فإنَّه لابُدَّ للإنسان أنْ يشكو هومَه وآلامَه ، وليس كلُّ فردٍ يُشتكى إليه :

---

(١) ربما يُفهم مِنْ عجز البيت ، غير الذي أشرنا إليه ؛ فهو يكاد يطير فرحاً لصوت الإنسان ؛ إلاَّ أنَّ سياق البيت ـ بضمِّ العجز إلى الصَّدر ـ يأبى هذا الفهم .

وَلابُـدَّ مِـنْ شَـكْـوَى إلى ذِيْ مُـرُوْءَةٍ
يُـوَاسِيْـكَ ، أوْ يُسْلِيْـكَ ، أوْ يَتَـوَجَّـعُ

* * *

ومتى تعمَّقتِ الصداقةُ بين اثنين ـ إلى حدٍّ بعيدٍ ـ عدَّ كلُّ واحدٍ أصدقاءَ صديقه ، فِيْ عداد أصدقائه هو . . . وكذلك يعدُّ أعـداءَ صديقـه ، مِنْ بين أعدائه :

صَـدِيْقُ صَـدِيْقِيْ دَاخِـلٌ فِيْ صَـدَاقَتِيْ
عَـدُوُّ صَـدِيْـقِيْ لَـيْسَ لِيْ بِصَـدِيـقِ !

* * *

ولعـلَّ أزهى صورةٍ لِصُـوَر الصَّديق الـوفيِّ ، هِيَ وصْفُ الإمام الحسن ـ عليه السَّلام ـ له :

[**صَاحِبْ مَـنْ إذَا صَحِبْتَهُ زَانَكَ**] .

إلى آخـر هـذه الكلمات القيِّمـة ، التِيْ تُصـوِّر مَنْ يجـب أنْ يُختـار للصَّداقة .

وكـما أنَّه لا سبيـل إلى نُكران وجـود ذلـك الصَّـديق الصَّـدوق ـ فـإنَّـه لا مجال ، أيضاً ، للإدِّعاء بكثرة وجوده . . . !

وأقـلُّ مِنْ ذلك وجـودُ الصَّديقـين ، يكونـانِ على مستـوىً واحدٍ ، مِنْ توافر هذه الصِّفات عند كليهما . . . !

* * *

ولاشكَّ أنَّ الصَّداقة أثرَها فِيْ نفس الآخر ، بتجاوبِ المشاعـر ، وتأْثـير كلٍّ فِيْ حياة الآخر ، وعاداته . . .

فـإذا توافـرتْ فيهما الصِّفـات الفضـلى ، كـانتْ حيـاتهـما مثـالاً للخـير والحُسْن ؛ وبـالعكسِ العكسُ . . . لأنَّ التَّـأْثـير مفـروضٌ ، وَلا مجـال لِنُكرانه .

ولذا نجد مَنْ يقول :

صَـاحِـبْ أَخَـا ثِقَـةٍ تُحْظَ بِـصُحْبَتِـهِ
فَـالطَّبْـعُ مُكْتَسَبٌ مِنْ كـلِّ مَصْحُـوْبِ
كَـالـرِّيْـحِ آخِـذَةٌ مِمَّـا تَمُـرُّ بِـهِ . . .
نَتْنـاً مِنَ النَّتْنِ ، أَوْ طِيْبـاً مِـنَ الـطِّيْبِ

* * *

ومِنْ عجبٍ أنْ نجد مَنْ يُحاول نُكران وجود الصَّديق الوفِيِّ ، ثمّ يكـون هو أوَّلَ مَنْ يدوس الوفاء بقدميه ، ويهدر حقوقه بيديـه ؛ ويروح ينعى عـدَمَ وجـود الصَّديق ، فِيْ مجـالاتٍ عديـدةٍ ، وبصورة الـوعْظ والإرشاد ، حيث يُعيد لنا صورة الخطيب الهندِيِّ فِيْ قوله :

« أنَا كَلُّمْ أَنْتَ سَوِّيْ . أَنـا سَوِّيْ أَنْتَ لاَ » !

ـ أيْ : اتَّبعْ كلامِيْ ، وتجنَّب أعمالِيْ .

إنَّ مثل هذا مِمَّن عناهم شوقِيْ ، بثانِيْ هذين البيتين :

وإذا الْمُـعَـلِّمُ سَـاءَ لَحظَ بَـصِـيْـرَةٍ
جَـاءَتْ عَـلَى يَـدِهِ البَصَـائِـرُ حُـوْلاَ
وَإذَا أَتَى الإِرْشَـادُ مِـنْ سَـبَـبِ الْهَـوَى
وَمِـنَ الْغُـرُوْرِ فَـسَـمِّـهِ الـتَّـضْـلِيـلاَ

* * *

وبعْدُ . . . فأنا لا أُريد أنْ أتتبَّـع هذه الأمثـال ، التِيْ تُسجِّل خلجـات الإنسان ، وتعرض لَمَسَات فنِّه ، وتُقدِّم عُصارةَ تجـاريبه ، وهِيَ التِيْ لا تـأْتِيْ عليها طِوال المجلَّدات ، بلهَ قصارَ الصفحات ! .

ولَقَـدْ شئتُ أنْ أقتصر عـلى أقـلَّ منهـا ؛ ولكن رأيتُ لسـانِيْ يُـردِّد بيتـاً جديداً ، كلَّ ما أودعتُ نبضَـة بيتٍ ، على هـذه السطور ، فـاضطررتُ أنْ أقف عند هذا الحدِّ ، ولا تزال طائفةٌ كبرى ، تردَّد على لسانِيْ ، ولكن :

(لا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ) .

وقَـدْ سجَّلتُ ما سجَّلتُ دون تخـيُّر لبيتٍ ، أو تحيُّزٍ لشـاعرٍ ، أو تحـزُّبٍ لعصرٍ ، أورغبةٍ خاصَّةٍ فِيْ : تقديمٍ ، أَوْ تـأْخيرٍ . . . بـل إنَّ كلَّ ذلـك جاء عفويّاً .

فإنْ كان ـ ثمَّة ـ تبعةٌ ، فِيْ تقـديم بيتٍ ، أو تأْخـير آخر ، فـالتَّبعةُ تقـع عـلى الذَّاكـرة ، وحدهـا ، لأنّها هِيَ التِيْ أمْلَتْ هـذه الأبيـات ، وعـرضتْ صُوَرها المختزنة ، فِيْ العقل الباطن .

ولم يكن لليراع فيها ، إلاَّ مَا لِـريشة الـرَّسَّام ، فِيْ اللَّمسـات ، وتنسيق الألوان . . .

وبهذا فإنَّه قَدْ جاء برهنةً لِمَا قلتُ :

إنَّ هـذا الجـانب الممتـاز ، مِنْ تـراثنـا الأدبيِّ الضَّخم ، لم يكن مختصّـاً بعصرٍ دون عصرٍ ؛ فَقَـدْ جمعتْ هذه الإضـامةُ عـديداً مِنَ العصـور ، حتَّى قرننا هذا . . .

وتكاد لا تُمَيِّزُ - فِيْ بعضها - بين : جاهليَّة القديم ، وحاضره المحدَث ، وبينهما ما تعلَم مِنَ : الآماد البِعاد ، والظُّروف الحياتيَّة والفكريَّـة ، بما فيهـا مِن : اختلافٍ ، وتباينٍ . . .

ولكن الحيـاة تمدُّ الجميـعَ بالقـوَّة . . . فهو مِنْ صميم الحيـاة ، يـرسم واقعَها ، الذِيْ لا تتغيَّر ظواهره ونواحيه .

وأعود فأُكـرِّر القولَ بـأنَّ هذه النَّـاحية ، لم تكن فِيْ الشعـر وحده ، مِنْ تراث الأدب العربيِّ . . . فَفِيْ النَّثر - أيضاً - ثروةٌ كبرى ، لا تقـلُّ شأْنـاً عن هذه . . . ولكنَّ ميزةَ هذه : الوزنُ ، الـذِيْ سهَّل حفْـظها ، فكـان بذلـك ميزتُها . . .

القطيف : { ٠٥/٤/١٣٨١هـ
١٦/٩/١٩٦١م }



حنينٌ إلى أعزِّ ما فِيْ الوجود ، وأغلى ما فِيْ الحياة . . .

إلى أُمٍّ حنونٍ رؤُومٍ ، حيث تُثير الـذِّكرى رواسبَ الحنـين ، إلى ذلك العشِّ ، الـذِيْ يُشيـع دفْءَ الحيـاة ، ويُحيـل بَـرْدهـا إلى حـرارةٍ ، ويُفجِّـر الطَّاقات الكامنة .

أُمَّــاهُ . . . !

هذا النِّداءُ الحلْو ، الذِيْ يُعبِّر عمَّا يحمله قلبُ الولَـد نحو أُمِّـه الرَّؤُوم ، وهو يُناديها بهذا النِّداء الملائِكيِّ ، لِيُعبِّر به عنِ الحـاجة ، والتَّعلُّق ، بـذلك العشِّ الذِيْ احْتضنه ، وهو يحذَر عليه ويرعاه ، ويتحوَّطه ويُحيط به ، لِيَدفع عنه كلَّ أذى . . . مثل ما يُطبق الجفْن على سُويداء العين .

. . . فَهِيَ تبذل كلَّ ما فِيْ وُسْعِها ، فِيْ سبيـل راحة هـذا الوليـد ، حتَّى أنَّها لَتُضحِّيَ بكلِّ راحتها ، كَيْ ما تُوفِّر له أسبابَ الهناءة والرَّاحة ، حتَّى ولَوِ اشتدَّ به السَّاعد ، فَهِيَ تخشى عليه وترعاه . . .

وهِيَ تلتذُّ بهذا النِّداء ، الذِيْ يُثير فيها مـا هَجَعَ مِنْ عـاطفة الأمُـومة ، وتُعبِّر هِيَ عن جيَّاش عاطفتها فِيْ كلمةٍ بسيطةٍ ، تحمـل مثل مـا يحمل ذلـك النِّداءُ مِنْ : قداسةِ الحرف ، وعُمْق الكلمة :

« وَلَـــدِيْ ! » .

. . . فتتجمَّـع كلُّ العـواطف التِيْ تربط بـين : الأمِّ ، والابن ، وتشدُّ

بينهما برباطها المقدَّس .

حنينٌ إلى هذا النِّداء ، حيث حِيل بينيْ وبينه . . . فلم يبقَ إلَّا الحنين إلى ذلك القلْب ، الذِيْ يسيل محبَّةً . . . إلى ذلك العشِّ الذِيْ فِيْ حضنه ربيتُ ، وفيه أحسستُ بدِفْءِ الحياة ، إذا إشتدَّ فيها القرُّ ؛ وببرودتها ، إذا اتَّقد فِيْ الوجود اللَّهيبُ . . .

حنينٌ إلى ذلك النِّداء ، حيث أتسمَّع بعده ذلك الصَّوت ، الذِيْ تشدُّنِيْ به عاطفةٌ جامحةٌ ، وحبٌّ عميقٌ . . .

ولم يبقَ إلَّا أنْ أهتفَ مع الشاعر ، فِيْ حرارةٍ دعائِهِ :

رَبِّيْ ! سَأَلْتُكَ بِاسْمِهِنَّهْ
أَنْ تَفْرِشَ الدُّنْيَا لَهُنَّهْ
بِالْوَرْدِ إِنْ سَمَحَتْ يَدَا
كَ وَبِالْبَنَفْسَجِ بَعْدَهُنَّهْ

* * *

حنينٌ إلى زوجٍ ، هِيَ فِيْ الحياة شريكة السَّرَّاء والضَّرَّاء ؛ وهِيَ فِيْ الوجود تكملةٌ وتمامٌ ، وهِيَ فِيْ البيت مدرسةٌ ، ترعى ثمارَ هذه الحياة المشترَكة . . .

حنينُ آدمَ إلى حوَّائه . . . فَمَنِ افْتَقَدَ هذا الحنينَ ، فقَدِ افْتَقَدَ الجزءَ المتمِّمَ لبشريَّته . . . وتعطَّلتْ ـ عنِ العمل ـ فيه إحدى رئتيه ، التِيْ بها يتنفَّس ، لكَيْ يعيش . . . ولكَيْ تستمرَّ بعده الحياة . . .

* * *

حنينٌ إلى تلك الزَّهرات اليانعات ، التِي تُذيع الشَّذى الفاغم ، والمرحَ الطَّاهر ، فِي البيت . . . إلى تلك العصافير التِي تملأ الجوَّ زقرقةً ، دونها الأنغام الموسيقيَّة : لذَّةً ، وروعةً . . . إلى ثمار الحياة ، وعُصارة الوجود . . . إلى مَنْ تستمرُّ حياة المرء فيهم . . .

« بَابَا . بَابَا » .

تلك النَّغمةُ الموسيقيَّة ، تنطلق مِنْ هذه الحناجر النَّاعمة .

هذا النِّداءُ الحلو . . . هذا الهُتافُ اللَّذيذ ، الذِي يُشيع فِي النَّفس الفرحةَ ، ويملأُ الوجود سعادةً ، وينشر فِي البيت غبطةً ، ويُحيل الصَّمتَ إلى نطْقٍ ، والسُّكونَ إلى حركةٍ . . .

نازِك !

نَدَى !

عَلِي !

قَيْس ! [1] .

نداءٌ ينطلق مِنْ فم أبٍ ، على قِطَع مِنْ كبده ، يراها تدبُّ على الأرض ؛ فيوجِّه تلك ، أو يأْمر هذه ؛ ويُلاطف هذا ، أو يزجر ذاك . . .

***

حنينٌ إلى هؤُلاء جميعاً ، حتَّى يطغى الحنين ، ويأْخذ بمجامع النَّفس ،

(١) كان هؤلاء همُ الموجودين وقتئذٍ . وقد أنعم الله ـ بعدئذٍ ـ بزهراتٍ أُخرياتٍ ؛ بقي منهم : ياسر . نسرين . سميَّة .

ويسدَّ منافذَ الحياة ، فلا ينظر إلاَّ مِنْ نافذة هذا الحنين ، فتتجسَّد الصُّوَر فِيْ شريطٍ مسلْسَلٍ ، يجترُّ الماضِيَ الجميل ، فِيْ قاحل الحاضر الرَّهيب .

وتُلحُّ تلك الصُّوَر ، بما تحمل مِنْ ذِكرياتها الحلوة ، وتتلاحق فِيْ اليقظة ، وفِيْ النَّوم ، بصُورةٍ مسلْسلَةٍ ، فتنبجس دموعٌ ، فيها كلُّ معانِيْ الشَّوق والحنين ، والحُرقة إلى اللِّقاء . . .

ولكنَّ أصابعَ اليدَين ، تتحرَّك ـ كوميض البرْق ـ لِتُكفكف ، مِنَ الدُّموع ، ما ترقرق ، لئلاَّ تُلمح على الوجه ، كأثرٍ للضَّعف الإنسانِيِّ ، حيث يجب أنْ يتوارى ، فِيْ مثل هذا الموقف الرُّجولِيِّ الحازم . . .

* * *

ثمَّ حنينٌ إلى تلك الثِّمار الفكريَّة ، إلى الأبناء « الرُّوحيِّين » ـ كما أُسميهم .

إلى تلك الدَّفاتر التِيْ أودعتُها عصارةَ عقلِيْ ، وخلاصةَ أحاسيسِيْ ، فنبضتْ فيها روحِيْ ، وسال فيها فكرِيْ ، وحملتْ تجارِبِيْ . . .

إلى تلك الكُتُب ، التِيْ رأى بعضُها النُّورَ ، وبعضُها ينتظر الانفلاتَ ، مِنْ حيِّزه الضَّيِّق ، إلى الأفُق الأوْسع ، لِيَلْقَى حظَّه فِيْ الحياة ، ويُؤدِّيَ رسالتَه ، التِيْ أنا حريصٌ على الحفاظ عليها . . .

* * *

جنينٌ إلى غرفةٍ تضمُّ هذه الخلاصة ، إلى جانب ما تضمُّ مِنَ مجلَّداتٍ ، هِيَ عصارةُ العديد مِنَ الأفكار ، فِيْ العديد مِنَ : العصور ، والأزمان ، والبلاد ؛ هِيَ غذاءُ الرُّوح والفكر . . .

وحنينٌ إلى ما تحفل به هذه الغرفة ـ مساء كلّ يومٍ ـ مِنْ جلسات ، تضمُّ النُّخبة مِنَ الأدباء ، مِنَ الإخوان الأعزّاء ، والأصدقاء الخلّص [1] ، تتناول أشتاتاً مِنَ الأحاديث الأدبيَّة والتأْريخيَّة والاجتماعيَّة ، وغير هذا وذاك ، مِنْ أنواع الحديث ، وفنون القول . . .

* * *

حنينٌ إلى القلم الذِيْ هجرتُه ، طيلة هذه المدَّة ، فلم تتنزَّل عليه رشحاتُ الفِكر ، هابطةً مِنْ سماء الوحْيِ ، حتَّى أثار الحنينَ الملتهبَ ، فتساقطتْ هذه الرَّشحة ، وأنا أُحاول ردَّها ، لِتُمَثِّلَ هذه الفترةُ الجمودَ والقحلَ ، فِيْ جميع مجاليه .

ولكنِّيْ لم أستطع أنْ أردَّها فِيْ النِّهاية ، رغم ما وراء ذلك مِنْ صعابٍ ، تعترض مسَّ اليراع ، بين جدران السِّجن ، وهو فيه مِنَ المحرَّمات ، التِيْ يطالها العقاب [2] . . .

حنينٌ إلى الوطن ، الذِيْ خُلقتُ مِنْ تربته ، وتنسَّمتُ هواءه ، وتنشَّقتُ عِطره ، وسرى حبُّه منِّيْ فِيْ الدَّم ، وملأ منِّيَ الخلايا ، فنذرتُ

(١) لم نختصَّ هؤلاء بذكر الحنين إليهم ـ رغم شدَّة فورانه ـ لأنَّ اللِّقاء بهم تكرَّر ـ رغم صعوبته ـ فكان مِنْ نوع المسكِّن للحنين إليهم .

أمّا مَن اختصصناهم بالحنين ، فهُم الذين لم يُقدَّر اللِّقاء بهم ، منذ أوَّل يومٍ في السِّجن ، حتَّى اليوم (*) ، إلاَّ في عالم الذِّكرى ، حيث تضع صورَهم أمام العين .

(٢) لقد تغلَّبت على هذه العقبات ـ مرَّةً أخرى ـ وبعد تسجيل هذا الحنين باثني عشر يوماً ، فكتبت عنِ (الزَّيف) ، التي أصبحت حلقةً في كتابنا (أدواؤُنا) ، الذي سبق طبعه هذا الكتاب .

. . . .

(*) وصحَّ أنْ نُضيف كلمة « الأخير » ، حيث لم يُقدَّرِ اللِّقاء ، إلاَّ بعد الخروج مِنْ جدران السِّجن ـ والحمد لله .

نفسِـيْ فِيْ خدمته ، وأوقفتُ حبِّيْ عليه ، و :

« **حبُّ الْوَطَنِ مِنَ الإيْمَانِ** » . . .

حنينٌ إلى وطنٍ أحببتُه ، حتّى ولو ألقى منه الحِرمان .

فإذا كان الشّاعر يعنيْ ما يقول ، حين ما هَتَفَ بوطِنِه :

بِـلاَدِيْ ـ وَإِنْ جَـارَتْ عَـلَيَّ ـ عَـزِيْـزَةٌ !
وَأَهْـلِيْ ـ وَإِنْ ضَـنُّـوْا عَـلَيَّ ـ كِـرَامُ !

فكيف بمَنْ رأى مِنْ بلادِهِ الجميلَ ، ومِنْ أهلِهِ الكرَمَ . . . ؟

****

حنينٌ إلى كلِّ ما ألفتُ مِنْ حياةٍ ، بكلِّ ما فيها مِنْ : أهلٍ ، وأصحابٍ ومعارفَ ؛ وما فيها مِنْ مظاهر الحياة .

إلى بيتٍ عشتُ فيه . . . وأرضٍ ربيتُ فيها . . . وطريقٍ سلكتُه . . . وممرٍّ وطأْتُه . . .

حنينٌ إلى تلك الحياة التِيْ ألفتُ . . .

وما أصدق قول أبِيْ الطيب ، الذِيْ يُعبِّر عن مثل هذا الحنين ، ويُغنِيْ فيه « اخْتِصَارُ الْقَوْلِ عَنْ تَطْوِيْلِهِ » :

خُلِقْتُ أَلُـوفـاً لَـوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَـا
لَفَـارَقْتُ شَيْبِيْ مُـوْجَـعَ الْقَلْبِ بَـاكِيَـا

****

حنينٌ إلى هذا كلِّه . . .

حنينٌ بَلَغَ القمَّة . . .

وعسى أنْ يُقدِّر الله اللِّقاء العاجلَ ، لِيُرَوِّيَ هذا الحنينَ الملتهب . . .

سِجْنُ المَلزِّ بالرِّياض ـ الثُّلاثاء : ١٥/ ٢/ ١٣٨٢ هـ — ١٧/ ٧/ ١٩٦٢ م

العِبْرة مِنَ التَّأْريخ

كُتبتْ لصحيفةٍ دوريَّةٍ ، أصْدرها مجلس الحَيِّ ، بمركز الخدمة الاجتماعيَّة بالقطيف - يوم كان الكاتبُ ، يرْأس هذا المجلسَ - ونُشرتْ فيْ عددها الأوَّل .

تدور عجلة الزَّمَنِ ، بِثِقل وطْأَتِها ، فَيَسقط تحتها العـديدُ مِنَ النـاس ، يتلاشونَ فِيْ العدم ؛ وتتناثـر الأيَّام ، فتنْمَحِيْ مِنَ الـوجود ، بمـا فيها مِنْ : تفيه الأحداث ، وعظيم الأمور .

ولكن يبقى ـ مِنْ هـذا وذاك ـ ما يتغلَّب عـلى التلاشِـيْ ، ويقـوى على العدم ، ويصعب على الانمحاء ، فلا تستطيع تلك العجلة ـ فِيْ : قسْوتها ، وبطْشها ـ أنْ تطحن هذا القوِيَّ المتغلِّبَ الصعبَ ؛ بل يبقى قويّاً خالداً .

وهذا وذاك ما يُكوِّن الشخصيَّات التأْريخيَّة ، أوِ الأحـداثَ التأْريخيَّـة ، وتلك وهذه ، هِيَ التِيْ تُكوِّن مادَّة التأْريخ .

فالزَّمَنُ يـطوِيْ الأيَّام بـأحداثهـا ، فَتُوغـل فِيْ العَدَم ، حتَّى ولـو كانت قـريبةً منـكَ ؛ بحيث لا تكاد تـذكر حَـدَثاً ، وَقَـعَ أمام عينيـكَ ، فِيْ اليـوم القريب منكَ . . .

. . . فِيْ حـين أنَّـكَ تُلمُّ بـالحَـدَث الضَّخْم ، الـذِيْ دار عليـه الـزَّمَنُ بعجلته ألوفَ ـ أو مـلايينَ ـ الـدَّورات ، حتَّى كأنّـكَ تنظر إلى الحـدَث ، يمرُّ عليكَ بفصوله ، مثل ما تنظر إلى الشَّريط المتتابع ، يُعرض أمام ناظرَيكَ .

والزَّمَنُ يدور ، وفِيْ دورته تنتهِيْ حياة كثيرين ، فلا يكـاد ينطبِق عليهِمُ اللَّحْدُ ، حتَّى يصل بهِمُ النِّسيان إلى أعماقه ، فلا تذكر منهم باهتَ الشَّبَح ، وهُمُ الـذين كانـوا ينتصبون أمـام عينيكَ ، بقـامـاتِهِمُ المـديـدة ، وأذرعِهِمُ المفتولة ، وعضلاتِهِمُ القويَّة . . .

. . . فِيْ الوقت الذِيْ تمـلأ فكركَ وعقلكَ ، شخصيَّـاتٌ انطوى عليهـا الـزَّمَنُ ، وراحتْ فِيْ غِمار المـاضِـيْ البعيد ، وبـين تلافيفـه الكِثر . . . ومِنْ بينِهمُ العـدَد الوفـير ، الذين لم تلتقطْ صـورتَهم باصـ ـُكَ ، ولكن عـرفتَهم بفكركَ وعقلكَ . . .

لذلكَ يجب أنْ يُسَجَّل التأْريخُ بأمانةٍ ونزاهةٍ .

وعلى المؤرِّخ أنْ يتلزم ـ فِيْ كتابته ـ جانبَ الصِّـدق والحِياد ، وأنْ يبتعـد عنِ العاطفة الجامحة ، والهوى الطَّاغِيْ ، فلا يتأثَّر بالصَّـداقة والـولاء ، وهو يكتبُ عن حدثٍ يهواه ، أو شخصٍ يُحبُّه ؛ ولا ينجرف مع كرهـه ونفوره ، حين ما يكتب عن : حدَثٍ لا يشتهيه ، أو شخصٍ لا يهواه ، أو يُزاحمـه فِيْ فَنٍّ مِنَ الفنون ، أو عملٍ مِنَ الأعمال ، أو يبذُّه فيهما ، ويتفوَّق عليه . . .

. . . فتفعل العاطفةُ فعْلَها المشين ، حتَّى تصل به الأنانيَّـةُ الهوجـاء إلى نكـران هـذا الفضْـل ، وتنـاسِـيْ هـذه المـزايـا ، إنْ لم يكن إلى مسْـخ تلك القِيَمَ ، التِيْ تتـوافر فِيْ هـذا المزاحِم دونـه ؛ وإنْ لم تصل إلى قلْبِ مـا لـديـه ـ مِنْ : مزايا ، وقِيَمٍ ، وفضْلٍ ـ إلى الضدِّ . . . !

التـأْريخ أمـانةٌ . والأمـانـةُ ذاتُ عبءٍ ثقيـلٍ . وهِيَ أوَّل عنصرٍ يجب توفُّره فِيْ التأْريخ ، وفِيْ كاتب التأْريخ .

فَمَنِ اختلَّ فِيْ يديه ميزان الأمانة ، سقطتْ قيمتُه ، وقيمةُ تأْريخه ، مهما بَذَلَ مِنْ جهْدٍ ، ومهما حاول ـ وبالغ فِيْ محاولته ـ أنْ يُظهِر جهْدَه ، ومهما أخذَ عملُه هــذا مِنَ الـوقت الــطَّويــل ، وإنْ بَلَغَ مِنَ الأعــوام عشراتِهــا ، أو مئاتِها . . .

. . . فهو عمَلٌ تفيهٌ ، وهو عَمَلٌ حقيرٌ ، وهـو عَمَلٌ مـردودٌ عليه ؛ بـل ومنقومٌ عليه ، لأنّه يفقِد الأمانةَ ، ولأنّه إملاءُ ضميرٍ ، أقلُّ مـا يُوصف بـأنَّه مريضٌ .

والتأْريخُ الصَّادقُ المجرَّدُ مِنَ الهوى ، والمكتوبُ بأمانةٍ ، تراثُ الأجيالِ الغابرة ، للأجيالِ الآتية . والرِّباطُ بين : ماضٍ سحيقٍ ، وحاضرٍ عتيدٍ ، ومستقبلٍ آتٍ .

وقَدْ سَبَقَ لِيَ القولُ : بأنَّ أُمَّةً لا ماضِـيَ لها ، هِيَ أُمَّـةٌ بتراءُ ، مجـذوذةُ الأصل ، لم تتلمَّسْ طريقَهَا ، ولم تشقَّ دربَهَا ، ولم تستقمْ ساقاهـا ، فَهِيَ فِيْ طوْرِ الزَّحف والحبْو ، بعيدةً عنِ المشْيِ ، بَلْهَ الصعودَ والارتقاءَ .

ومـا التأْريـخ سوى السِّجِـلِّ الحافـلِ للماضِـيْ ، والـتِّراثِ المقدَّم مِنْ جيلٍ لآخر ، بحيث يُضيف إليـه هذا الجيـلُ ما جـدَّ ، ويُسلمه لجيـلٍ آخر يتلوه .

* * *

وهنـا نضـع سؤالاً ألـحَّ فِيْ الـبروز ، منــذ الحـرف الأوَّل ، مِنْ هــذه السُّطور :

مـا هِيَ الفائـدةِ التِيْ تعود علينـا ، حين مـا نقـرأُ مِنَ التـأْريـخ إحـدى صفحاته ؟ .

وتختلف الفائدةُ ، ويـزداد النَّفع ، أو يقـلُّ ، بين : قـارىءٍ تأْريـخٍ ، وقـارىءٍ تأْريـخٍ . . . وقدْ يختلف ذلـك ، بـاختـلاف الغـايـة ، مِنْ هـذه القـراءة . . . ثمَّ قَدْ يختلف ، بـين : قـراءةِ تـأْريـخٍ ، وآخـر . . . ثمَّ قـدْ يختلف ، باخْتلاف إدراك ووَعْيِ هذا القارِىءِ .

ولكن يجب أنْ يضع قارئ التأريخ ، نُصْبَ عينيه « العِبْرَة » مِنَ التأْريخ . وهذا يُمكن أنْ يتساوى فيه كلُّ قارئٍ ، وأنْ يستفيد كلٌّ مِنْ ذلك فِيْ حياته .

فأهمُّ ما فِيْ قراءة التأْريخ هو « الاعتبارُ » وتطويرُ هذا الاعتبار ، بحيث تتبلور الحياة الشخصيَّة وتستفيد مِنَ العِبرة .

حين ما نفتح صفحةً مِنَ التأْريخ ، تحفل بسطورٍ مِنْ حياة مصلحٍ ، أو حياة بطلٍ ، أو حياة فنَّانٍ ـ بمعنى الفنِّ الواسع ـ علينا أنْ ندرس هذه الصَّفحة ـ وهِيَ جانبٌ مِنْ حياته ـ دراسةً دقيقةً واعيةً ، دراسةً تعود علينا بالنَّفع . . .

. . . وهو : بذْرُ هذه القِيَم ، فِيْ قلوبنا ؛ وغرْسُ حبِّ هذه الخِصال ، فِيْ نفوسنا ؛ لِكَيْ نجعل مِنْ حياة هذا المصلح نبراساً ، يُنير لنا المدلهمَّ مِنْ طريق حياتنا ، وصُوىً لِحفظنا مِنَ التِّيه ، والضَّياع .

بل إنَّنا قادرون على الاستفادة مِنَ « العِبرة » حتَّى ولو قرأْنَا صفحةً ، مليئةً بمخازِيْ طاغيةٍ ؛ أوِ استبدادِ جائرٍ ؛ أو سفالِ فتَّاكٍ ؛ أو جرائمِ محتالٍ ، وقطَّاعِ طريقٍ ؛ أو قَصَصِ بخيلٍ وصعلوكٍ . . .

إنَّ ما نستفيده مِنْ قِراءة مثل هذه السُّطور القاتمة ، هو : أنْ نُربِّيَ فِيْ نفوسنا النُّفرةَ مِنْ هذه الأعمال الشَّائنة ، والعاداتِ القِباح ، ونُعمِّقَ فِيْ قلوبنا الكرهَ لها ، حتَّى نعافها ونتجنَّبها .

***

وحين ما نجد مِنَ التأْريخ ذلك المسجِّلَ الدقيق ، الذِيْ يُسجِّل المهنة إلى

جانب جليل العمل ، فإنَّنا نُحاول أنْ نتَّعظ ونعْتبر . . .

. . . فلا نرضى لأنفسنا ، أنْ نكون عِظةً لغيرنا ؛ أو لعنةً لجيلنا ؛ أو تركةً بغيضةً ، مثقلةً بالخزْيِ والعارِ ، لِوَرثتنا مِنَ الجيل الجديد . . .

بل علينا أنْ نتَّعظ بِمَنْ سَلَفَ ، ونُحاول الحصول على كريم الذِّكر ، وطيِّب الأحدوثة ـ وهذا هو العُمُرُ الثَّانيْ للإنسان ، على حدِّ تعبير شوقِيْ .

ويجب أنْ نضع نُصْبَ أعيننا : أنَّنا سنكون ميراثاً لجيلٍ آتٍ ، وأنَّ هذا الجيل سيقرأُنَا ، كما نحن نقرأُ جيلاً سَبَقَنَا ؛ وسيُبَاركنا إنْ سطَّرنا ناصعَ الحرْف ، فِيْ صفحةِ حياتنا ؛ وسيجعل منَّا قدوةً صالحةً له فِيْ دربه . . . وإلاَّ فسوف يلعنُنا ، ويُجدِّف علينا ، إنْ وجد فِيْ سطور حياتنا ، قاتِمَ الحرْف ، ودنِسَ الصَّفحة .

وأيُّ فرقٍ كبيرٍ نجده ، حين ما نقرأُ سيرة مصلحٍ عظيمٍ ؛ ثمَّ ننتقل إلى سطورٍ مِنْ حياة مفسدٍ جائرٍ ـ مثلاً ـ أو نقرأُ سطوراً مِنْ كلامٍ بليغٍ ، يُرسل الحِكَمَ والتَّعاليم الرَّفيعة ، ونُتبعها بقصصٍ ، سُجِّلتْ للتندُّر ، بكلام السَّفلة ، وسُباب المنحطِّين . . . ؟ !

نقرأُ سيرة المصلح ، فتُعجبنا روعتُها ، ويبهرنا نورها ؛ ونقرأُ سيرةَ مَنِ اعْترض هذا المصلح ، وطُرُقَ مقاومته له ، فنحتقر هذا ، ونكرهُه ، ونلعنُه .

وفِيْ ذات الوقت ، تزداد عظمة تلك السِّيرة ، ويزداد شغَفُنا بها ـ وقديماً قِيل :

« **والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ** » .

وهذا ما يُضاعف الفَرْق .

إنَّه الفَرْق بين : النُّور ، والظَّلام ؛ بين : الصَّلاح ، والفساد ؛ بين : الخير ، والشَّرِّ . . .

وكلُّنا يُحبُّ أنْ تكون حياته مليئةً بالخير ، ناضحةً بالصَّلاح ، مغمورةً بالنُّور ، تفوحُ بعِطر الذِّكرى .

وهذا مايتطلَّب منَّا أنْ نعتبر ممَّا نقرأُه فِيْ التأْريخ ، مِنْ سطورٍ ؛ ونعِيَ ما نقرأُ ، لِنَتفاعل به فِيْ حياتنا ، فنستفيد ممَّا فيه مِنْ عِبَرٍ ، لِنُضاعف القِيَمَ الرَّفيعة ، والْمُثلَ السَّامية . . .

فالحياةُ الخلْوُ مِنَ القِيَمِ ، الجرداءُ مِنَ الْمُثلَ ؛ الحياة الماديَّة المجرَّدة ، حياةٌ تافهةٌ ، تَفْقِدُ أهمَّ عناصر البقاء والخلود ، فَهِيَ تَفْقِدُ الأخلاق ؛ ومتى فُقِدَتْ ، فالذَّهابُ هو مصير فاقدِيْ الأخلاق ، والفناءُ المحقَّق لهم .

فالمادَّةُ ـ مهما أخَذَتْ مِنْ شوطٍ ، وامتدَّ لها مِنْ نَفَسٍ ـ مصيرُها الزَّوال . . . والتأْريخُ بها ليس بحفيلٍ ، وعليها ليس بضنينٍ .

القطيف

ذِكرى حيّة

- ١ -



الشيخ آغا بزرك

هـل رأيتَ الشَّمعـة ، وقَـدِ امتـدَّ منهـا اللَّهب ، الـذِيْ تبعث منـه الإشعاعةَ ، تلْو الأخرى ، مِنَ الضَّوء الْمُنير الهادِيْ ، لِتُبدِّد حُلكةَ الـظُّلمة ، وقـاتِمَ العَتَمَة ، فَيَستنـير بخيوط نـورها ، ضـاربٌ فِيْ كَبِـد اللَّيـل البهيم ، فلا يخشى زلَّة قدمٍ ، ولا تِيْه طريقٍ . . . ؟ !

والشَّمعة ـ وهِيَ تُنير ـ تتهاوى فِيْ الذَّوبـان ، فِيْ ما هِيَ تنشر ضـوءها ، فِيْ : سخاءٍ ، ونكرانِ ذاتٍ . . . فَهِيَ لا تُرسل خيْط الضَّـوء ، الذِيْ يُؤلِّف قَبَسَ النُّور ، إلاَّ مِنْ هيكلها ، الذِيْ يذوِيْ ويذوب .

وليس يُقدِّر ذلك المستنيرُ بضوئها : ماذا فَقَـدَتْ مِنْ طاقـة الحياة ، التِيْ أذابتها هذه الإشعاعة الهادية .

* * *

لمحتُ هـذه الصُّـورة ، وارتسمتْ أمـامِيْ ، فِيْ : وضـوحِ خـطوطٍ ، وتناسقِ ظِلاَلٍ ، وتناسبِ ألوانٍ ، وأنا أطأُ ـ بقـدمِيْ ـ عتبةَ مكتبـة البحَّاثـة المدقِّق ، والمُؤَرِّخ الثَّبْت ، والمجاهد الجلْد ، الشيخ آغـا بزرك الـطُّهرانيِّ ، حيث وجدتُنِيْ أمام هيكلٍ عظمِيٍّ ، أو شبحٍ كادَ يَفْقِدُ ، مِنَ الحياة المادِّيَّة ، عناصرَهَا الدَّافقة ، التِيْ تُمدُّ الجسم بالحيويَّة والنَّضارة ، وتُعطيه طاقَةَ الحركة والتَّفاعل .

وهنـا . . . أتجمَّـد أمـام الهيكـل العـظمِيِّ ، فـما كنتُ لأصـدِّق باصرتِيْ . . .

فهل أنا ـ حقًّا ـ أمام ذلك الرَّجل ، الذَيْ أغنى المكتبة العربيَّة بمؤلَّفاته القيِّمة ، وسدَّ فيها فراغاً كانتْ تفتقر إليه ، فلا تجد مَنْ يُلبِّيْ حاجتَها الملحَّة . . . ؟ !

ذلك أنَّ عبئها بهيظُ الحمْل ، حتَّى لتنوء به العصبة ، ذاتُ الجلَد والصَّبر والقوَّة ـ فكيف يقوم به الفرْد وحدَه . . . ؟ ! !

ولكن لم أبقَ فِيْ طوفانِ الجمود والحيْرة طويلاً . . .

فما كدتُ أقترب ، وأنا أظنُّ أنَّ هذا الشَّيخ ـ الذِيْ كادتْ تخمد فيه جذوةُ الحياة ، لولا بريقٌ ينبعث مِنْ عينيه ـ لا يقوى على حراكٍ . . . وإذا بِيْ أمام مَلاكٍ ، فِيْ أخلاقه الفُضْلى . . .

. . . فلم يكد صديقِيَ الكريم ، الذِيْ كان الرَّفيقَ فِيْ الزِّيارة ، والدليلَ ، يبوح له باسْمِيْ ، وإذا بالحياة تدبُّ فِيْ ذلك الشَّيخ الوقور ، على دفْقٍ وحرارةٍ ، تنبعث مِنْ قلبه الكبير ، فلم أستطع ـ فِيْ محاولتِيَ الجادَّة ـ أنْ أستبقيَه فِيْ مقعده ، آخذاً قسْطاً مِنْ راحته ، حتَّى وَقَفَ لِنَستقبل ذلك الْخُلُق الملائِكيَّ ، فِيْ : ترحيبه الحارِّ ، واسْتقباله البشوش .

ولا أدرِيْ ماذا أقول . . . ؟

هل أُسيْءُ الأدبَ فأقول : إنَّه بَلَغَ فِيْ ترحيبه حدَّ الإسراف ـ وعفوَ روحه الطَّاهرة عنِّيْ . . . ؟ !

ذلك أنّه ألحَّ عَلَيَّ ـ فامتنعتُ ـ وأقْسَمَ أنْ أُنيلَه جبهتِيْ ، لِيَطبع عليها قُبْلَةَ الأبوَّة والحَنان ، بعد أنْ باءتْ كلُّ محاولةٍ للامتناع بالفشل ، فتغمرُنِيْ ـ حينذاك ـ موجةٌ عاتيةٌ مِنَ الخجل ، يُجلِّلها الإعجاب والإكبار ، لهذه

الشَّيخوخة ، التِيْ جلَّلَتها السُّنون بوَقارِهَا ، والعلمُ بقدسيَّتِهِ ، والخُلُقُ بعظمتِهِ .

وقضيتُ ـ فِيْ رِحابه ـ فترةً ، كان هو الوحيد ـ فِيْ شيخوخته البهيَّة ـ بيننا .

فَقَدْ كانتْ مكتبتُه تضمُّ ثلَّةً مِنَ الأدباء الشَّباب ، مِنْ بينهم مَنْ يحمل شهادة الدَّكتوراه ، وكلُّهم قَدْ جاء يستمير مِنْ معارفه ، وينْهَل مِنْ عذْب نميره ، وهو يستمع لهذا ، ويُصغِيْ لذاك ، ويُجيب على سؤالٍ يُوجَّه إليه ، فِيْ : سعةِ اطِّلاعٍ ، وشمولِ إحاطةٍ ، وعمْقِ معرفةٍ ، ورحابةِ صدْرٍ ، وبشاشة خُلُقٍ .

وتتجسَّد صُوْرةٌ ، مِنْ أرْوَع الصُّوَر ، فتجد الشَّيخوخة الواهنة ، وقَدْ طبعتْ سِنُوها أثَرَ التَّجاعيد ، فِيْ وجهٍ بهِيٍّ ، وأعطَتْ شعرَهُ لونَ الثَّلج ، لِيُضفِيَ على ذلك البهاءِ ، الهيبةَ والوقارَ . . . وبجانبها الشَّبابُ ، فِيْ غضارةِ وجوهٍ ، تتلألأ فيها الحياةُ نضرةً ، لم تُشبْهَا أحداث السِّنين ، وإنْ زانها العلم ، فكَسَرَ حدَّة : الشَّباب ، وحداثتِهِ ، وزادَهُ جمالاً .

وتنظر فَتَجد ما لعلَّك تعدُّه تناقضاً . . . قَدْ تمَّ بينهما الانسجام ، فِيْ : أقصى غايته ، وأبْعَدِ مداه .

فلا الشَّيخوخةُ على نِفارٍ ، مع غضارةِ الشَّباب . . . ولا الغضارةُ هذه ، على مخافةٍ ورعبٍ ، مِنْ ذلك البياض ، الذِيْ يُشير إلى النِّهاية .

بل تلك تحنُوْ وتُوجِّه ، وتعقد الأملَ الخميلَ ، أنْ تصلب هذه الغصُون

اللِّدان ، وتُواصل الجهْد ، فِيْ أداء رسالةِ الحياة . . . وهذه تُقدِّر ، وتشكر ، وتنْهَل ، وتستفيد . . .

وانقضتْ فترةُ الزيارة ، وقَدْ أبقتْ أَثَرَهَا البعيد فِيْ أعماق النَّفس ، وإذا بصورةِ الودَاع تُعيد صورةَ اللِّقاء ، لِتُرَسِّخ مِنْ أبعاد هذه الصُّورة ، فتزهو منها الألوانُ ؛ وتُعمِّق أصداءَها ، لِيَحلوَ منها الجرَس ، وتصفوَ النَّبْرة .

* * *

وتمضِيْ ثلاثٌ مِنَ السِّنين ، وبضْعٌ مِنَ الشُّهور ، فأتلقَّى دعوةً للمشاركة فِيْ كتاب « ذِكراه » ؛ وإذا بفضيلة العلَّامة الطَّالقانِيِّ ، يُضيف بيده الكريمة إلى الدَّعوة العامَّة ، نقطةً خاصَّةً ، يستخُتُّنِيْ ـ بسببها ، مِنْ زاوية الواجب الخَّاصِّ ـ للمساهمة فيها ، وهو لا يدرِيْ بهذا الجانب ، الذِيْ منه نظرتُ ، لِمَا له فِيْ أعماقِيْ ، مِنْ بعيد أثرٍ .

ولا أكاد أتلقَّى هذه الدَّعوةَ الكريمة ؛ وإذا بتلك الزِّيارة ، تتجسَّد أمامِيْ بصورتها الحيَّة ، وحيويَّتها النَّابضة . . .

. . . فأُفضِّل ـ فِيْ المشاركة ـ أنْ أتناولها بالعرْض ؛ حيث إنَّها تُشير إلى زاويةٍ خاصَّةٍ ـ أيضاً ـ مِنْ حياة هذا المجاهد ، الحافلة بكلِّ جليلٍ ، لأترُكَ النَّواحِيَ العامَّة لغيرِيْ ، إذ ليس فِيْ تلك الجوانب ما هو خفِيٌّ ؛ فالكلُّ يعرف منها الكثيرَ ، ممَّا أعرفه أنا وغيرِيْ . . . فَهِيَ جوانبُ بارزةٌ ، يتساوى الكلُّ ، فِيْ : الإحاطة بها ، وتقديرها ، وتقويمها .

أمَّا هذه الزَّاوية ، التِيْ عرضتُ ، فَهِيَ تجربةٌ تخصُّنِيْ ، وإنْ كان الكثير

يلمس مثيلاً لها . . . فمثل هذه الصُّورة تتكرَّر . . . وما هذا التَّكرار ؛ سوى تدعيمٍ وتقويةٍ لها .

ولَمَّا كانتْ ذكرى عزيزةً عَلَيَّ ، حرصتُ على أنْ أُودعها ذِكراه ؛ وهِيَ : مفتاحُ لجانبٍ شخصِيٍّ ، مِنْ حياته الطيِّبة ، يفتح كوىً واسعةَ المْنفذِ ، على حياته العامَّة ، ومدى تأْثير شخصيَّته القويَّة ، ليس فِيْ الحياة العلميَّة والتأْريخيَّة فحسْب ، بل والاجتماعيَّة والْخُلُقيَّة ، ومدى تفانيه فِيْ : خدمةِ العلمِ ، وتقديرِ رجاله ؛ وكيف أنَّه نَذَرَ حياتَه لذلك . . .

فكان شمعةً نيِّرةً ، أنكرتْ ذاتها ، فأرسلتِ الضوءَ الهادِيَ التُنير ، دون أنْ يدرِيَ المُستنير بهذا الضَّوء ، أنَّها تُقدِّم عصارةَ الحياة ، فِيْ سبيل ذلك ، فتذوب وهِيَ تُنير . . . وتُنير وهِيَ تذوب . . .

ولكنَّ ضوء الشُّموع تلك ، ينتهِيْ بنهايتها .

أمَّا ضوءُ فقيد العلم والفضيلة ، فيبقى هادياً منيراً ، ما دامتْ هذه الثَّروة ـ التِيْ خلَّفها وراءه ـ باقيةً حيَّةً ، يرجع لها ناشِد الحقيقة والحقِّ .

إنَّه لَيَبقى أثرهُ وذِكْره ، بين تلك السُّطور ، التِيْ تملأُ الصَّفحاتِ الكِثُر ، مِنْ تلك المجلَّدات الضِّخام فِيْ دورتيه العظيمتين : « الذَّرِيعة » ، و « الطَّبقات » ، حيث يبيِّن فيهما الجهْد الضَّخم ، لِمَا أحاطا به فِيْ موضوعهما المهمِّ ، بهذا التَّقصيِّ النَّادر العجيب .

* * *

وإذا كان هناك ما نرجو ، فهو أنْ يُقيِّض الله مَنْ يُواصل حَمْلَ الرِّسالة ، ويحفظ هذه الثَّروةَ الباقيةَ ، فَيطلع بها إلى الجميع ، فَيُعيد طباعة ما طُبِعَ ،

ويَطْبَعُ ما لم يُطْبَعْ ؛ فيعمُّ به نفْعٌ ، وتشمل فائدةٌ ، ويرتويْ بـذلك ظـامِىءٌ يتطلَّع ، لِيُطفِىءَ لهيب غلَّته ، فلا يجد مِنْ بين تلك المجلَّدات ما يقتنيه .

وبهـذا العمل تُؤدَّى الأمـانة ، مِنْ تـراث هذا المجـاهد بعـد أنِ استراح ـ الآن ـ مِنْ عناء الحياة ، وقَـدْ ذاق صَابَ مـرِّها ، فيستمـرِيْ ثمرة جهـوده وجهـاده ، فِيْ ذلك الـطَّريق الشَّاقِّ ، الـذِيْ أضنـاه ، طيلة فـترة حيـاتـه ، الخِصبة المِمراع .

* * *

رحمَه الله بقدَرِ ما قدَّم ، وأبقى ، وخلَّف .

النجف الأشرف : { ٢٦/١٠/١٣٩٠هـ
٢٥/١٢/١٩٧٠م }

تَصحِيحٌ وتَنبيهٌ

- ٢ -

بعْد تأْبين سماحة الحجَّة الثبْت
آغا بزرك ، نُثبت - هنا - رسالةً ،
بعثتُ بها لسماحته - بعد زيارتِيْ
له - مرفقةً ببعض ملاحظاتٍ على
« طبقات الشِّيعة » : إحدى
موسوعتيه الضَّخمتين .
وقَدْ وصلتْه ، وهو على فراش مرض
الموت ، فلم يتمكَّن مِنِ اتِّخاذ شيْءٍ
حولها .
ومِنْ هنا رأينا المناسبة فِيْ إثباتها
- هنا .

- ١ -

القطيف : ١٣٨٩/٧/٠٩ هـ - ١٩٦٩/١٠/١٢م .

سماحةَ العلاَّمة الكبير ، المجاهِد ، المحقِّق الثَّبْت ، الباحث الجلِد : آغا بزرك - دام ظلُّه .

السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

أُحيِّيكم تحيَّةً ، ملؤها الإكبار والتَّقدير لجهودِكُمُ الجبَّارة ، وإصرارِكُم الشَّديد ، على العمل الدَّائب ، دون أنْ يكون للشَّيخوخةِ الواهنةِ : تأْثيرٌ ، على ذلك ؛ ولا للمرضِ النَّاهكِ : حيلولةٌ دون أداء الرِّسالة - راجياً مِنَ الله : أنْ يمُدَّ لكم فِيْ العمر ، كَيْ ما تُواصلوا المهمَّة ، التِيْ ينوءُ بها أُولو القوَّة والجلَد .

لا أُريد - فِيْ رسالتِيْ هذه - أنْ أُقوِّمَ أعمالَكُم الفُضلى ، فأكيل لها ما تستحقُّ مِنْ : ثناءٍ ، وتقديرٍ ؛ ولا أنْ أُطْرِيَ خُلُقَكُمُ الإسلامِيَّ الرَّفيع ، والذِيْ شهدتُ جانباً منه ، فِيْ تلك اللَّحظات القِصار - فِيْ حساب الزَّمَنِ المادِّيِّ - يوم تشرَّفتُ بزيارتكم فِيْ رجب ١٣٨٦ هـ ، حتَّى ذبتُ خجلاً مِنْ تواضعكُمُ الجمِّ ، واستقبالكُمُ الحارِّ ؛ ولم أعرف بماذا أُقابل هذا الخُلُق السامِيَ .

لا أُريد أنْ أُشير لشيْءٍ مِنْ هذا ، فِيْ هذه الرِّسالة العجلى . . .

ولكنِّيْ وأنا أُقلِّبُ بعض صفحات سفركُمُ القيِّم ـ « طبقات الشِّيعـة » ـ الذِيْ أرجو مِنَ الله سبحانه : أنْ يُعينكم على تمامه . . .

. . . لاحـظتُ بعض النِّقاط ، التِيْ كـان بعضها قَـدِ اعتمد عـلى كتابِيْ « ذكرى الزَّعيم الْخُنَيْزِيّ » ؛فكان فيها بعض الأخطاء ، التِيْ أظنُّها نسخيَّةً ، جاءت سهواً ـ وجلَّ مَنْ لا يسهو .

لذلك أُرفق لكم هذه الملاحظة ، راجياً قبولَها ، سائلاً الله الكريم لكمُ العمـرَ المديد النَّافع ، لمضاعفة الثَّمر ، ومواصلة الجِهاد .

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

- ٢ -

(١) صحَّة ميلاد سيِّدِيَ الوالـد فِيْ شهر رجب ١٢٩١ هـ ـ كما جاء فِيْ كتابنا « ذكرى الزَّعيم الخنيزِيِّ » . وما جاء فِيْ كتابيه : « الدَّعوة الإسلاميَّة . . . » ، و « المناظرات » ، مِنْ أنَّه فِيْ شهر شوَّال ، كان سبْق يراعٍ منِّيْ ، حين تبْييض « الدَّعوة » ، وجاء بالتبعيَّة ـ منِّيْ ، أيضاً ـ حين تبييضِيَ « المناظرات » .

(٢) « صراع الحقِّ » اشْتهر بهذا الاسْم كتابُه : « الدَّعوة الأسلاميَّة ، إلى وحدة أهل السُّنَّة والإماميَّة » ، ولم يكن سمَّاه هو بذلك الاسم .

واسْمه « الدَّعوة ـ الخ » ، كان المقطع الثانِيَ ، مِنْ تسميته له ، فرأينا الاكتفاء بهذا المقطع : اختصاراً ، وخوفاً مِنَ التَّطويل ، وأكثر انتباهاً لنظر القارىء .

(٣) صحَّة تأْريخ ميلاد فضيلة ابنه العلاَّمة الشَّيخ عبدالحميد الْخَطِّيِّ هو ١٣٣١ هـ ـ وما جاء فِيْ « ذكرى الإمام الخنيزِيِّ » أنَّه عام ١٣٣٥ هـ ، كان خطأً ، مصدره فضيلة الشَّيخ عبدالحميد نفسه ، حيث كان يعتقد ذلك ؛ ثمَّ وقفتُ على صحَّة ذلك بخطِّ سيِّدِيَ الوالد ، وصحَّحته فِيْ ترجمةٍ له ؛ نشرتها بعنوان « خطوط مِنْ حياة الخطِّيِّ » ، فِيْ مجلَّة المعارف اللُّبنانية ، بعددها . . .

(٤) جاء فِيْ ذكْر أساتذة سماحة الحجَّة الشَّيخ عليٍّ أبِيْ عبدالكريم الخنيزِيِّ : اسْم الشَّيخ محمَّدٍ العامِلِيِّ ـ وصحَّة اسْمه : الشيخ عبدالله .

(٥) تُرجم الشيَّخ عبدالله العامِلِيُّ ـ هذا ، فِيْ ص ١١٨٨ ، ق ٣ ، ج ١ ـ باسم الشَّيخ عبدالله اللينانِيْ ـ بالياء ، قبل النون ـ وفِيْ التَّرجمة هذه أخطاءٌ ثلاثةٌ :

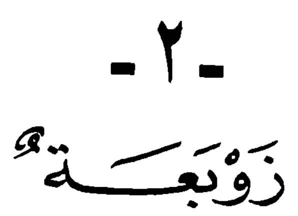
١ ـ هو الشيخ عبدالله العامليُّ اللُّبنانِيُّ ، نسبةً إلى « جبل عامل » جنوب لبنان ـ وليس اللينانِيْ ـ كما جاءتِ الإشارة إليه ، في كتابنا « ذكرى الزَّعيم الخنيزِيِّ » ، ص ٤٨ و ٥٧ ، ٥٨ .

٢ ـ وبهذا فهو مِنْ علماء لبنان ، وليس مِنْ علماء البحرين .

٣ ـ إنَّه مِنْ أساتذة ابن العمِّ الشَّيخ أبِيْ عبدالكريم ، لا سيِّدِيَ الوالد الشَّيخ أبِيْ الحسَنِ ؛ لأنَّ « ذكرى الزَّعيم الخنيزِيِّ » فِيْ ترجمة الشَّيخ ابن العمِّ .

(٦) وتكرَّر مثل هذا الخطإ ، في ص ١٣٧٤ ، ق ٤ ، ج ١ ـ عند ترجمة الشَّيخ عليٍّ بن حسنٍ التَّاروتِيِّ ، فعُدَّ مِنْ أساتذة سيِّدِيَ الوالد الشَّيخ عليٍّ أبِي الحسَن الخنيزِيِّ ، فِيْ حين أنَّه مِنْ أساتذة الشَّيخ أبِيْ عبدالكريم ؛ كما أسنده لذكرى الزَّعيم ـ ص ٤٦ ـ وكما ذَكَرَه هو ـ أيضاً ـ فِيْ ترجمة ابن العمِّ ، ص ١٣٩٣ ، مِنَ القسم ذاته .

(٧) فِيْ ترجمة الشَّيخ محمَّد عليٍّ النَّهاش ـ ص ١٤٨٥ ، مِنَ القسم ذاته ـ أُشير إلى أنَّ الشَّيخ علي الخنيزِيِّ ، مِمَّنْ قرأ عليه ، دون تعيين أيِّهما ؛ وهذا مِمَّن قرأ عليه سيِّدنا الوالد ـ كما أشرتُ لذلك ، فِيْ ذكرى « الإمام الخنيزِيِّ » ص ٢٥ .


- ٢ -
زَوْبَعَةٌ

حَوْلَ نَقْد
"دعَاة الإسلام"

نُشِرَ فِيْ مجلَّة « الكتاب » الغرَّاء - المصريَّة - فِيْ عددها [لا أتذكَّره فعلاً] عام ١٩٥٣ م .

لم تُمكنِّيَ الظُّروفُ مِنْ أنْ أقرأ أعداد مجلَّة « الكتاب » الزَّاهرة ـ فيْ عام ١٩٥٢ م ـ حين وصولها . . .

وبعبارةٍ أصحَّ : إنَّ « الكتاب » هِيَ التيْ لم تُمكنيِّْ مِنْ ذلك ، حيث انقطعتْ أعدادها عنيِّْ ـ منذ العدد الرَّابع ـ مِنْ غير سببٍ . . . ؟ !

والآن ، وقَدْ أخذتُ أقرأُها ـ لا أنَّها تفضَّلتْ ، فَبَعَثَتْ بالأعداد ، وإنَّما عن طريق الإعارة . . .

الآن ، وأنا أقرأُها ، يستوقفنيْ منها الموضوع ، الذِيْ كَتَبَهُ الدَّكتور محمَّد يوسف موسى ، نقْداً على كتاب « دعائم الإسلام » ، تأْليف (القاضِيْ النُّعمان بن محمَّدٍ) ، تحقيق الأستاذ « آصف عليٍّ أصغر فيضِيْ » ـ والذِيْ نَشَرَهُ فِيْ العدد السَّادس ، م ١١ ، ص ٧٣٤ ـ ٧٣٧ ، مِنَ المجلَّة نفسها . . .

وإنَّ قراءتِيْ لِنَقْد الدُّكتور ، خلَّفَتْ فِيَّ رغبةً جامحةً ، لأنْ أقرأ الكتاب ، حتَّى أستطلع رأْيَ المؤلِّف « القاضِيْ » ، وأستشفَّ ما بين سطوره . . .

وإذ لم أستطع ذلك ، فَلأْدَوِّن هذه الملاحظات ، على الدَّكتور محمَّد يوسف موسى ، حول نقْده الكتابَ ؛ وإنِّيْ إذ أُدوِّن هذه الملاحظات ، فَلِوَجه الحقِّ وحده ، لأنير للقرَّاء ما قَدْ يعلق بأذهانهم مِنْ هذا الموضوع ، مِنْ بعض الحقائق المعكوسة :

- ١ -

قال الدكتور :

« ولاقى - يعني بذلك : النَّاشرَ الفاضلَ - فيْ ذلك مصاعبَ لمْ يستطعِ التغلُّبِ على بعضهَا ، بسببِ مبدإ « التَّقيَّةِ » ، الذِيْ يجعلُ الشِّيعةَ يضنُّونَ أنْ يطَّلعَ على مذهبِهمْ مَنْ ليسَ منهُمْ ! » - كذا ؟ ! .

غريبٌ جدّاً هذا الاتِّهام مِنَ الدَّكتور ، إنْ كان يعنِيْ به عموم فِرَق الشِّيعة . . . !

وإنْ كان يُشير بذلك ، إلى فرقةٍ خاصَّةٍ ، فإنَّ أُصول النقد ، وواجبَ الفنِّ والحقِّ والضَّمير ، يحتم عليه أنْ يُخصِّص الفِرقة ، التيْ يعنيها .

فالشِّيعةُ - كالسُّنَّة - فِرَقٌ وطوائفُ ؛ وقَدْ تختلف بعض الطَّوائف ، ليس فيْ بعض الفروع - كما نجد مثلَ هذا الاختلاف ، بين المذاهب السُّنِّيَّة الأربعة ، أو بين العلماء مِنَ المذهب الواحد . . . ! - فحسْب . . . !

بل إنَّ هذا الاختلاف ، يصلُ إلى أعمق مِنْ هذه الفروع ،

وأبْعـد . . . حتَّى يصل إلى تكفـير وتضليل بعض الفِـرَق ، والبراءةِ منهـا[1] ـ ومثل ذلك نجده عند الفِرَق السُّنِّيَّة .

وهـذا واقعٌ لا مجـال لِنُكرانـه ، لأنَّ الحديث النَّبـوِيَّ ، أشـار إلى هـذا الافتراق ، وحدَّد العدد الذِيْ تصله هذه الفِرَق . . .

فـالشِّيعة ـ وأعنِيْ : الإمـاميَّة الإثنَيْ عشـريَّة ـ لا تضنُّ أنْ يـطَّلع عـلى مذهبهم مَنْ ليس منهم ! .

وكيف تضنُّ بذلك ، وهذه كُتُبُهم ـ دينيَّةً ، وعلميَّةً ، وأدبيَّةً ـ منتشـرةٌ بين النَّاس ، تتناولها الأيدِيْ ، متى شاءتْ ، وكيف ما تشاءُ . . . ؟ !

* * *

ووصمةُ الكاتب هذه الفِرْقة الإسلاميَّة ، بهذه التُّهمة : دليلٌ عـلى عدَم اطِّلاعه على مؤلَّفات الشِّيعة ، وعلى آرائهم ، وعدم معرفتـه لمعنى « التَّقيَّة » عندهم ، لأنَّها محدودةُ المعنى . . .

فَهِيَ لا تعدُو معناها اللُّغوِيَّ ، الذِيْ يعنِيْ : « الحذَر » . . .

إذن ، فمع فرْض القول بها ، فَهِيَ تُستعمل درءاً للشَّرِّ . . .

والعقـلُ الإنسانيُّ ، يحتم الأخْـذ بـالتَّقيَّـة ، فِيْ محـل الخـوف ، ودفْعـاً للخطَر . . .

---

(١) ظهرت هذه الفِرق الضَّالة ـ بين صفوف الشِّيعة ـ في عهد الأئمَّة مِنْ آل البيت ، عليهمُ السَّلام ، ممَّا دعا بعضَهم ـ عليهمُ السَّلام ـ لإعلان البراءة منهم ، ولعْن رؤسائهم ، لِيكشف عن ضلالهم ، ويُحذِّر منهم ، قبـل أنْ يغترَّ بهم مَنْ يظنُّهم : رمز صلاحٍ ، وأهل دينٍ وتقىً .

ثمّ إنَّ الشِّيعـة ، لم تنفرِد بـالقول بهـا . . . بل إنَّ بعض أئمَّـة المذاهب الأربعة ، تعدَّى حرفيَّةَ القول ، إلى مجالِ التَّطبيق .

فأحمد بن حنبـل ـ إمام المـذهب الحنبليِّ ـ أضْـطرَّ للعمل بهـا ، بإخفـاء عقيدته ، فِيْ قِدَم القرآن ، الذِيْ كان يرتئيه ، فأمْسَكَ عنِ الجهـر بها ، درءاً للخطر المحدِق به ، مِنْ : قتلٍ ، أو تعذيبٍ . . .

* * *

وهِيَ ـ عند الشِّيعة ، فِيْ بعض الأحـايين ـ محـظورةٌ محرَّمـةٌ ، وذلك إذا اقتضتِ الخروج عنِ الدِّين ، مثلاً .

وإنَّ مقتل حُجرٍ وأصحابه ، لدليلٌ زاخرٌ بالقوَّة ، نابضٌ بالحياة ، عـلى ما نقول .

فعندما طَلَبَ معاوية مِنْ حُجرٍ وأصحابه : البراءةَ مِنَ الإمام عليٍّ ـ عليه السّلام ـ وجَعَـلَ هـذه « الـبراءَةَ » هيَ الحـدَّ الفـاصـل ، بـين : الحيـاة ، والموت ، أبَوْا عليه ذلك . . . والسَّيفُ على الرِّقاب ، مُؤْثرين الموتَ العزيـزَ الشَّريفَ ، الذِيْ تحتمه العقيدةُ الصُّلبة ، والإيمانُ العميق . . .

على أنَّ الشِّيعة لم تعملْ بالتَّقيَّـة ـ إنْ قُدِّر لهـا العمل بهـا ـ إلاَّ فِيْ ظروفٍ عصيبةٍ عاتيةٍ . . .

تلك الـظُّروف القـاسيـة ، التِيْ مـرَّت عليهـا ، فِيْ مُلْك بنِيْ أُميَّـة العضـوض ، وبنِيْ العبَّـاس المستكلِب ، حـين مـا صـار الشِّيعِيُّ يُـطارَد ، ولا يُجـازى إلاَّ بقـطْعِ الأيـدِيْ ، وسَمْـلِ الأعـين ، والبِنـاء عليـه تحت الأسُس ، أو صلْبه على جذوع النَّخل . . .

وإنَّ للتَّقيَّة ـ فِي معناها المحدود هذا ـ لأساساً قرآنيّاً رسيخاً ، جاء في مثل هذه الآية الكريمة :

﴿ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [(١)] .

﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ ﴾ [(٢)] .

* * *

وإنَّ الكاتب نفسَه قَدْ تناقض ! . فبعْد جملته تلك ببضعة أسطرٍ يقول :

« والكتابُ يبسطُ آراءَ الشِّيعةِ » . . .

فإذا كانتِ الشِّيعة ، تضنُّ باطِّلاع مَنْ ليس شيعيّاً ، على مذهبهم ، فَمِنْ أين بَسَطَ الكتاب هذه الآراء ؟ .

ومِنْ أيِّ المراجع استقى ـ وهو لغير الشِّيعِيِّ ؟ ! [(٣)] .

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) النحل : ١٠٦ .

(٣) قُدِّر ـ أخيراً ، بعد نشْر هذا المقال ـ أنْ تضمَّ مكتبتي هذا الكتاب ، فوجدته : لا يبسط ، سوى آراء الفرقة الإسماعيليَّة ، مِنَ الشِّيعة .

وهذا سرُّ الخبط ، حين ما نُطلق كلمة شيعةٍ على جميع الفِرق ، مِنْ دون تخصيصٍ ، في الحين الذي تنطبق فيه هذه الكلمة ، على كثيرٍ مِنَ الفِرق .

ونُشير ـ هنا ـ إلى أنَّنا لا نُوافق الإمام المغفور له السيِّد محسن الأمين ، حيث عدَّ صاحب « الدَّعائم » ، مِنَ الإماميَّة الإثنى عشريّة ، وهذا الكتاب يُصرِّح بإسماعيليَّته ، إلاَّ أنْ يكون الكتاب ليس إليه . . . ؟ ! أو أنّه عدل عنها إلى الإثني عشريَّة ، بعد تأليفه هذا الكتاب .

- ٢ -

« وفيْ ذلـك يروُوْنَ حـديثَ [غَدِيْـرِ خُمٍّ] المعروفِ لديْهِمْ » . . .

ويُسند الكاتب ذلك ، لِمَا عَرَضَه الكتاب ، لهذا الموضوع .

ونحن نشمُّ مِنْ هـذه الجملة : محاولـةَ إنكار حـديث الغديـر الشَّهير ، الـذِيْ لا يُنكره مؤرِّخٌ ، أو مـطَّلِعٌ . . . وحسبُنا فِيْ إثبـات هـذا الحـديث : التأْريخ ، الذِيْ يعرض لحياة الرَّسول الأعظم - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وقَدْ ثَبَتَ حديثُ الغـدير ، ليس عنـد الشِّيعة فحسْب ، بـل عند علماء ومؤرِّخِيْ السُّنَّة ، فَقَدْ أخرجه الطَّبرانِيُّ والحاكم - فِيْ مستدركه [١] .

« وحـديث الغديـر أيَّدتـه الحجَج المكينـة ، رغم المشادَّة ، التِيْ قـامتْ حولَه . وقَدْ أُلِّفت المؤلَّفات المستفيضة تأْييداً لصحَّته » [٢] .

وقَدْ صرَّح صاحب « الفتاوى الحامديَّة » بتـواتر الحـديث ، فِيْ رسالتـه المسـمَّاة : « الصَّلوات الفـاخـرة فِيْ الأحـاديث المتـواتـرة » ، وإنَّ أمثـالـه لَكُثر . . .

---

(١) ص ١٢٦ ، ١٢٧ - ملحمة عيد الغدير للأُستاذ بولس سلامة .

(٢) ص ١٢٨ مِنَ المصدر .

وقَدْ أفرد كلٌّ مِنْ : محمَّد بن جريرٍ الطَّبريِّ ـ صاحب التأْريخ والتَّفسير ـ وأحمد بن سعيد بن عُقدة ، ومحمَّدٍ بن أحمد بن عثمان الذَّهبيِّ ـ أفرد كلٌّ مِنْ هؤلاء كتاباً على حِدةٍ .

وقَدْ أخرجه ابنُ جريرٍ ـ فِيْ كتابه ـ مِنْ خمسةٍ وسبعين طريقاً ، وابنُ عقدة فِيْ مئةٍ وخمس طُرُق ، والذَّهبيُّ « على تشدُّده » ـ صحَّح كثيراً مِنْ طُرُقه .

وفِيْ « غاية المرام » تسعةٌ وثمانونَ حديثاً ، عن طريق أهل السُّنَّة ، فِيْ نفس حديث الغدير [1] .

وقَدْ تقدَّم ـ غبَّ هذا الحديث ـ كِبار الصحابة ، وفيهمُ الصِّديق والفاروق ، يُهَنِّئُون الإمام ، قائلين :

« هَنِيْئاً لَكَ ـ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ ! ـ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ » .

وأمَرَ الرَّسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أُمَّهات المُؤْمنين أنْ يهنِّئنه ، ففعلن [2] .

* * *

(١) ص ١٢٨ ، ١٢٩ مِنَ الملحمة .

(٢) ص ١٢٧ المصدر .

وفي بعض الرِّوايات : أنَّ الفاروق قال :

« بخٍ بخٍ لكَ يَا ابنَ أبيْ طالبٍ ! ـ فقدْ أصبحتَ مولايَ » إلخ . . .

ولكنَّ الرِّوايتين واحدةٌ في الجوهر . . .

وليس التأْريخ وحده ، هو الذِيْ خلَّد حديث الغدير ، فإنَّ الشُّعراء قَدْ وجدوا فيه مادَّةً خصبةً ، ونبْعاً ثرّاً ، يمدُّ شاعريَّتهم بالعطاء ، فراحوا يُسجِّلون هذا الحديث العظيم ـ قدماءَ ، ومعاصرين .

وإنَّ أوَّل مَنْ سَجَّلَ هذا الحديث ، مِنَ الشُّعراء ، هو حسَّان بن ثابتٍ . . .

فَفِيْ ذلك الموقف ، استأْذن الرَّسول ، لِيَقول شيئاً ، فِيْ هذا اليوم الخالد ، فقال له :

« قُلْ ـ يَا حَسَّانُ ! ـ عَلَى اسْمِ اللهِ ! » .

فقال :

يُنَادِيْهُمُ ـ يَوْمَ الْغَدِيْرِ ـ نَبِيُّهُمْ
بِـ « خُمٍّ » ، وَأَسْمِعْ بِالرَّسُوْلِ مُنَادِيَا

فَقَالَ لَهُ : قُمْ ـ يَا عَلِيُّ ! ـ فَإِنَّنِيْ
رَضِيْتُكَ مِنْ بَعْدِيْ إِمَاماً وَهَادِيَا

هُنَاكَ . . . دَعَا : اللَّهُمَّ وَالِ وَلِيَّهُ
وَكُنْ لِلَّذِيْ عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيَا

. . . إلخ (١) .

هنا يُجازِيْ الرسولُ الشَّاعرَ بهذا الدُّعاء :

« لا تَزَالُ ـ يَا حَسَّانُ ! ـ مُؤَيَّداً بِرُوْحِ الْقُدُسِ ، مَا نَصَرْتَنَا بِلِسَانِكَ » (١) .

---

(١) ص ٥٢٦ ج ٣ (القسم الأوَّل) مِنْ أعيان الشِّيعة .

ويقول الكُميت :

وَيَـوْمِ الـدَّوْحِ : دَوْحِ « غَـدِيْـرِ خُمٍّ »
أَبَـانَ لَـهُ الْـوَلاَيَـةَ ، لَـوْ أُطِيْعَـا !
وَلكِنَّ الـرِّجَـالَ تَبَـايَعُـوهْـاَ . . .
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهَـا حَقّـاً أُضِيْعَـا ! [1]

ويقول الشَّاعر الأمير أبو فراسٍ الحمدانيُّ :

قَـامَ النَّبِيُّ بِهَـا ـ يَـوْمَ الْغَـدِيْـرِ ـ لَهُمْ
وَالله يَشْـهَـدُ ، وَالأمْـلاَكُ ، وَالأمَـمُ
حَتَّى إذَا أَصْبَحَتْ فِيْ غَـيْرِ صَـاحِبِهَـا
بَـاتَتْ تَنَازَعُهَـا الـذُّؤْبَانُ وَالـرَّخَمُ
تَـالله ! مَـا جَهِـلَ الأقْـوَامُ مَـوْضِعَهَـا
لكِنَّهُمْ سَتَـرُوْا وَجْـهَ الَّـذِيْ عَلِمُـوْا [2]

ويقول الإمام السيِّد محسن الأمين :

بِيَـوْمِ الْغَدِيْـرِ اسْتَـوْضَحَ الْحَقُّ وَانْجَـلَى
وَلَمْ يَبْقَ بَـيْنَ النَّـاسِ مِنْ دُوْنِـهِ سَـتْرُ [3]

ويقول الأستاذ الصَّديق بولس سلامة ، مِنْ ملحمته الخالـدة ـ فِيْ أحد فصولها ـ بعنوان « يوم الغدير » :

---

(١) ص ٥٢٩ المصدر .

(٢) و(٣) ص ٥٣١ مِنَ الأعيان .

بَـلَغَ الْـعَـائِـدُوْنَ بَـطْحَاءَ « خُـمٍّ »
فَـكَـأَنَّ الـرُّكْـبَـانَ فِيْ الـتَّـنُّـوْرِ !

« يَـا إِلَـهِـيْ مَـنْ كُـنْـتُ مَـوْلَاهُ حَـقّـاً
فَـعَـلِـيٌّ مَـوْلَاهُ غَـيْرَ نَـكِـيْرِ

.. إلخ [1] .

والقرآنُ العظيم ، قَدْ تكفَّل بتخليد هذا اليوم الكبير .

فبعْد أنْ نَزَلَ الـوحْيُ على الـرَّسول صـلَّى الله عليه وآلـه وسلَّم ، يأْمـره بإبلاغ الأمَّة فِيْ حقِّ عَليٍّ :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَـا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّـكَ . . . وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَـمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] .

وما كاد يرنُّ صوت، الـرَّسول ـ صـلَّى الله عليه وآلـه وسلَّم ـ مبلِّغاً وحْيَ ربِّه ، حتَّى يهبط الوحْيُ ـ مرَّةً أُخرى :

﴿ الْـيَـوْمَ أَكْـمَـلْتُ لَـكُـمْ دِيْنَكُمْ ﴾ . . . [3]

وإنَّ كُتُب التفْسـير ، تنصُّ عـلى : أنَّ الآيــة الأوْلَى ، فِيْ التَّبليـغ بحقِّ علِيٍّ ، وأنَّ « اليوم » ـ فِيْ الآية الثانيـة هو « يـوم الغديـر » ، وأنَّها نزلتْ غبَّ حديث الغدير . . .

---

(١) ص ١٢٥ وما بعدها ـ مِنَ الملحمة .

(٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) المائدة : ٣ .

على أنَّنا نكتفِيْ ـ للإِيجاز ! ـ بأنْ نُرجع القارىء الكـريم ، إلى : كتاب « الغـدير فِيْ الكتـاب والسُّنَّة » ، لفضيلة الأستـاذ المحقِّق العـلاَّمـة الشَّيـخ عبدالحسين الأمينِيْ ؛ و« الغدير فِيْ الإسلام » ، للأستاذ الشَّيخ محمـد رضا فرج الله ؛ و« أعيان الشِّيعة » ، للعلاَّمة السيِّد محسن الأمين ، فِيْ الجزئـين الخاصَّين بالرَّسول والإمام .

- ٣ -

يقول الدكتور :

و « مــذهـبُهــم فِيْ أنَّ آلَ الـبيـتِ ،
رضــوانُ الله عليهم جميعــاً ، هُمْ
وحـدَهُمْ ورثَـةُ علْم الـرَّسـولِ ،
ولــديهِمْ وحــدَهُمْ عـلمُ القــرآنِ
ظاهِرِهِ وباطِنِهِ » . . .

ويُسند ما يُؤيِّد هذه القولة ـ أيضاً ـ إلى الكتاب .

إنَّ الشِّيعـة لا ترى : أنَّ آل البيت وحـدَهم ، هُمُ الـذين لـديهم علْمُ القرآن ، أو علْم الرَّسول . . .

ولكنّهـا ترى : أنَّهم مصْـدر العلْم ، مِنْ بعْـد الـرَّسـول ، وخلفـاؤُه ؛ وعندهم مِنَ العلْم ، ما ليس عند غيرهم .

أيْ : إنَّ نصيبهم منـه ، أوْفَرُ مِنْ سـائـر النَّـاس . لأنَّ الإمـام ـ وإليـه مـرجِع الأمَّـة ـ لابُـدَّ أنْ يكـون أوفَـرَ منهم نصيبـاً فِيْ : العلم ، والحـلم ، والعقل ، والأمانة ، و . . . و . . .

ولابُـدَّ للإمـام مِنَ العصمة ، مـا دام هو مصْـدر تبليـغٍ ، عنِ المشرِّع الأعظَم . . . ما دام خلودُ الرِّسالة ، يفرِض هذه الاستمراريَّة فِيْ التبليغ .

وما دام الإنسانُ مجموعةَ أخطاءٍ وأغلاطٍ ، فَقَدْ يُخطىءُ ويغلط الإمام ، إذا نفيْنا عنه العصمةَ ـ وهو يُفتيْ النَّاس .

فإذا كان معـرَّضاً للغلط والخـطإ ـ كإنســانٍ ـ فإنَّـه لَمِّا يتنـافى ومرتبتَـه ، كخليفةٍ لله على خلْقِهِ ، وكحجَّةٍ عليهم . . .

على أنَّ هذا موضوعُ ، ليس مجال إثباته ، أَو تدعيمـه بالأدلَّـة ، فيْ مثل هـذه السُّطور ، وهـو موضـوعٌ استوفى مِنَ البحث والتَّـدقيق ، ما يتنـاسب وضخامتَه وعمقَه .

- ٤ -

يقول الدُّكتور :

« لَقَدْ حَجَّرَ إخوانُنا الشِّيعةُ الأفاضـلُ أصحابُ هذا المذهبِ واسعَ رحمـةِ الله ، حـينَ جعلُوْا أئمَّتهُمْ وحدَهُمْ أصحابَ العلْمِ بالقرآنِ وما يتَّصلُ بهِ .

ومِنْ ثَمَّ ، جـعلُوْا مَـنْ سـواهُمْ مِـنَ « العـامَّـةِ » ، الـذينَ لا ينبغِيْ أنْ يُسمَعَ لهمْ ؛ ومِنَ العامَّةِ عندهُمْ : أبـو بكرٍ وعمَـر ، وسائـرُ رجـالِ الحـديـثِ والعـلمِ ، سِـوى آل البيتِ .

ليسَ بمثلِ هذا تحسنُ العلاقاتُ بينَ : الشِّيعــةِ ، وأهلِ السُّنَّةِ » . . . إلخ .

ويُرجع ما يُؤيِّد هذه الفقرات للكتاب ـ أيضاً . . .

وفِيْ جـوابنا عن هـذه الدَّعـوى : أنَّ الفقرة الأوْلى ، قـدْ سَبَقَ أنْ عقَّبْنا عليها . . .

أمّا أنَّهم جعلوا مَنْ سواهم مِنَ « العـامَّة » - إلـخ - فهذا مـا لا يجوز أنْ يُنسب لطائفةٍ كالشِّيعة ، تعرف لكلِّ ذِيْ فضْلٍ فضْلَه ، وتُوفِّيْ كـلَّ ذِيْ حقٍّ حقَّه .

أجَل ! إنَّ الفضيلة لا تتساوى لديهم ، فَقَدْ :

﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ أَجْراً عَظِيْماً ﴾ . . . [1]

أمَّا أنَّ الشِّيعة ، تعتبر الخليفتين أبا بكرٍ وعمرَ ، مِنَ « العامَّـة » ، فهذا مِمَّا يُضحك حقّاً ! ، فهذه كُتُبُ علمائها لا تذكرهما ، بشيْءٍ مَّا ، ممَّا يبخسهما حقَّهما . . .

ولا أعـرف كيف يتسنَّى لواحـدٍ أنْ ينسب « التَّحجير » للشِّيعـة ، بمثل هـذه السُّهـولـة واليسر ، فِيْ : الادِّعـاء ، والـزَّعم - وهِيَ الفـاتحـة لِبَـاب الاجتهاد ، على مصراعيه ؟ ! .

أليس هذا دليلاً على مسايرتها للعصر ، وأهليَّتها للتَّطوُّر ، ومماشاتها مع عجلة الزَّمَنِ ، فِيْ سيرها المغذِّ . . . ؟ !

هـذا . . . وإنَّ كلَّ هـذه الدَّعـاوى ، تُنـاقض مـا وَصَمَ الـدَّكتـورُ بـه الشِّيعةَ ، مِنْ إخفاء مذهبها . . . !

* * *

---

(١) النساء : ٩٥ .

وبعْد . . . فمِنَ الغريب ـ حقّاً ـ أنْ ترد هذه الجملة :

« ليسَ بمثلِ هذَا تحسنُ العُلاقاتُ بينَ الشِّيعةِ وأهلِ السُّنَّةِ » .

بعْد إلصاق كلِّ تلك التُّهَم ، بهذه الفِرْقة الخيِّرة ! .

إنَّها كلمةٌ حقَّةٌ . . . نُعيدها لقائلها حرفيّاً . . .

فإنَّنا ـ شيعةً وسنَّةً . . . بل إنّنا ـ نحن العربَ والمسلمين جميعاً ـ لَفِيْ أمسِّ الحاجة إلى وحدةٍ إسلاميَّةٍ عربيَّةٍ ، تربط بيننا ، وتُوحِّد بين صفوفنا ، علَّنا نُواجه الخطر المجرم : « صهيون » الباغية ؛ ونقف فِيْ وجه العدوِّ الاستعمارِيِّ ـ بأيِّ ألوانه ومِنْ أيِّ جهاته ـ الذِيْ استغلَّنا ، وسَلَبَ منَّا روحيَّتَنا ، ولم يُعوِّضنا ، حتَّى بشيْءٍ مِنْ ماديَّته . . .

القطيف : ٠٥/٠٤/١٣٧٢ هـ — ٢٣/١٢/١٩٥٢ م

في الغربال

« حول ج ٢ ، م ١٠ ، ص ٦٥ - مِنْ
مجلَّة الأديب » .

« فِي المثل : مَنْ غَرْبَلَ النَّاسَ نَخَلُوْهُ » .
« إذنْ ، ويلٌ للنَّاقدين ! ويلٌ لهم ، لأنَّ الغربلة دِينُهم ودَيْدَنُهم ! .
فَيَا لِبُؤْسهِمْ ، يومَ ينظرونَ ، خلالَ ثقوبِ غرابيلِهِمْ ، فيروْنَ أنفسَهُمْ نُخالةً مرتعشةً ، فِي أُلوفٍ مِنَ المناخل ! إذْ ذاكَ يعلمُونَ أيَّ منقلبٍ ينقلبونَ . فيندمونَ ولاتَ ساعةَ مندمٍ ! » .
« أجَلْ ! إنَّ مهمَّةَ النَّاقدِ الغربَلَةُ . لكنَّهَا ليستْ غربلةَ النَّاس : بل غربلةُ ما يُدوِّنه قسمٌ مِنَ النَّاسِ ، مِنْ : أفكارٍ ، وشعورٍ ، وميولٍ . وما يُدوِّنه النَّاسُ مِنَ : الأفكارِ ، والشعورِ ، والميولِ ، هو ما تعوَّدنا أنْ ندعوه أدباً . فمهنةُ النَّاقدِ ، إذَنْ ، هِيَ غربلةُ الآثار الأدبيَّة ، لا غربلةُ أصحابِهَا » .

لأوَّل مرَّةٍ ، قراتُ فِيْ « غِربال » الأسْتاذ ميخائيل نُعيمة ، استهوتنِيْ هذه المقدِّمةُ الرَّائعةُ ، وآمنتُ بها ، كحقيقةٍ تترفَّع عنِ الجدل ، وتجربةٍ يعرفها مَنْ مارَسَ هذا اللَّون مِنَ الأدب . . .

ويلٌ للنَّاقدين ! .

ولكن هلِ « الغربلة » دِيْنِيْ وَدَيْدَنِيْ فويلٌ لِيْ ؟ ! .

أشعر فِيْ قرارة نفسِيْ : شوقاً ملحّاً ، لأن أكون منهم ، فأحمل مِنخلِيْ ، أُغربل فيه ما يُدوِّنه قسمٌ مِنَ النَّاس ، مِنْ قولٍ . . . فتكون مهنتِيْ : غربلةَ آثارِ بعضِ الناس ، لا غربلتَهم بالذَّات ـ كما يُقرِّر ميخائيل .

وليستْ هذه هِيَ المرَّة الأوْلى ، التِيْ أحمل فيها هذا « المِنْخل » ، فترتعش فيه هذه النُّخالة ، أو تلك . . .

ولستُ أودُّ أنْ ترتعش فِيْ مِنْخَلِيْ ، إلاَّ نُخالة أُولئك الأدَباء الصَّادقين ، لا الأدعياء ؛ بل ولا الأنصاف منهم .

ولكن فَلِنُخالة هذا الشَّابِّ ، التِيْ ترتعش فِيْ مِنخلِيَ ـ اليوم ـ قِصَّةٌ : إنه مِنْ وطنِيْ . . . والوطنيَّةُ تحتِّم عَلَيَّ : أنْ أُعنى حتَّى بالنُّخالة منه . . .

وَالذَّنب لهذه الوطنيَّة المتطرِّفة ، التِيْ قُدِّرَ لِيْ أنْ أُبتلى بها ، ولا أرى بُدّاً مِنَ الانصياع لِمَا تُمْلِيهِ عَلَيَّ . . .

* * *

عنوانٌ ضخمٌ : « الحياة الأدبيَّة على ضِفاف الخليج الفارسِيِّ » ! .

وأقلُّ ما تُوحيه ضخامة هذا العنوان ، إلى ذهن القارىء : أنّه بحثٌ عميقٌ ، قائمٌ على أُصولٍ فنيَّةٍ دقيقةٍ ، مستقصٍ دقائقَ الموضوع وجلائلَه ! .

ولكن فكَمْ تكون الخيبةُ قويَّةً وعنيفةً ، على أعصاب هذا القارىء المترقِّب ، إذا قَرَأ مستهلَّ الكلمة ، فرأى : التكلُّفَ ، والاجترارَ ، هما كلُّ ما يُميِّزها . . .

وليس بعْدهما سوى النَّقل السَّاذَج ، وسرْد أسماءٍ مِنَ الأعلام ، ولم يرَ وراء ذلك شيئاً . . .

حينذاكَ . . . فَلْيُؤْمِنْ : أنّه بقلم شابٍّ قِرزامٍ . . . يُريد أنْ « يَتزَبْزَبَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَصْرَمَ » .

ولا تحسَبْ أنَّ ذلك منبثقٌ عن طموحٍ ، فما هو سوى الشُّعور بالنَّقص ، فحسْب ! .

ويزيده فِيْ رغبته ـ تلك ـ وإلحاحِه فيها : ما يرى مِنْ تشجيع بعض المجلاَّت النَّفعيَّة ، التِيْ لا يُعنيها سوى جلْب المنفعة الماديَّةِ ، حتَّى أنّه لَيَشُقُّ عليها أنْ تحذف ـ مِنْ دفتر المشتركين ـ مُشتركاً .

وهذه المجلاّتُ « الفقيرةُ » مِنَ الضَّمير الأدبِيِّ ، هِيَ : مبْعَثُ السَّطحيَّة والفضول ، فِيْ هذا الشرق العربِيِّ ! .

وكأنَّ الزَّمَنَ لم يرضَ بهذه البليَّة وحدَها ! ، دون أنْ يُضيف إليها بليَّةً أُخرى ، تُشاطرها هذه « السَّطحيَّة » المضرَّة . . . هِيَ : « الإذاعاتُ » الأميَّةُ ، التِيْ تعتبر « الأبجديَّة » ثقافةً ـ وثقافةً عاليةً . . . !

ولعلَّه مِنَ الـواجب ، أنْ أنصـح لشـابِّنـا : أنْ لايغـترَّ بتملُّق الصُّحف النَّفعيَّة ، التيْ جهْدَها ، على تغرير النَّاشئة .

وإلى جانب هذا النُّصـح ، أدعوه إلى : أنْ لا يُـورِّط نفسَه بمـواضيعَ ، تفوق طاقتَه ، فيعسر عليه أنْ يخرج منها ، دون تبعاتٍ شاقَّةٍ . . .

فعليه أنْ يدع مثـلَ هذه المـواضيع مـا دامتْ ـ بالنِّسبـة إليه ـ شـائكةً ، لا يقوى على الخلاص منها . . .

. . . وأنْ لايُورِّط نفسَه بالسَّير فِيْ هذه الدُّروب الملتوية . . . ما دام مِنْ مسالكها على الجهل الأعمى . . .

. . . فـإنِّيْ أخشى عليـه « التِّيـه الأبـدِيَّ » . . . وأُشفق عـلى قـدميـه « الهزيلتين » المرتعشتين ، أنْ تُمزِّقهما نواتِىءُ هذه الصُّخور ، وهِيَ على رهافةِ حدٍّ ! .

رِفقـاً بنفسـك ـ يـا ابنَ وطنِيْ ! ـ فـالـطَّريقُ أمـامـكَ عـلى انفســاح مدىً . . . !

ليس المجـد الأدبِيُّ « علكةً » ، أو قـطعـةً مِنَ « البسكـويت » ، تتلهَّى بها ! .

***

وَلْنَـأْخُذِ ـ الآن ـ فِيْ تفنيـد مزاعم نـاشئنـا ، دون أنْ نُشـدِّد عليـه ، أو نُحاسبه الحساب العسير ، على غلطاته ومغالطاته . . . فإنَّنا سنُحاول الرِّفق بـه ، ما دام الـرِّفق لا يتنـافى والأمـانَـة الأدبيَّـة ، ولا يتجنَّى عـلى الـوطنيَّـة الصَّادقة .

والـرِّفق ـ هنا ـ ذو غـايةٍ ، نـرمِيْ ، مِنْ ورائها ، إلى تجنُّب صـدمته ؛ وإنَّما نُريد أنْ ندلَّه على صُراح الطَّريق ، عسى أنْ لا ينحرف به السَّيرُ الأعمى عن مِهيعه .

لنا على المقال ـ مِنَ المآخذ ـ عدَّةٌ .

ولكن ـ لِمَا قُلنا ـ سنقف عـلى البعض منها ، ممَّـا يُعتبر السُّكـوت عنها : تشويهاً للواقع ، ومسايرةً للزَّيف ، أو تغريراً لناشئنا فِيْ جهله ، بما وَقَعَ فيه :

فمنها : ما يتَّصل بالأسْلوب .

فهو على شيْءٍ كثيرٍ مِنَ : الضَّعف ، والركَّة ، والإسفاف . . . فهـو فِيْ مسيس الحاجة ، إلى يـدِ مشذِّبٍ ، يُـدير فِيْ جـوانبه مِقصَّـه الحادَّ ، لِيَقـطع ما فيه مِنْ : مواتِ الغصون ، وذوابلِ الأوراق ، ومريض الجذور .

ولكنّه ـ قبْل هذه العمليَّة ـ يحتـاج إلى تطعيمـه بدَمِ الحيـاة . . . وكأنَّـه مريضٌ فِيْ غمرات المـوت ، لا تُجرى لـه العمليَّة الخـطِرة ، ما لم يُسعَف مِنَ الدَّم السَّليم ، بكميَّةٍ ، تَقيه مخاطرَ الانتكاس . . .

ومنها : ما يتَّصل باللُّغة .

فَفِيْ المقـال أخطاءٌ كثيـرةٌ مِنْ هذا النَّـوع . . . تـأبى الحصر ؛ لأنَّ لُغـة ناشئنا بعْدُ لم تستقمْ ، حتَّى تقوى . . . وهو بعْدُ لم يُدركِ النُّضج ، حتَّى يُميِّـز بينه وبين الفجِّ . . .

ومنها : ما يتَّصل بالتأْريخ .

فَفِيْ المقـال ـ أيضاً ـ حقـائقُ تأْريخيَّـةٌ ، مغلوطـةٌ وفـاضحـةٌ ، لا تتَّفق

والحقيقة . . . بل يحتجُّ عليها التأْريخ « الحقُّ » : إحتجاجا صارخاً . . .

فالمقالُ إنْ دلَّ على شيْءٍ . . . فعلى : ضعْفٍ فِيْ الذِّهن ، وضحولةٍ فِيْ الثَّقافة ، والتواءٍ فِيْ التَّفكير . . .

يُضاف إلى هذا كلِّه : إنسياقٌ طائشٌ مع « العواطف » وهوىً جموحٌ مع الأغراض ؛ كلُّ ذلك قضى عليه : أنْ يغضَّ طرفَه ، ولا ينظر إلى ما يشعُّ ـ أمام عينيه ـ مِنْ ضوءٍ . . . حتَّى أضاع مِنَ الطَّريق معالَمه ، وتاه فِيْ مجاهل الدُّروب .

وكان عليه أنْ لا يفعل ، ويقف حيث لا يقوى على سيرٍ ، لأنَّه يُحاول أنْ يكتب موضوعاً تأْريخيّاً ، دون أنْ يتوفَّر على أدواته وخصائصه . . .

وهذا ما لا يتَّفق ، والبحثَ العلمِيَّ المجرَّد . . . !

* * *

ولستُ أُريد أنْ أُدلِّل على كلِّ ما جاء فِيْ المقال ، مِنْ « شطحاتٍ » ، فعبثاً أُحاول أنْ أسرد ما فيه . . . !

ولكنَّه مِنَ السَّهْل على القارىء أنْ يتناول عددَ الأديب ، لِيُريحنِيْ عنِ التَّدليل . . . لأنَّ كلَّ ما فيه يصلح أنْ يُقام منه الدَّليل . . .

وَلَدَيَّ مِنَ اليقين : أنَّه ـ حين ما يرجع إليه ـ سيُقرُّنِيْ على ما ذكرتُ ، مِنَ : الرَّكاكةِ فِيْ الأسلوب ، وفقدانِ الأداءِ الفنِّيِّ ، وخنْقِ الأمانة فِيْ البحث ، وانْعدامِ الإخلاص للحقيقة . . .

ولكن ـ مع هذا كلِّه ـ فلن أَكْتفِيَ بذلك . . . بل أُحاول أنْ أسوق إلى القارىء نموذجاً ، ممَّا أذهب إليه ، وهو مِنْ نَمَاذجَ جمَّةٍ ، ليستْ بخيرٍ مِنْ هذا النَّموذج :

[فَذَكَرَ فِيْ كتابه « طبقات الشُّعراء » ، فِيْ الفصل الذِيْ عَقَدَهُ لِشعراء القرى العربيَّة ، بلادَ البحرين « ؟ ! » فَعَدَّهَا مِنْ جملة البلاد التِيْ تُساهم فِيْ النَّشاط الأدبيِّ آنذاك] .

وإضافةً إلى هذا التَّعقيد فِيْ الأسْلوب ، فإنِّيْ أجدنِيْ مضْطرّاً إلى أنْ أُوجِّه ـ لناشئنا ـ هذه الأسئلة :

هل تضاءلتِ البحرين ـ فِيْ نظركَ ! ـ حتَّى عددتَهَا قريةً ، مِنَ القرى العربيَّة . . . ؟

وما هِيَ المدينة ، التِيْ تنضوِيْ تحتها هذه القرى ؟ ، وأين تكون ؟ ! .

وهلِ البحرين ، التِيْ تصدر فيها « المجلَّات الثَّلاث » ـ كما تقول ـ تعدُّها قريةً ؟ ! .

إذا لم تكن سديدَ المنطق ، فِيْ القضايا التأْريخيَّة . . . فهلَّا تكون وفيّاً لأصدقائكَ . . . ؟ !

ألم تعلمْ : أنَّ عدَّكَ البحرين « قريةً » ، يُغضبهم ، ويُغضب التأْريخ ـ معاً ؟ !

ولا نُحاسبكَ على الغضّ مِنْ قيمة وطنكَ ـ القطيف ـ فإنَّ الحديث وإيَّاكَ ـ حوله ـ ذو شجونٍ ! .

* * *

ونَموذجٌ آخر ، هو قوله :

[هذا إلى أنَّه جَعَلَ فِيْ الطَّبقة الرَّابعة للجاهليِّين طرفةَ بن العبد الشَّاعر البحرينيَّ « ؟ ! » صاحب المعلَّقة الشهيرة ـ لخولة . . . إلخ ـ فَذَكَرَ أنَّه كان يُعَدُّ مِنَ الطَّبقة الأوْلى لولا قلَّة شعره] ـ إلخ .

غَلَطٌ لُغَوِيٌّ كرَّره الشَّابُّ ، هو : النِّسبة إلى البحرين : « بَحْرَيْنِيٌّ » .

لسنا نُنكر أنَّ القياس ، فِيْ النِّسبة إلى البحرين ، هو « بحرينِيٌّ » . . . ولكنَّ اللغة تنصُّ على أنَّ القياس ـ فِيْ هذه النِّسبة ـ غَلَطٌ . . . وخلافُ القياس ـ هنا ـ هو « القياسُ » . . .

وقَدْ نصَّ على ذلك ياقوتُ الحمويُّ ـ فِيْ معجم بلدانه ـ عند ذكره الْبَحْرَيْنَ . وكُتُبُ اللُّغة كلُّها على ذلك ، أيضاً .

ولكنَّ الشاب أراد أنْ يُرْضِيَ نفراً بحرانِيِّين ! ـ رغْماً على آنافهم ـ مِمَّنْ أقامُوا النَّزعة الطَّائفيَّة ، حتَّى فِيْ اللُّغة :

« وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِيْنُ » .

ولا نُريد مناقشَتَه فِيْ نسبة « طرفة » للبحرين ، دون تحقيقٍ . . . إذ مِنَ

الممكن أنْ نتلمَّس لـه العذر ، بـأنّه تـابَعَ فِيْ ذلـك الْمُؤَرِّخين القـدامى ، يوم كانتِ البحرين ، تعنِيْ هذه الرقعة الممتدَّة مِنَ الْبَصَرةِ إلى عُمَانَ . . .

لا نُـريد منـاقشتَـه فِيْ هـذا ، وإنْ كـان حـديثُ اليـوم ، غـيرَ حـديث الأمس ؛ حيث أصبحتِ البحـرينُ ـ اليومَ ـ تعنِيْ رقعـةً صغيرةً ، هِيَ جـزءٌ مِمّـا تعنيه أمسٍ ؛ فكـان عليه أنْ يُحـدِّد الرُّقعـة باسْمهـا اليـوم ـ لـو كـان فِيْ مقـدوره ـ أو يُشير إلى أنَّ المقصـود مِنَ الْبَحرين ، هـو إطْلاقهـا ، ومُسـمّاهـا التأْريخِيُّ القديم ؛ وليست « بَحْرَيْنَ » القرن العشرين ، الـذِيْ تجزَّأتْ فيـه الأرضُ الواحدةُ ، إلى أجزاءٍ ، وأجزاءٍ . . .

* * *

وغَلَطٌ آخـر ، هو : قـولُه ، بعْـد تعداده أسماء الشُّعـراء البحـرانيِّـين ـ بالمعنى العامِّ ـ أنّهم :

« أخـذُوْا حـظَّهُـمْ مِـنَ الـشُّـهـرة والـظُّهـور ، وأشعـارُهم لا تـزال محفوظةً فِيْ الصُّدور ؛ ومرعيَّـةً على جانبٍ مِنَ الأهميَّة » .

ولسنـا نُسائله عن كـلِّ مَنْ ذَكَرَهُمْ ، وعن منـزلتهم . . . وإنّمـا نـأْخـذُ واحداً منهم ـ فقط ـ هو : سُليمان الْمُسْلِمُ ـ كمثالٍ ، ليس إلاّ . . .

فَفِيْ أيِّ يومٍ ، بل فِيْ أيِّ لحظةٍ : أخَذَ سليمانُ بعضَ هذه الشُّهرة ؟ .

ومَنِ الذِيْ يحفظ له شعراً فِيْ صدره ؟ ، ومتى رُعِيَ . . . ؟

ومَنِ الذِيْ أطْلَقَ عليه اسْمَ « ناظمٍ » ، بلْهَ الشاعرَ . . . ؟

لعلَّ السَّجع هو الذِيْ اضْطرَّكَ ، إلى أنْ تقول : « فِيْ الصدور » ، لِتَكون على وزْن « الظهور » . . . ؟ !

ولكنْ فلولا قَداسة الموت وجلاله ، لَعَرضتُ شيئاً مِنْ هذيان سُليمان المسلم ، الذِيْ تقول عنه : إنَّه أخَذَ حظَّه مِنَ الشُّهرة والظُّهور ـ الخ .

. . . ولَأوْقَفْتُكَ متلبِّساً بالجريمة ، حيثُ إنَّ العاطفة ـ وحدَها ـ هِيَ التِيْ تُمْلِيْ عليكَ ما تقول ، وتستسلم لمشيئتها ، فِيْ حالة اللّاوعْيِ ، اسْتسلام مَنْ أُرسل إليه المُخدِّر ! .

* * *

ولسنا نُؤاخذكَ على إغماض عينيكَ عنِ الضَّوء ، الذِيْ يشعُّ أمامكَ . . . فلعلَّ عينيكَ ، ممَّا يعشيها وضِيْءُ النُّور . . . ما دمتَ أسير غرضٍ ، وعبْدَ عاطفةٍ .

وبعبارةٍ أُخرى : لسنا مِمَّنْ يُؤاخذكَ على إهمالكَ مَنْ أسْهَمَ فِيْ حركتنا الأدبيَّة ، فِيْ هذا الإقليم ـ وأنتَ الذِيْ تُسيَّر رهْنَ العاطفة الجموح . . .

فلا نُؤاخذكَ ـ لذلك ـ على إهمالِكَ ، وعدمِ ذكْرِكَ الرَّائدَ الأوَّل ، للأدب الجديد فِيْ القطيف ، وشاعرَه الأوَّل ، الأستاذ الشَّيخ عبدالحميد الْخِطِّيِّ ، والشَّاعر المُبدع الأسْتاذ محمَّد سعيد الشيخ علِيٍّ الْخُنيزِيِّ ، وغيرهما . . .

لَقَدْ أحسنتَ لِمَنْ أهملتَهم ، مِنْ حيث قصدتَ الإساءَةَ إليهم ، فحفظتَ لهؤلاء كرامتَهم ، حيث لم يتعرَّضوا لإسفافكَ المنحطِّ ـ كما تعرَّض له مَنْ سردتَ أسماءَهم : سرْداً مبتذلاً ، متكلِّفاً . . .

غير أنّنا نُحاسبكَ - الحسابَ العسير - على وصمكَ أُدباء القطيف والبحرين ، بالتَّقليد والجمود . . . ! وفِيْ هذين القطرين : الْخِطِّيُّ ، والْعُرَيِّضُ .

وليس لكَ فِيْ حكمكَ هذا ، مِنْ دليلٍ ، تستند إليه ، إلاَّ نفسكَ . وهو دليلٌ واهٍ ، لا ينهض حجَّةً . . . !

* * *

ليس موضوعكَ - ياابنَ وطنِيْ ! - بالسَّهل الليِّن . . . وليس أحد مقوِّماته : أنْ تستعير « مقاطعَ » شعريَّةً ، مِنْ هذا الشَّاعر ، أو ذاك . . . إنّما هو التأْريخ ، والدِّراسة العميقة الفنِّيَّة . . . !

فما لم تستكمل مِنَ المؤهِّلات ، ما يُمدُّك بالطَّاقة ، لخوض هذا العُباب ، فَدَعْهُ لِتتجنَّب هذه المزالق ، وتبتعد عن هذه الأخطاء ، التِيْ تبقى سبُّتها ، مدى الأجيال . . .

فليس موضوعكَ هذا ، كما تظنُّ ، حين ما رحتَ تسرق بيتَيِ الشَّاعر الكبير أبِيْ ماضِيْ :

وأرَى ذَاتِيَ شَيْطَاناً وَأَحْيَاناً مَلاَكاً

* * *

هِيَ فِيْ رَأْسِيَ فِكرُ وَهِيَ فِيْ عَيْنِيَّ نُورُ

فسلختَهما فِيْ هذين البيتين السَّخيفين :

أَتَمَلَّى فِيْكِ شَيْطَاناً وَأَحْيَاناً مَلاكْ

***

أَنْتِ فِيْ عَيْنِيَ أَطْيَافٌ وَفِيْ قَلْبِيَ نُوْرُ

وفِيْ الحقِّ : إنَّكَ سارقٌ مبتكرٌ ، مِنْ طرازٍ فذٍّ . . . فعَهْدُنا بالسَّارق يأْتِيْ البيوت ، تحت أستار اللَّيل البهيم . . . أمَّا فِيْ ألَق الضُّحى ، فلا . . . !

القطيف : { ١٤/٥/١٣٧٠ هـ
٢١/٢/١٩٥١ م

صُـــــوَرٌ ....

نُشر فِيْ العِـرفان الغـرَّاء اللُّبنانيَّـة ـ فِيْ العـدد الثَّـانِيْ م الـ ٤١ ، ـ ربيـعٍ الآخر ١٣٧٣ هـ .

كثيراً ما تثور ـ وأنا على سريرِيْ ، ومصباحُ النُّور الخافت ، يُنير جانباً مِنَ الغرفة . . . لأنَّ النوم يأبى أنْ يزورنِيْ فِيْ النُّور . . . فهو يتلصَّص إلى عينَيَّ ، بين طيَّات الظلام .

كثيراً ما تثور رواسب الأفكار ـ فِيْ تلك اللَّحظات ـ وتتجسَّد ، فتتراقص أمام عينَيَّ ، تُطارد النَّوم ، الذِيْ يُلْقِيْ ظِلالَه على جفونِيْ ، فيفرُّ كَلُصٍّ خَشِيَ الفضيحة ، دون أنْ يُصيخ لنداء عينَيَّ ، الظَّامئتين إلى غفوةٍ لذيذةٍ . . .

أفكارٌ وخواطرُ . . . تملك عليَّ تفكيرِيْ ، فلا أستطيع أنْ أُحوِّله عن فكرةٍ ، لا أرضاها . . . ولا أُحوِّله لأخرى ، أودُّها وأرضى عنها . . . فلا أكاد أملك ـ مِنْ أمرِيْ ـ نفْعاً ، ولا ضرّاً . . . !

أفكارٌ مختلطةٌ ، لا يربطها جامعٌ . . . ومتكاثرةٌ ، لا تنتهِيْ إلى حدٍّ . . . وإنَّها ـ إلى ذلك ـ لَجامحةٌ ، كالبحر العميق الغاضب ، فِيْ مارد الإعصار . . . وهِيَ تزداد قوَّةً وصلابةً ، بين : لحظةٍ ، وأُخرى ، حتَّى تَأْخذَنِيْ إلى عُمْق أعماقها ، ثمَّ تدعنِيْ أغور وأطفُوْ ـ مِنْ دون إرادةٍ منِّيْ . . .

. . . فلا تكاد تتسلَّمنِيْ هذه الفكرة ، حتَّى تُسلمنِيْ لتلك الخاطرة ؛ ومنها إلى ثالثةٍ ، إلى ما شاء الله . . . !

* * *

فهذه فكرةٌ قضى عليها الزَّمَنُ ، وجرَّ عليها ذيْلَ النِّسيان . . . وتلك فكرةٌ بنت البارحة . . . وثالثةٌ بنت اللحظة . . .

وهكذا . . . تتباعدُ بينها الأعمارُ أو تتقاربُ ؛ وتتَّفقُ فِيْ بعض معانيها ، أو تتباعدُ بينها الحدودُ . . .

ولكنَّ شيئاً واحداً ، لا تَخْتلف فيه ، هو : مُطاردة النَّوم ، مِنْ بين عينَيَّ ! .

* * *

هذه فكرةٌ أدبيَّةٌ ، فِيْ موضوعٍ كنتُ مسحتُ اليراع منه ، منذ أمدٍ جدٍّ بعيدٍ ، فأسْتعرضه ، وأنا أودُّ أنْ أصيغه فِيْ قالبٍ جديدٍ ، أو أنْ أمدَّ إليه يدَ الإصلاح والتَّهذيب ، بزيادةٍ ، أو تغييرٍ ، وأنْ أتناوله بمقصِّ التَّشذيب : حذْفاً ، وبتْراً . . .

ولكنَّه انفلتَ مِنْ أنْمُلَتِيْ . . . فهل أدعه ؟ ، أم أُنفِّذ هذه الفكرة . . . ؟

سأدع الحكمَ الأخير ، ليومٍ آخر ! .

* * *

وهذه فكرةٌ ، كان لها زَمَنٌ ، وهِيَ ترتعش فِيْ فكرِيْ ، دون أنْ أُعيرها نظرةً ، أو أُفكِّر فيها لحظةً ، وهما ما يدفعان لولادتها ، لِتَتَنَسَّم الحياة . . .

فلا تبرح ترتعش ، وترتعش ، حتَّى يحين يومُها الأخير ، فإمَّا حياةٌ ، أو موتٌ . . .

ولكنَّهــا ـ « هــذه اللَّحــظة » ـ تكــاد تنفلتُ مِنْ حيِّــزهــا الضيِّق ـ « فكرِيْ » ـ إلى حيِّزٍ أوسعَ . . .

إنَّها تُـريد أنْ تتنسَّم مِنَ الحياةِ هواءَها الطَّلْق ؛ وتتلَّمس مِنَ الـوجـودِ صدرَه الرَّحبَ ، وتحسَّ البقاءَ فِيْ امتدادِ أُفُقٍ . . .

إنَّها لَتُصارع الموت ، وتكاد تتغلَّب عليه ، لو أنَّ اليراع يُمدُّها بنفحةٍ مِنْ روحه . . .

لَقَـدْ كانت تـرتعش فِيْ حيِّـز فكـرِيْ . . . ولكنَّهـا ـ الآن ـ تـرتعش فِيْ لسانِيْ ، وقَدْ تألَّفتْ منها المقاطع ، وانتظمتْ منها المعانِيْ ، حتَّى تكاد اللفـظةُ تسبق أُختَهـا . . . فأكـاد أثِب مِنْ منامِيْ ، لِأتنـاول الـيراع والقـرطـاس ، فأحتفل بها وأشهد تنزُّلاتها . . .

ولكنَّ نــظرةً واحــداً ، تقضِـيْ عــلى كــلٍّ هــذا ، وتلفُّ الفـكــرة بالعدم . . .

نـظرةٌ إلى « المصبـاح الخــافت » ، وقَـدْ رَسَمَ ـ أمــام عينِيْ ـ عـلامــةَ استفهامٍ ، لأسئلةٍ كِثُر . . .

. . . فآوِيْ إلى فراشِـيْ ، فعساه أنْ يعصمنِيْ . . .

* * *

ولا أكاد أعود مستسلماً لِمَا طاف بِيْ ، حتَّى أنتقـل مِنَ الخواطـر الأدبيَّة ، إلى خـواطـرَ أُخـرى ، لا تجتمـع وتلك فِيْ نقــطةٍ ، ولا تلتقِيْ معهـا عنــد هدَفٍ . . .

. . . إنّها لعلى نقيضٍ مع هـذه الخواطـر ـ فَهِيَ عدوَّتِيْ « إذَنْ » ، لأنِّيْ صديق تلك الخواطـر ، وعدوُّ الصَّـديقِ عدوٌّ ـ كـما يُقَرِّرون ـ إنْ لم تكن هِيَ عدوَّتِيْ مباشرةً . . . !

ولا أكاد أبنِـيْ ـ مِنْ هذه الخواطر ـ قصراً مزخرفاً ، رائعَ المنظر ، يأْخذ بمجامع القلب ، وهو فِيْ عالم الْحُلُـم والخيال . . .

وليس إلَّا لحظةً ، حتَّى أتذكَّر ما بيننا مِنْ عميق العداء ، فأقف حائراً .

هـل أهـدم مـا بنيتُ ، وقَـدْ أفنيتُ ـ فِيْ هــذا البنـاء ـ الـوقتَ ، مِنْ عمرِيْ . . . ؟

هل أهدم مـا بنيتُ ، وأنا أتـطلَّع ـ بشوقٍ ولهفـةٍ ـ إلى محلِّيْ ، مِنْ هـذا القصر الرَّائع ، وإلى الأحلام ، التِيْ أراها ـ بعْد أنْ يتمَّ منه البناءُ . . . ؟

ولكنِّيْ لا أبــرح ـ إلَّا لحـظةً ـ حتَّى أجــد القصر الضَّخم : أنقـاضـاً مبعثرةً . . . قَدْ تلاشى ظلُّه ، حتَّى مِنَ الخيال . . .

فهنـا أعود إلى حقيقتِيْ ، فـأرى : أنَّ ما تبنيـه الأحلام ، يتـلاشى منـه باهت الظِّلِّ ، أمام شمس الواقع الرَّاهن . . . !

* * *

وبعْد أنْ نال منيِّ الجهد ما نـال . . . فِيْ بناء هـذا القصر ، وقَدْ تـلاشى منه الظِّلُّ ، وخفِيَ الأثر ، أمرُّ على صُوَر أشخاصٍ ـ وحداناً ، وجماعـاتٍ ـ ولكن :

إِنِّيْ لَأَفْتَحُ عَيْنِيْ ـ حِينَ أَفْتَحُهَا ـ

عَلَى « كَثِيرٍ » ، وَلَكِنْ لَا أَرَى « أَحَدًا » .

ـ كما يقول شاعرنا الخالد « دعبل » .

إنِّي لأمرُّ بأشخاصٍ ، ليسوا هم ـ فِيْ الحقيقة ـ سوى أصداء وظلالٍ . . . فهم لا يحملون أكثر مِنْ دلالة الظِّلِّ على الضَّوء ، أو على الشَّاخص ، ومِنْ دلالة الصَّدَى على المتكلِّم . . .

أمرُّ بجماعاتٍ لاهيةٍ ، غارقةٍ ، فِيْ ما لا يعود عليها ، ولا على غيرها ، بالنَّفع ؛ بل تصرف مالَهَا ، وتفنِيْ عمرَهَا ؛ وتُبدِّد طاقتَهَا ، فِيْ ما يعود عليها ، وعلى أُمَّتها ، بالويل ، والعار ، والخسارة . . .

ولكنَّها لا تعرف مِنْ ذلك شيئاً ، ولا تُحسُّ بواقعها الأليم المرير . . .

أو أنَّها لا تُريد أنْ تُحسَّ به ، فتقنع بـ « الوشوشة » ، والهذَر ، والجِدال الفارغ العقيم ، لأنَّها لا تصيد ، إلَّا فِيْ الماء العكر ـ وإنِ انتهت إلى الفناء العاجل المحتَّم . . .

وهنا . . . أطوِيْ نفسِيْ على مضضٍ وألمٍ ، فيأْخذ منِّيْ كلَّ مأخذٍ ، حتَّى أُحسَّ كأنِّيْ على مثْل الجمْر ، وأنَّ منامِيْ قَدْ تحوَّل إلى مثل الشَّوك . . .

* * *

وعند ذاك . . . أستعرض صورةَ أشخاصٍ ، يزعمون أنَّهم « أصداقاءُ » لِيْ . . . ولكنَّها « صداقةٌ » ، لا تتعدَّى الدَّائرة الضَّيِّقة ، حيث لا تزيد على الابتسامة الجوفاء ، ووجْهاً لوجهٍ . . .

. . . وإنْ كانت ـ فِيْ الوراء ـ المِبضعَ الرَّهيفَ ، والأداةَ المسنونة ، لِتسديد الضَّربات والتُّهم ، التِيْ لا تصدر إلَّا عن : خُبْثِ نيَّةٍ ، وسُوءِ طويَّةٍ ، وسَفالةِ ضميرٍ ، قَدْ فَقَدَ معنى الإنسانيَّة والفضيلة . . .

. . . فيخلق مِنَ الأراجيفِ الأهاويلَ ، حسْب ما شاء له « هذا الضَّمير الطَّيِّب » ! ، و « السَّريرةُ الطَّاهرة » . . . !!!

وتتناثر لدَيَّ الصُّوَر الرَّائعة ، لِمِثل هؤُلاء الأصدقاء « الخلَّص الكِرام » . . . !

***

فهذه صورةٌ لذلك « الصَّديق الكريم » الذِيْ سدَّد لِيْ « ضربةً » . . . وما كدتُ أتميَّزها ، ورحتُ أتَّقيها بكلِّ ما أملك مِنَ الوسائل ، وآخذ حذرِيْ منه ، وإذا به يرشقنِيْ بنظرة الحاقِد ، المنطوِيْ على أمضِّ الأسَف ، إذ لم تنلْ منِّيْ ضربتُه ما أراد . . .

وإذا به ينفر منِّيْ ـ أخيراً ـ لِيَصدق قول الشاعر :

يَرْضَى الْقَتِيْلُ ، وَلَيْسَ يَرْضَى الْقَاتِلُ » .

***

وهكذا تختلف الصُّوَر ، فِيْ ظِلالها ، وفِيْ ألوانها ، وفِيْ أُطُرِهَا . . . !

ولكنَّها تتَّفق فِيْ : أنَّهم يُريدون مِنَ الصَّديق : أنْ يكون « جسراً » ، يعبرون عليه لأغراضهمُ الدَّنيئة الواطئة . . . وأنْ يفقد هذا الصَّديقُ شخصيَّتَهُ ، لِيَندغم فِيْ شخصيَّتِهم . . .

وإنْ شاء الحريَّةَ والانطلاقَ ، والصراحةَ ، فهم له أعداءٌ ألدَّاءُ ، يتربَّصون به الدَّوائر ، وينتهزون فيه الفرص . . .

فأُولاء ، همْ ومَنْ يُدْعون أنَّهم « أعداءٌ » ، سواءٌ بسواءٍ . . . فهم يَهدفون لغايةٍ واحدةٍ ـ وإنِ اختلفتِ الوسائل . . . ويتَّجهون إلى مركزٍ واحدٍ ـ وإنْ تغايرتِ الطُّرُق . . .

إنَّ الضَّمير الطَّاهر « ! » ، والسَّريرة الطَّيبة « ! » إنَّ هذه ـ وحدها ـ هِيَ التِيْ تُؤلِّف بين نفوسهم ، وتشدُّهم إلى حيث يتآزرون ، ويتكاتفون على هذا « الصَّديق » ـ فِيْ عرف طائفةٍ ـ و « العدوِّ » ، فِيْ عرف الأخرى . . .

إلَّا أنَّ طائفة الأعداء هذه ، أشرَفُ مِنْ تلك . . . التِيْ لبستْ ثوبَ الصَّداقة رِياءً وخُداعاً . . . فزيَّفَتْ مِنَ الصَّداقة معناها الجميل ، ومظهرها الرَّائع . . .

* * *

فلا أكاد أنتهِيْ مِنْ هذا الاستعراض ، حتَّى يفترَّ ثغرِيْ عن بسمةٍ « مُرَّةٍ » ، فأُحوِّل نظرِيْ إلى حيث « المصباح الخافت » ، يرسِم خطوطاً باهتةً على الجدار ، كأنْ قَدْ كَتَبَ بحرفٍ بارزٍ كبيرٍ ، فأتميَّزه وأقرأُ :

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيْمِ يَسُبُّنِيْ . . .
فَأَعَفُّ ، ثُمَّ أَقُوْلُ : لا يَعْنِيْنِيْ . . .

* * *

عندئذٍ . . . وقَدْ مَرَّتْ عَلَيَّ ساعـاتٌ طوالٌ . . . غـرقتُ ـ خلالهـا ـ فِيْ هذه الأفكار . . . وقَدْ تحوَّلتْ هذه الخواطر ، والأفكار ، والآمـال ـ فِيْ نهاية المطاف ـ إلى آلامٍ صارخةٍ . . . !

عنـدئذٍ . . . أدعـو النَّوم ، لِيُـطبق منيِّ الجفْن ، فيُريحنِيْ مِنْ عنـاء مثل هذه الأفكار ، التِيْ ستذهب ، وتترك ـ وراءها ـ عميقَ الآلام . . .

القطيف : ٢٦/٦/١٣٧١ هـ
٢٣/٣/١٩٥٢ م

رَدٌّ عَلى نَقْدٍ

نشرته العِرفان الغرَّاء ، فِيْ عددها السَّادس ، مِنْ مجلَّدها الأربعين - شعبان ١٣٧٢ هـ ، نيسان ١٩٥٣ م .

النَّقـد النَّـزيـه ، رسـالـةٌ أدبيَّـةٌ ، يجب أنْ لا نتـوانى فِيْ أدائهـا ـ مهـما استطعنا ، وحين ما نجد السبيلَ لهذا الأداء . . .

ولكنَّها لا تجب ، إلاَّ على مَنْ يحمل مِنَ المؤهِّلات ما تُساعده على أدائهـا كاملةً ، على أنْ يتَّسم الأداءُ بالإخلاص ، لوجهِ الفنِّ . . .

لا أنْ يقـوم بهـا مَنْ هـو مِنَ الأصـول النَّقـديَّـة الفنيَّـة ، عـلى الجهـل الأعمى . . . أو مَنْ يجعل منها السَّبيلَ للشُّهرة الفارغة ، والـطَّريق للنَّشر ، فَينال مِنْ قدْس الأدب ، على أساس : أنَّ الغاية تُبرِّر الواسطة .

* * *

هـذه مقدِّمـةٌ ، لم أجد بُـدّاً مِنْ قولهـا ، لأخلص منها إلى الحـديث عن بضعـة سطورٍ ، تتشـاءب وتتمطَّى ـ قـرأتُها فِيْ ج ٤ ، م ٤٠ ، مِنَ العِـرفـان الغرَّاء ـ كَتَبَهَا صاحبُها على إثْر إفاقته مِنْ حلمٍ مزعجٍ ، تحت عنوان : « بين الْـخِطِّيِّ والحرِّ » .

يقول حضرةالكاتب :

« أيُـريـد الكـاتبُ الشَّيـخُ أنْ يُقَيِّـد انْـطلاق العِـرفـان ، ويحـدَّ مِنَ التَّجديد » ؟ ! .

ـ إلى آخر ما هنالك مِنْ كلامٍ ! .

ونودُّ لو نعرف مقياسَ الكاتب ـ حفظَه الله ! ـ لـلانْطلاق والتَّجـديد ، والتَّقــدُّم . . . ! لأنَّها كلمـاتٌ فقَـدَتْ مـداليلَهـا ، فِيْ هـذا العصر ، فِيْ ما انقلبتْ فيه مِنْ مفاهيمَ .

أمَّا إنْ كان الانطلاق ، مِنْ نوع انطلاق « دَلال » ! فإنَّنا لا نودُّ للعِرفان « هذا الانطلاق » ـ كما يحلُو للكاتب « المحترَم » أنْ يُعبِّر عنه ! .

ثمَّ كيف يُسـائـل الأستـاذَ الْـخِـطِّيَّ ، لِـيُرشـده إلى مـوضـع السُّخف والتَّنـافر ، فِيْ « دلال العجـائز القبيحـة » ، كَيْ ما يُصـدر حكمـه لـه ، أو عليه . . .

. . . ولا يلبث أنْ يُحسَّ ، ويضـع يدَه عـلى موضـع الانتقاد ، ويلمسَ الدَّاءَ ، فيُحدِّد النُّقطة المتداعية منه ، والتِيْ عناها الأستاذ الخُطِّيُّ ، فيُـوافينا بـالأبيـات المتنـافـرة القَلِقَـة ، التِيْ تتنـافى و « الـدَّلال » . . . تلك اللَّفـظة الشِّعريَّة السَّاحرة . . . ؟ !

اللَّهُمَّ إنْ يكُن هذا هو التَّجديد والانطلاق والتَّقدُّم ، فخُصَّ بـه السيِّدَ عبـدَالله شعيثـو ، الـذِيْ يـظهـر أنَّـه لا يــطمـح مِنْ ذلــك ، إلى أكـثر مِنْ هذا . . . !

ويقول ـ بعد ذلك :

إنَّ : « العِـرفان كـان ـ ولا يزال منـذ كان ـ مِنـبر الجميـع ، وجـامعـةَ الجميع ، وندوة الجميع » .

وهو ـ بهذه الكلمات ـ يعنِـيْ « شيئاً » ، قَدْ خانه التَّعبير عنه . . . وفَقَدَ طاقة الإبانة ، عمَّا يختلج فِيْ صدره ، ويُريد إبرازَه . . .

فهو يُريد : أنْ يرفع مِنْ قيمة العِرفان ـ على حدِّ فكره . . . ولكنَّها إذا كانت للجميع [وهِيَ للاستغراق ـ كما يُعبِّر النَّحويُّون] ، فإنَّ « الجميع » تضمُّ ما هبَّ ودبَّ : الرَّفيعَ ، والهزيلَ ؛ الأدبَ ، والهذَرَ ؛ الأدباءَ ، وأدعياءَهم . . . و . . . . و . . . .

وإنَّنا لَنُحبُّ لها ـ مِنْ أعماقنا ـ أنْ تكون مِنبر الأدب الرَّفيع ، وجامعةً للثَّقافة الحقَّة ، وملتقىً للأقلام القويَّة النَّاضجة النَّزيهة . . .

ولكنَّها ـ وأقُولها مجلجلةً صارخةً سافرةً ، لأنَّنا أصدقاؤُها الغُيُر ، نأْباها أنْ تكون « درجةً ثالثةً » . . .

ولكنَّها لا تخلو مِنَ « مواضيعَ » ـ شِعراً ، ونثراً ـ لو خلَتْ منها لوحَّدتِ المستوى ، ولكفكفتْ كثيراً مِنَ الغلواء ، ولوضعتْ حدّاً للغرور والصَّلف . . .

* * *

أمَّا الذِيْ أضحكنِيْ مِنْ كلام صاحبنا ، فهو :

« ولا لأهَاجم الشَّيخَ الخطِّيَّ النَّاظم ، الذِيْ تهرب منه القوافِيْ ، فيصبُّ جام النِّقمة على الملهَمين » ـ كذا ؟ ! .

ظنّاً منه أنَّ الخطِّيَّ مِنْ شيوخ الأدب « الكلاسيكِيِّ » ! .

صدِّقنِيْ ـ يا أخِيْ وسمِيِّيْ عبدَالله ! ـ إذا قلتُ لك ، غيرَ ساخرٍ ، يعلم الله : إنَّه قَدِ احمرَّ وجهِيْ مِنَ الضَّحك ، حتَّى ألقيت العِرفان بجانبِيْ . . . !

ولكنَّـكَ ـ أراحكَ الله ! ـ قَـدْ أرحتنِيْ مِنَ التَّعقيب عليكَ ، عـلى هـذا « الحكِيْ » ، إذْ قلتَ :

« فأنَا لا ناقَةَ لِيْ فِيْ الموضوع ولا جَمَلَ » . . .

ولعلَّ هذه أقربُ كلمةٍ لكَ مِنَ الصَّواب . . .

فَلِمَاذا ـ يا أخِيْ ! ـ تزجُّ نفسكَ فِيْ ما لا يُعنيكَ ، حتَّى تُكذِّبكَ شواهـد الامتحان ، وحتَّى كأنَّكَ لا تعلم : أنَّ فاقِدَ الشيْءِ لا يُعطيه . . . !

فما دمتَ تجهل الشِّعر ، ولا تُميِّز بين : الشَّاعر ، والنَّاظم ، ولا تعـرف مميِّزات الشَّاعر ، فكيف تُسيغ لنفسكَ ـ هداكَ الله ! ـ أنْ تنبرِيَ للخوض فِيْ موضوعٍ لا تفهمه ، ثمَّ تحكم على هذا الشَّاعر ، أو له ؟ ! .

. . . ولا تُفـرِّق بـين سـلاح الـدِّفـاع والهجـوم ، فَتُسيْءُ التَّصرُّف ، وتُعرِّض مَنْ تُدافع عنه لِـخَطر الهجوم . . . ؟ !

ولكنِّيْ قَدْ قلتُ : إنَّكَ قَدْ أرحتنِـيْ ـ فجزاكَ الله خيراً . . .

أمَّا قارئِـيَ العزيز ، فـما عليه إلاَّ أنْ يعـود للعِرفـان ـ فِيْ أعدادٍ مضتْ ـ لِيَعرف شاعريَّةَ الخطِّيِّ ، لأنَّه ليس بالنَّكرة فِيْ العالَم الأدبيِّ ، حتَّى نُعرِّفه ، أو نُـدافع عنـه . . . وعندئـذٍ يتَّضح : أهُـو مِنَ الشُّيوخ النَّـاظمين ؟ ، أم مِنَ الشُّعراء المجدِّدين ؟ .

ويكفِيْ أنَّـه صاحبُ شـاعريَّـةٍ مستقلَّةٍ ، وشخصيَّةٍ قـويَّـةٍ واضحـةٍ ، وخـالقُ جيلٍ أدبِـيٍّ ، وأُستـاذ مدرسـةٍ ثقافيَّـةٍ ، وذو قَلمٍ بِـدْعٍ ، وعبـارةٍ رشيقةٍ عميقةٍ ، وفكرٍ صافٍ ، ورأيٍ سديدٍ . . .

ثمَّ إنِّيْ أُحيل الحكم على شاعريَّة أُستاذنا الخطِّيِّ ، إلى الأستاذ « الزَّين » ، الذِيْ رافَقَ شاعريَّته قُرابةَ أربعِة أعوامٍ .

ولعلَّ مِنَ « التَّطويل بلا طائلٍ » ـ على حدِّ تعبيرهم ـ أنْ نسوق شاهداً على شاعريَّته الخِصبة ، وما هو فِيْ حاجةٍ للدَّليل ، وهو المستطيلُ القائمُ بنفسِه ـ على حدِّ تعبير المتنبِّيْ .

وبعْد . . . فوداعاً ـ يا أخِيْ ! ـ وسلاماً .

القطيف : { ١٣٧٢/٧/٠٢ هـ
١٩٥٣/٣/١٨ م }

ازْدِوَاجُ الشَّخْصِيَّة

فِيْ العـدد العاشر ، مِنَ السَّنـة الثَّالثـة ، مِنَ الآداب ـ البيروتيَّـة ـ مقالٌ تحت عنوان : « إلى أصدقائِـيَ الثَّائرين : دِفاعـاً عنِ العرب والإسـلام » ، للأستاذ عبدالله عليٍّ القَصيمِيِّ ، يدور حول مناقشةٍ أُثيـرتْ فِيْ الآداب [١] ، حول مقال القصيمِيِّ ذاته ، المنشور فِيْ الآداب ، بعنوان :

« **اقتباساتٌ مِنْ إنجيلٍ لم تعرفْه المجامع** » [٢] .

وأنـا لا أُريـد أنْ أقف إلى جـانب القصيمِـيِّ ، لأؤَيِّـده فِيْ مـا كَتَبَ ؛ ولا أنْ أقف فِيْ الجانب الآخر ، لأعارضه فِيْ ما كَتَبَ .

ولكن هالنِـيْ ممَّا يكتبه ـ أخيراً ـ هذا التحوُّل السَّريـع . . . فَمِنْ ذلك التزمُّت البغيض ، إلى هذا التزمُّت . . . !

* * *

لَقَدْ وقفتُ كثيراً ، عند هذه الفقرة ، مِنْ مقاله الأخير ، وأعدتُ كلماتها كثيراً ، وهو ما دفعنِـيْ لأنْ أخطَّ هذه الحروف :

[وإنَّه لَضربٌ فظيعٌ مِنْ عِشْق الذَّات
ـ بل مِنْ عبادة الـذَّات ـ الزَّعْمُ
بـأنَّنـا دائـماً نحن المصيبـون
الـطيِّبـون ، وأنَّ الآخـرين هـمْ

(١) الآداب ج ٨ ـ العام ٣ ـ ١٩٥٥ م .

(٢) الآداب ج ٧ ـ مِنْ نفس العام .

دائماً الضَّالُّون الشِّرِّيرون . . .

كيف ؟ لِمَاذا أكون أنا ضالاًّ وفاسداً ومدمِّراً ، إذا خالفتكَ يا صاحِبِيْ ! ، ولا تكون أنتَ كذلك إذا خالفتنِيْ ؟ .

مَنِ الذِيْ مَنَحكَ الحقَّ فِيْ أنْ تكون أنتَ أنتَ ، وحرَّم عَلَيَّ أنْ أكون أنا أنا ؟ .

إنْ كان ذلك لأنَّكَ تعتقد أنَّك هكذا ، فأنا أيضاً أعتقد فِيْ نفسِيْ كما تعتقد فِيْ نفسكَ ! .

كيف يجوز أنْ يكون لكلٍّ منَّا شخصُه ، ولا يجوز أنْ تكون له شخصيَّته ـ أَو كيف يجوز أنْ تكون للمرء سِماته البدنيَّة ، ثمَّ لا يجوز أنْ تكون له سِماته الفكريَّة ؟ .

إذا كانتْ حياتنا وظروفُنا وإمكانيَّاتنا مختلفةً ، فكيف يُنتظر أنْ تكون أفكارنا ومشاعرنا متَّفقةً ؟][1] .

---

(١) ص ٢١ مِنَ الآداب ـ اكتوبر ١٩٥٥ م .

إنَّه يقول : إنَّ لكلِّ إنسانٍ أفكارَه المستقلَّة ، ومشاعـرَه الخاصَّـة ، التِيْ لا يُشاركه فيها سواه ، حتَّى ولو كان أباه ، أوِ ابنه .

وهذه المشاعرُ والأفكار الخاصَّة قَدْ تفرض عليه أنْ يعتقد إيماناً ، مـا يراه الغير كُفْراً وإلحاداً ، وأنْ يرى حَسَناً ، ما ينظر إليه الغيرُ صورةً مجسَّمةً للقبح الذَّميم ، والبشاعةِ الكريهة .

وليس لهـذا الغير : أنْ يصرفـه عنْ رأْيـه ، أو أنْ يبقى وإيَّـاه فِيْ : نقاشٍ ، وجدالٍ ، بعيد الشَّوط ، طويلِ النَّفَس .

فـإنْ وجدتَ مَنْ زلَّتْ بـه القدم ، عن مِهيـع الطَّريق ، فليس لـكَ أنْ تقول له : يا صاحبِيْ ! قَدْ ضللتَ الطَّريق ! .

وإنْ وجـدتَ مَنْ يتسفَّـع فِيْ الـظَّلام البهيم ، فليس عليـكَ أنْ تـأْخـذ بيده ، إلى حيث النُّور الأبلج ! .

وهذه فكرةٌ قَدْ يكون فيهـا الشيْءُ الكثير مِنَ الإفـراط ، بحيث يُخرجهـا عن حدودها المعقولة .

فللمرءِ أنْ يُفكِّر ، كيف ما شاء ، وأنْ يستغلَّ طاقته الفكريَّة ، بما آتـاه الله مِنَ القـوى العقليَّة والجسميَّـة ، وأنْ يخلع عنه رِبقَـةَ التَّقليـد الأعمى ، فلا يعتقد إلَّا بعْد أنْ يُفكِّر . . .

وهـذا هـو ، بـالـذَّات ، المنْهَج القـرآنِـيُّ ، الـذِيْ سنَّـه الـدُّستـور الإسـلامِـيُّ ، مُشيداً لـه ، حاثّاً عليه ، منـادياً بـه ، داعيـاً إليـه ، ممجِّـداً إيَّاه . . .

إنَّ للمـرءِ : أنْ يعتنق أيَّة فكـرةٍ ، يـرى فيهـا الحقَّ ؛ وليس لآخـر أنْ يُسيطر عليه ـ بالقوَّة ـ أو يُزلزله عن معتقده :

« لا إكْرَاهَ فِيْ الدِّيْنِ » [1] .

فللإنسـان الحريَّـةُ الكاملةُ ، فِيْ أنْ يعتنق مـا شاء ، مِنَ : المبـادىءِ ، والأديان . . . بعْد أنْ تكون لديه الطَّاقـة الفكريَّـة السَّليمة ، غـير معطَّلةٍ ، ولا مسيَّرةٍ ، ويستعملها فِيْ طريقها المستقيم . . . إذ لولا هذه الحـريَّة ، لَمَـا كان الجزاءُ على العمل ، بالثَّواب ، أوِ العقاب . . .

ولكن هذه الحريَّـة ، ليستْ بالتِيْ تضمحـلُّ ، إذا فُتِحَ بـابُ النِّقاش ، بين شخصين ، كلٌّ منهما يعتنق فكرةً ، تتباين والأخرى . . .

ولكن عـلى أنْ يكـون الجـدل مبنيّـاً عـلى أُسس ٍ مِنَ المنـطق السَّليم ، وبيراع ٍ يُمثِّل النَّزاهة ، وقلبٍ طافح ٍ بالإخلاص ، لِيُنتج ما يُنتجـه التَّفاعـل مِنْ خيرٍ . . .

وهـذا سَيُمَهِّد للفكـرة السَّليمة ـ وقَـدِ انتصرتْ فِيْ ميـدان النِّقاش ـ أنْ ينتشر منها ضوءٌ ، وتُقبل عليها نفوسٌ ونفوسٌ ، ويتضاعف معتنقوها ، وقَدِ اقتنعوا بها ، بملء حريَّتهم ، وبدافع ٍ مِنْ تفكيرهـمُ السَّليم ِ المطلَق . . .

فالجدال متى ابتنى عـلى سليم ِ الأسُس ، وصائبِ المنـطق ، لا يُنتج إلاَّ خيراً ، ولا يعود إلاَّ بالأمثل . . .

ولهذا ترمِـيْ كلمة « نِيْتشَة » ، التِيْ أتى عليها القَصيمِيُّ فِيْ مقاله :

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

« عِشْ فِيْ خَطَرٍ ، فإنَّ الضَّرْبَةَ التِيْ
لاَ تَقْتُلُ تُقَوِّيْ . . . » .

ونحن نُرحِّب بهذا النِّقاش ، المستكملِ الشُّروط ، الصحيحِ الأسُس ، السَّليمِ النِّيَّة . . .

* * *

ولكنْ ما دَفَعَنَا أنْ نكون ، والأستاذَ عبدَالله ، فِيْ جدالٍ :

أنْ لا يلتزم هو بهذه الفكرة ، التِيْ يتبنَّاها ؛ بل هو على عكسها ـ وبصورةٍ مرعبةٍ ، واندفاعٍ طائشٍ ، وتزمُّتٍ جامدٍ ـ فِيْ كتابه « **الصِّراع بين : الإسلام ، والوثنيَّة** » .

ويكفينا ـ مِنَ الكتاب ـ هذا الاسْم المخيف ! . ففيه ما يهدم فكرتَه ، ويكشف الزَّيف ، ويفضح التَّصنُّع ، وادِّعاءَ حريَّةِ الفِكر . . . !

فموضوعُ كتابه ذاك ـ لو كان ذا موضوعٍ ـ فتْحُ بابٍ مِنَ النِّقاش ، بين طائفتين مِنَ المسلمين ، ولكنَّه يُعَبِّر عن إحداهما بـ « الوثنيَّة » ! ، لأنَّه لا يعتنق ما تعتنقه هِيَ مِنْ معتقدٍ ، ولا يُفكِّر بما تُفكِّر به ، ولا يرى ما تراه ؟ ! .

والكتابُ يقع فِيْ مجلَّدين ضخمين . وعنوانُه يشفُّ عمَّا بين الدِّفتين ! . فكلُّه تجنٍّ وحملةٌ شعواءُ منكرةٌ ، على الطَّائفة الشِّيعيَّة ، ليس إلاّ لأنَّها شيعيَّةٌ ! .

وهو ـ فيه ـ يخنق الفكرة ، التِيْ أبرزها ـ اليوم ـ خنْقاً ، تتلاشى معه النَّأْمة .

وليس فيه شيْءٌ مِنَ النِّقاش ، المبنِيِّ على : الأسُس السَّليمة ، والمنطقِ الصَّائب . . . فما فيه سوى الثَّورة الهوجاء ! ، سوى حَمَم الشَّتائم ! ، سوى قذائف التُّهَم ! .

فهو لا يقصد ـ مِنْ ورائه ـ نقاشَ فكرتين متضادَّتين ، أو متباعدتين ، لِيُقَرِّب بينهما ما انْفسح مِنَ الأبعاد ؛ فَيُؤَلِّف الشملَ الشَّتِيتَ ؛ ويرصَّ الصَّفَّ المتباعد ؛ ويُوحِّد القطيع المتنافِر ؛ ويُصْلح الأخوين المتناكرين . . . !

لا ! ليس فيه شيْءٌ مِنْ ذلك . . . بل هو على النَّقيض مِنْ هذا . . . !

إنَّه يدعو ـ فيه ـ إلى : تمزيقِ الشَّمل المتماسك ، وتصديعِ الصَّفِّ المرصوص ، وتشتيتِ القطيع المؤْتلِف ، وصدْع عُرى الأخوَّة بين الصَّفيَّين . . . !

إنَّه يقول فيه : أنا أعتقد هذا ، فعليكَ أنْ تعتقد ما أعتقد ، وتُسلِّم بما أقول ، دونما سؤالٍ ، فضلاً عن نقاشٍ . . . وإلاَّ فأنت ضالٌّ ملحدٌ ، كافرٌ مارقٌ ، وليس لك سوى الحتف ، لِيَتطهَّر منكَ المجتمع ! .

ولْنَدَعْ حَمَمَ الشَّتائم ، وقذائفَ التُّهم ، فلهما غير هذا الموضوع ـ إنْ كان لهما مِنْ موضوعٍ ! ، إلاَّ على أساس قاعدة :

« رُدَّ الْحَجَرَ » . . . !

ونحن لا نُريد ذلك . . . ولكن لابدَّ وأنْ نأْتيَ على مثل هذه الفقرة :

[فعلى هؤُلاء الذين يُريدونَ التَّوحيدَ
بينَ طائِفةِ الشِّيعةِ الغاليةِ ، وبين

سائرِ المسلمينَ ، ويسعونَ لذلكَ : أنْ يسعَوْا ـ أوّلاً ، وقبْل كلِّ شيْءٍ ـ لِحَمْلِ الشِّيعةِ على رفْضِ هذهِ المعتقداتِ ، وتطهيرَ كُتُبِهِمْ وصدورهِم وألسنتهِمْ منهَا . أيْ : عليهمْ أنْ يسعَوْا ـ أوّلاً ـ لِاسْتئصالِ الدّاء وجراثيمِهِ ، التيْ هِيَ مرعى علّةِ الاختلافِ والافتراقِ ، والنِّزاعِ والصِّراعِ](1) .

أرأيتَ هذا المنطق . . . ؟ ، أسمعتَ بمثل هذه العدالة . . . ؟

فليس للشِّيعة أنْ تعتقد ! ، ولن تكون هِيَ وسائر المسلمين على خلصانٍ وصفاءٍ ، ما دامتْ تحمل هذه المعتقدات ، وقبْل أنْ تُطهَّر منها الكُتُبُ ، والصُّدورُ ، والألسنُ . . . !

فليس ـ عنده ! ـ للشِّيعة شيْءٌ مِنْ تلك الحريَّة المطلَقة ، التيْ يُنادِيْ بها ، والتيْ ممَّا يخدِشها ـ فِيْ عرفه ـ أنْ تُجادل الآخر ، فِيْ شيْءٍ يراه ! .

إنّه لَيَدعو لهذه الحريَّة كلَّ الملإ ، ما عدا هذه الطَّائفة . . . !

فليس ـ عندَه ! ـ لها أدنى الحقوق ، فِيْ : الحياة ، والعيش ؛ فضلاً عن أنْ تكون لها الحريَّة ، فِيْ أنْ تُفكِّر ، أو تعتقد . . . ! وما هِيَ غير النَّفس

---

(1) ص ٢٧ ج ١ ـ الصراع .

الموبوءِ ، والدَّاء العُضال ، والجرثومة الفتَّاكة . . . !

فـإذا كان القضـاءُ عليها ، هـو الواجب عـلى أُولئك الـدَّاعين للوَحـدة ـ فكيف يُمكن أنْ تُمنـح بعضَ ـ لامـطلَق ـ الحـريَّـة ، فِيْ أنْ تُفكِّـر ، وأنْ تعتقد . . . ؟ ! :

[وعلاجُ الدَّاءِ بـانْتزاعِ جـرثومتِـهِ ،
أشفى وأحجى مِنْ محـاولةِ عـلاجِهِ
بالإعراضِ عنهُ ونسيانِهِ وإغماضِ
العينينِ عنْهُ] [1] .

فليس لعينه أنْ ينطبق منها الجفنان ، وهذه الطَّائفة على معتقدها ، وهو القذى فِيْ عينه ! .

وليس لجنبه أنْ يقرَّ فِيْ مضجعٍ ، وهِيَ الشَّوكة الواخزة فِيْ قلبه .

فهو لا يُعبِّر ، إذا تكلَّم فِيْ شيْءٍ عنها ، إلَّا بـ :

« حماقات الشِّيعـة وعقائـدهمُ الباطلة الأثيمة » .

و **« مِنْ طـريق الـتَّشـيُّـع أتى أهــل الإلحاد »** [2] .

ـ ولا ندرِيْ مِنْ أيِّ طريقٍ دَخَلَ هو . . . ؟ !

و **[فِيْ المـذهب الشيعِيِّ معتقـداتٌ فِيْ**

---

(١) ص ٢٧ ج ١ ـ الصراع .

(٢) ص ٤١ ج ١ ـ المصدر ـ وفي ص ٤٢ : ١ : فصلٌ بعنوان « حماقات الشِّيعة » .

غـايـةِ الشُّـذوذِ والنَّكـارةِ ، وآراءٌ لا يُمكن أنْ تقـرَّ فِيْ قلبٍ ، قـرَّ فيـهِ الإيمـانُ باللهِ ورسـولِـهِ وكتـابِـهِ ، ولا يُمكن أنْ تقـرَّ فِيْ قلبٍ ، فـيـه موضعٌ لـلإسلام ، ومكـانُ حرمـةٍ لأهلِ الإسلام] [1] .

ولـيس لنـا أن نمـضِـيَ فِيْ عـرض هـذه العيّنـات ، الـرَّفـيعـة المستـوى . . . « ؟ ! » والكتـابُ ـ فِيْ مجلَّديـه الضَّخمـين ـ كلُّه مِنْ هـذا الطِّراز . . . !

فكيف يتَّفق كلُّ هذا ، مع فكرته تلك ؟ ، وكيف ينسجم وقولَته :

[وإنَّـه لضَـرْبٌ فـظيـعٌ مِنْ عشقِ الذَّات] ـ إلخ ؟ [2] .

* * *

غـير أنَّ القصيمِـيَّ ـ وهو يكتب ، اليـوم ، فِيْ الآداب ـ ما يـزال مثقَلاً بأعباء تربيته الأوْلى ، التِيْ أمْلَتْ عليـه كتابـه « الصِّراع » . . . ولم يتخلَّص مِنْ تلك الرَّواسب ، التِيْ ينعاها على منتقديه ! .

وإنَّه حتىَّ فِيْ كتابه « **هذِيْ هِيَ الأغلال** » ـ الذِيْ اعتُبر مِنْ أجْله : كافراً وملحـداً ، ومـطروداً مِنْ الله وغفـرانـه ـ لم يبـرأْ مِنَ الـطَّائفيَّـة البغيضة النَّكراء . . .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٥ : ١ .

(٢) الآداب ص ٢٥ ـ وقد سقنا قولته هذه ، في صدر المقال ـ ص ٤١٣ .

فَقَدْ تحدَّث ـ ثمَّـة ـ عن جُلِّ الفِـرَق الإسلاميَّـة ، فِيْ مسألـة القضاء ، والقدَر ، والتَّوكُّل ، وغير ذلك ، مِنَ المسائل الفلسفيَّة ، التِيْ أثارها فِيْ كتابه « **هذِيْ هِيَ الأغلال** » . . .

. . . ولكنَّ فِـرْقـةً واحـدةً ، لم تخـطر لـه عـلى بـالٍ ، ولم يُشر إليهـا ، ولا إشارةً واحدةً . . .

تلك هِيَ الفِرْقة الشيعيَّة ، ذاتُ الفكر الحرِّ المرِن ، القائلة بفتْح « باب الاجتهـاد » على مصراعيـه ؛ وبقاعـدة « الإبـاحـة » ، المتَّسمـة النِّـطاق ، والـرَّافعة الحـرَج والعُسْر ، والمتمشيَّة ـ جنْبـاً إلى جنبٍ ـ مع ركْبِ الحضـارة والتَّقدُّم . . .

القطيف : ١٣٧٥/٠٣/١٠ هـ
١٩٥٥/١٠/٢٧ م

رَدَّة الفِعْـــل
فِي
نَفْسِـــيَّة «القَصِـيمِيِّ»

يميـل البعض مِنَ الكُتَّاب إلى : أنْ لا يقفـوا فِيْ الخطِّ الوسَط ، أو يـأْتُوا بـالفكرة والـرأيِ ، اللَّذَين تتَّفق عليهما العقـولُ والأفكـار ؛ بـل تجـد فيهم طبيعـةً متأصِّلةً ، لا تجـدُهم ينفكُّون عنهـا ، مهـما تبـدَّلتْ آراؤُهم ، وكيف ما تحوَّلتْ مذاهبُهم ، دينيَّةً أو سياسيَّةً ، فهم دائـماً يميلون للرأْيِ المتطرِّف ، والفكرة الشَّاذَّة . . . ويقفون ـ دائماً ـ فِيْ الجانب الأقصى .

ولعـلَّ مرجـع ذلك ـ فِيْ أغلب الـظَّنِّ ـ إلى أنَّهم يُحاولـون لفْتَ الأنـظار إليهم ، ويرجون مِنْ وراء ذلك الشُّهرةَ مِنْ هـذه الزَّاويـة . . . فَفِيْ ظنِّهم : أنَّ هذا أيسر وأسْهل طريقٍ إليها . . . ! تمشِّياً مع قاعدة :

« **خَالِفْ تُعْرَفْ** » .

هذا إذا شئنا الاكتفاءَ بهذا الحدِّ ، مِنَ التَّعليل الـظَّاهِرِيِّ ، ولم نُحـاولِ البحث عـمَّا هنالـك ، مِنْ : عوامـلَ نفسيَّةٍ ، أو رواسبَ بيئيَّـةٍ ، أو تـربيـةٍ بيتيَّةٍ ، أو غير هذا وذاك ، مِنْ عللٍ وأسبابٍ . . . كالمتاجـرة الفكريَّـة ، أوِ الإيجار القلمِيِّ ، أوِ الاستعمار الثَّقافِيِّ . . . إلخ .

ويبرز فِيْ طليعة هؤُلاء : الأستاذ عبدالله عليٌّ القَصيمِـيُّ .

فهذه الظاهرةُ ـ عنده ـ واضحـةٌ جليَّةٌ ، تلمسهـا فِيْ كلِّ مـا كَتَبَ . . . ومِنْ أوَّل يومٍ ، حين ما كان يُمثِّـل الكاتب الـطَّائفِيَّ البغيضَ ، إلى اليوم ، حيث يُمثِّل الكاتب الشعوبِيَّ ، والإلحادِيَّ المتطرِّف ! .

وتُـطالعك هـذه الظَّاهـرة ـ فِيْ ما يكتب ـ منـذ تقع عينـكَ على عنـوان

ما يكتُب ، فهو يميل دائماً إلى العنوان الضَّخم المرعِب ، لِكَيْ يستلفت النَّظر إلى ما تحت العنوان ، ويجتلب اهْتمام القرَّاء ، إلى ما يُريد أنْ يُقدِّمه لهم .

* * *

وظاهرةُ أُخرى ، تجدها فِيْ القَصيمِيِّ بارزةً ، هِيَ : ميلُه للهدم ، مطلَق الهدم ، وبقسوةٍ . . . !

ونحن لا نفرق مِنْ كلمة « الهدْم » ، ولا نخشاها ، إذا كان مبعثُها الإخلاصَ ، ويتحلَّى القائمُ عليها بالنَّزاهةِ والكفاءةِ ، والإخلاصِ والمقدرةِ ، وتكون بباعثٍ مِنْ حبِّ القضاء على الفساد ، وفِيْ سبيل الإصلاح ، وبرغبةٍ فِيْ هدم كلِّ فاسدٍ ، لإقامة بناءٍ صالحٍ مقامه .

ولكنَّنا نخاف ، أشدَّ الخوف ، ونفرق غاية الفرَق ، إذا كان الباعثُ على هذا ، هو الهدْم مِنْ أجْل الهدْم وحده ، انعدام النِّيَّة الطَّيِّبة ! .

ومتتبِّع القَصيمِيِّ ـ فِيْ كلِّ ما كَتَبَ ـ يجد هذه الظَّاهرة فيه بارزةً ، أشدَّ البروز . . . فهو يميل لمجرَّد الهدْم ، ولا يُحاول ـ بعدئذٍ ـ أنْ يبنِيَ .

يهدم بباعثٍ مِنْ حبِّ الهدم ؛ ويهدم بقسوةٍ وشدَّةٍ ، دون أنْ يقصر هدمَه على المتداعِيْ ، أو الفاسد فحسْب . . . !

. . . بل يهدم مِنْ غير فرقٍ بين : صالحٍ ، وفاسدٍ . . . فهو ـ فِيْ الأكثر ـ يهدم الصَّالح المستقيم ، ويدَع الفاسد المتداعِيَ . . .

إنَّه لكالعاصفة الهوجاء ، تقتلع الدَّوحةَ الباسقة ، فِيْ ما هِيَ تكسر القصبة ، أو تجتثُّ العوسجة ! .

* * *

ونحن نُريد ـ الآن ـ أنْ نبدأ مناقشة الأستاذ القَصيمِيّ ، فِيْ نقاطٍ ، مِنْ مقاله الأخير ، بعنوان : « مُصارعة الثِّيران فِيْ السِّياسة الدَّوليَّة »[1] .

وينتصب سؤالٌ بحرفٍ كبيرٍ بارزٍ ، يعترض سبيلَنا فِيْ هذه المناقشة ، ويتطلَّب ـ قبلها ـ الجوابَ :

إذ ماذا حوَّل « القَصيمِيَّ » ، مِنْ طرازٍ فذٍّ ، للطَّائفِيِّ المتعصِّب الجامد ، بحيث أحْدَثَ بين الصفِّ الإسلامِيِّ هوَّةً سحيقةً ، فِيْ ما تجنَّى به ، على طائفةٍ مِنَ المسلمين ـ لها قيمتُها وكرامتُها وأهميتُها ـ تجنِّياً مشيناً ، وهَاجَمَهَا مهاجمةً عنيفةً ، لا ترتكز لدليلٍ ، ولا تعتضد ببرهانٍ ، ولا تنبعث عن حبٍّ للإصلاح والتَّفاهم ، ولا تمتُّ للنِّقاش العلمِيِّ بأدنى سببٍ . . .

. . . إلى موقفه ، اليوم ، مِنْ عامَّة المذاهب والأديان والمعتقدات ؛ ومِنَ العُروبة والعرب ؛ ورجالات هذه وتلك جميعها ؛ ومِنْ كلِّ قضيَّةٍ مسلَّمةٍ ، أو رأيٍ متَّفقٍ عليه . . . بحيث يقف وحده ، يكفر بكلِّ قيمةٍ . . .

. . . ولا ينظر للماضِيْ إلَّا على أنَّه صورةٌ شوهاءُ ، مطموسةُ المعالم ؛ وعلى مَنْ يُريد أنْ يشقَّ طريقه فِيْ الحياة ، ويسير كما تُريد الحياة ـ فِيْ رأيه ـ أنْ يقطع الصِّلة ـ أيَّة صلةٍ ـ بالماضِيْ ، مهما كان ؛ ولا يُريد أنْ يلتفَّ المجموع ، تحت زعيمٍ ، أو قائدٍ . . .

. . . فهو تارةً : يدعو لتأليه الفرد والذَّات . . .

. . . وتارةً : يُنكره ويزدريه . . . !

---

(١) الآداب ج ١٢ ـ ديسمبر ١٩٥٩ م .

. . . وأُخرى : يحتقر المجتمعَ ويركِلُهُ ـ ومـا الفرد سـوى نقطةٍ تنتهِيْ للمجموع ، أو منها يبدأُ تكوُّنُ المجتَمع . . .

. . . ومـرَّةً رابعـةً ، أوعـاشـرةً : لا نـدرِيْ مـا سيكــون مـوقفــه ، أيضاً . . . ؟ !

وبعبارةٍ أخصر ، يُصاغ السُّؤال هكذا :

مـا السَّبب فِيْ تنـاقض « القَصيمِيِّ » ، بـين : مـوقفـه ، قبـل أمس ؛ وموقفه ، أمس ؛ ثمّ موقفه ، اليوم ؟ .

ولا نُريد أنْ نقول : ثمَّ موقفـه غداً ـ وإنْ يكنِ اليـوم الآتِيْ ، غيرَ هـذه الأيَّام الثلاثة ، وموقفُه فيه ، غيرَ مواقفه المتعدِّدة فيها .

لِـمَاذا لا يقـرُّ على فكـرةٍ ؟ ، ولا يعتمـد عـلى رأيٍ ؟ ، ولا يبقى عـلى معتقدٍ ؟ ! .

ولعلَّنا نستطيع الجواب على ذلك ؛ أوعـلى الأقلِّ : أنْ نضـع يدَنَـا على أحد الأسباب .

فـالقَصيمِيُّ كان مثْقَـلاً بتربيـةٍ شاقَّـةٍ : بيئيَّةٍ ، وبيتيَّـةٍ ، على الأكـثر ، باعتبارها امتداداً لتلك . . .

وهِيَ تنـظر للدِّين مِنْ زاويةٍ ضيِّقـةٍ ـ أضيق مـا يكـون الضِّيق ـ تتنـافى وروحَ الدِّين الإسلامِيِّ المرِنَة ، وسماحتَه المثاليَّة الفضلى ، وتعاليمَه الرَّفيعـةَ الخالدةَ ، ككلِّ دِينٍ سماوِيٍّ ـ فيكفـ به ، وقَدْ شـاء الله أنْ يختتم به الأديـانَ السَّماويَّة العليا ؟ ! .

ومِنْ هنـا . . . كانتْ ـ لهـذا الدِّين ـ هـذه الطَّاقـةُ المستمـرَّة ، لِتَصرع الفناءَ ، وتتعالى على الضُّمور والانْكماش ، فتبقى مدى الوجود حيَّةً قويَّـةً ، ثابتةً راسخةً ، تُساير الزَّمَنَ ، وتتقبَّل الحياة بكلٍّ ما فيها مِنْ جديدٍ . . .

وهذه الحياة ، الثقيلةُ العبء ، الضَّيقةُ الأفُق ، التيْ عاشهـا القَصيمِيُّ ـ آنـذاك ـ هِيَ التيْ فَرَضَتْ عليـه ، فرْضـاً لم يستطعِ الخـلاصَ منـه ـ إنْ لم تكن ، إلى جانبها ، دوافعُ أُخرى ، قَدْ تكون لهـا القوَّة ، أوِ الـرَّافد القـوِيَّ لها ، كالاستعمار الفكرِيِّ الخبيث .

. . . هِيَ التيْ فـرضتْ عليـه إرادتَهـا ، حتَّى أملتْ عليـه كتـابـه : « الصِّراع بين : الإسلام ، والوثنيَّة » ، وما قبْله مِنْ كُتُبٍ ، كانتْ مثالاً لِـمَا كان يُعانيه مِنْ تركةٍ مثقلةٍ ، تبرز فِيْ طليعتها : الطَّائفيَّةُ ، بصورتهـا البغيضةِ البشعةِ ، ووجهِها الدَّميمِ الكريهِ .

ولَـمَّا ثقُلتْ عليـه هذه الحيـاةُ الرَّتيبـة ، وتَقَوْقَـعَ فِيْ هذا الجـوِّ الخانِق ، حاول أنْ يتطلَّع للحياة الأخرى ، فَوَجَدَ نفسَـه ، لا يعرف مِنَ الحيـاة سوى اسمها ، ولا يعيش منها سوى هامشها . . .

فهـو ـ فِيْ عالم الفِكـر ـ لا يُمثِّل سـوى الجمود الفكـرِيِّ ، فِيْ : رجعيَّـةٍ حجريَّةٍ صمَّاءَ ؛ بل أشـد قسوةً منهـا . . . فالحجـارة أقرب لأنْ تتفـاعل مـع الحياة . . .

« وَإنَّ مِنَ الْـحِجَـارَةِ لَـمَا يَتَفَجَّـرُ مِنْـهُ
الأنْهَارُ ، وَإنَّ مِنْهَـا لَـمَا يَشَّقَّقُ ،
فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْـمَاءُ ، وَإنَّ مِنْهَـا

لَـمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله »[1] .

. . . وأنْ ليس مـا يحمله بين أنـامله ، سوى مِعـول ٍ يفتُّ مِنَ الوحـدةِ الأسُسَ ؛ ويُمزِّق مِنَ الشَّملِ الإهابَ ؛ ويقضِـيْ بين الإخوة ، على الصَّفاءِ والـوئـام ؛ فِيْ حـين أنَّـه يـظنُّـه يـراعـاً ، أشرَعـه لإحقـاق حقٍّ ، وإبــطال باطلٍ . . . !

ونَظَرَ ، فهالَه ما أحدث مِنْ هوَّةٍ بـين الأخوين الصَّفيَّـين ، حيث كانـا يعيشان فِيْ طُمأْنينةٍ ، بينهما كلُّ روابط الأخوَّة والمحبَّـة ، مِنْ : وَحْدةِ وطنٍ ، ودِينٍ ، ولُغةٍ ـ وكلُّها روابطُ متينـةٌ ، وأواصرُ واشجةٌ ـ فـإذا بهما عـلى : نِفارٍ بعْد صفاءٍ ؛ وبغضٍ بعْد حبٍّ ؛ وبِعادٍ بعْد قُربٍ . . . !

كلُّ هذا أحْدَث ـ لديه ـ رِدَّةَ فعْلٍ شديدةً ، وعنيفـةً جدّاً ؛ ولكنَّ روح الهـدم تغلَّبت عليه ـ مـرَّةً أُخرى ـ فضَـلَّ طـريق الحقِّ ، ومـا اسْتـطاع إليـه الوصول . . .

إذ بـدلاً مِنْ أنْ يُكفِّر عـمَّا ارْتَكَبَ ، ويرتق مـا فَتَقَ ، قام بهـدم الجانب الذِيْ كان يميل إليه ، ويقف عنده ، ويدَّعِيْ الدِّفاع عنه . . .

بل قام بأكثر مِنْ هـذا ، فحاول نسْفَ الـدِّين ـ كلِّ دِينٍ ـ مِنْ أُسُسـه ، والكفرَ به مِنْ أصْله . . . !

ولكن دون أنْ يتبدَّل موقفه الخاصُّ ، مِنَ الجـانب الأوَّل : الطَّائفيَّـة ، التِيْ جَرَّبَ ـ أوَّل ما جرَّب ـ مِعولَه الهدَّام ، فيها . . .

---

(١) البقرة : ٧٤ .

فلم يتخلَّ عن كتابه « الصِّراع » حتَّى الآن ، ولم يخطَّ ضدَّه حرفاً ! ، وإنْ زعم بعضُهم مِمَّنْ روى : أنَّه سمع منه نعيَه عليه ، وتبرؤه منه . . . !

. . . إلَّا أنَّ ما خُطَّ باليراع ، لا يمحوه إلَّا مثله ، لأنَّ الكلام يضيع بين تلافيف السُّدم ، وطبقات الأثير ، إنْ لم يُسجِّله اليراع ، ويحفظه الطِّرس . . .

وحينئذٍ طَلَعَ علينا بكتابه « هذِيْ هِيَ الأغلال » ، وهو أوَّل نتاجٍ ، أثمرته رِدَّة الفِعل هذه .

إلَّا أنَّها لم تكن بالتِيْ تقتنع ـ وهِيَ القويَّة الشَّديدة ـ بهذا الحدِّ ، فحسْب . . .

هذا إذا قنعنا مِنَ التَّعليل ، بهذا الجانب ، وحده . . .

. . . ولم نشأْ أنْ نتعمَّق إلى أبْعد مِنْ ذلك ، بحيث نستطيع أنْ نُوحِّد بين الموقفين ، فلا نعتبر بينهما تغايراً ، وتختفِيْ حتَّى آثار رِدَّة الفِعل هذه . . .

فمتى عَرَفنا أنَّ القلم الأجير ، يسير وِفْق رغبة المستأْجر ، وطوْع هواه ، يُبارك مَنْ أشار له بتبريكه ، لِيَعود فيَلعنه مُجدِّفاً عليه ، متى شاء منه ذلك . . . عرفنا السِّرَّ ، حينئذٍ . . . !

ولسنا نعْدم الشَّواهد الحيَّة ، فِيْ صفحات التأْريخ ، وفِيْ حياة الرِّجال ، المتاجرين بالضَّمير ـ والقلمُ أحدُ أدوات التِّجارة ـ وهم كُثُرٌ . . . منذ قديم التأْريخ . فكيف فِيْ عصرٍ سادتْ فيه الإباحيَّة ، ومات فيه الضَّمير ، وفَقَدَ الوازعُ الدِّينيُّ زِمامَ الرَّقابة والتَّوجيه . . . ؟ !

* * *

وكيف كانتِ الأسباب والدَّوافع ، سواءً كانتْ واحدةٌ منها منفـردةً ، أو كانتْ جميعُها متعاونةً . . .

. . . فإنَّنا لا زلنا نُطالع هذه الرِّدَّة ـ فيْ اندفاعها ـ بين يومٍ وآخـر ، فيْ مقالةٍ يطلع بها هنا ، أو هناك . . .

وكلٌّ منها تمتاز بطابعٍ ، يتباين وما سَبَقَهَا له ؛ وكلٌّ منها يحمل فكـرةً ، أو رأْياً ، لا يلقى القبول أوِ التَّأْييد ، مِنْ عامَّة المفكِّرين ، الذين لا يـرى لهم وجوداً .

* * *

ولـو شئنا أنْ نعـرض نماذج ، ممَّـا كَتَبَ ، قبلئذٍ ، لَـطَالَ بنـا الـوقت ، وما اتَّسع المجال . . .

إلاَّ أنَّنـا نُلفت نَظَرَ القـارىء إلى كتابيـه : « الصِّراع » ، و « هذِيْ هِيَ الأغلال » ، ليرى ما بينهما مِنْ : تناقضٍ فاضحٍ ، وتبدُّلٍ مفاجىءٍ . . .

ثمَّ إلى المعركة التيْ دارتْ عـلى صفحات « الآداب » ـ عـام ١٩٥٥ م ـ حيث طَلَعَ بمقـالـه « الهـدَّام » : [اقتبـاسـاتٌ مِنْ إنجيـلٍ لم تعـرفـه المجامع] [١] ، وهو : ثورةٌ طائشةٌ ضدَّ الدِّين ، مليْءٌ بالمكرور منهـا ـ رغم ما يُشير إليه العنوان الضَّخم .

ولا نُريد ـ الآن ـ أنْ نُنـاقش ما فيـه مِنْ آراءٍ شاذَّةٍ ، تـدلُّ وتُبرهن عـلى ما ذهبنا إليه ، وتعكس ردَّة الفِعل هذه ، بصورةٍ واضحةٍ .

---

(١) الآداب ج ٧ ـ عام ١٩٥٥ م .

وقَدْ ثار حوْل ذلك جَـدَلٌ ، على صفحـات « الآداب » ، ممَّا دعـاه لأنْ يكتب فيها مقالاً آخر ، بعنوان : [إلى إخوانيَ الثَّائرين : دفاعاً عنِ العروبة والإسلام][1] .

وقَـدْ كان لنـا نصيبٌ فِيْ هـذا الجـدل ، فَعَـرَضْنَـا ـ فِيْ ردِّنـا عليـه[2] ـ لإِزْدواج شخصيَّـة الأستاذ القَصيمِيِّ ، وعَـرَضْنَـا لمقـطع مِنْ كتـابـه « الصِّراع » ، وآخر مِنْ هذا المقال ، وقارنَّـا بينهما ، ومـا فِيْ كلٍّ منهـما ، مِنْ تناقضٍ شديدٍ للآخر .

إلَّا أنَّنـا عجبنا مِنْ مجلَّة « الآداب » ، لِعـدم نشْرها لـه ، حيث سـدَّتْ باب النِّقاش ، رغم ما كان ينطوِيْ عليه مقـاله مِنْ : دعـوةٍ هدَّامـةٍ ، وآراءٍ شاذَّةٍ ، وأفكارٍ ضارَّةٍ .

وحريَّةُ الرأيِ تدعوها ؛ بل تفرض عليهـا أنْ لا يضيق منها الصَّـدر ؛ وتحتم عليهـا : أنْ تفتح بـاب النِّقاش ، واسعـاً ، مِنْ أجْل نفْيِ الـزَّيف ، وإحقاق الحقِّ . . . !

وكان لنا ـ مع صاحبها الدَّكتور ـ عتابٌ ، وكـان منه عـذرٌ . . . إلَّا أنَّ أخشى ما نخشاه :

أنْ يكـون الدَّاعِيْ لسـدِّ باب النِّقـاش ، هـو : « الصَّنميَّـة » ـ أيِ : النَّظر لشخصيَّة المردود عليه ! .

---

(١) الآداب ج ١٠ ـ عام ١٩٥٥ م .

(٢) المقال الذي قبل هذا ، مِنْ هذه المجموعة ، بعنوان : « ازدواج الشَّخصيَّة » ـ ص ٤١١ .

. . . أو أنْ يكون بدافعِ مناصرةِ الفكرة ، مِنْ جانب التقاء الدَّكتور معه فيها ـ مثلاً .

وكلاهما خنْقٌ لحريَّة الفكر ، وتعدٍّ على حقوق الآخرين . . . !

* * *

ويجدر بنا ـ الآن ـ أنْ نُشير إلى بعض النِّقاط ، التيْ جاءتْ فيْ مقاله ، ممَّا تحمل روح الهدْم ـ هدْم الدِّين والعروبة ، ورجالاتها ، والتَّجنِّيْ عليهما ، وعليهم . . .

وما هِيَ سوى الدَّليل الصَّارخ على رِدَّة الفِعل الخبيثة ، التيْ أثَّرتْ أثرها البعيد فيْ نفسيَّته ، وانعكستْ آثارها السَّيئة ، على قلمه ، فكان مِنْ نتائجها : هذه التهجُّمات الشَّديدة ، الواسعة المدى .

وأوَّلُ ما يُطالعنا فيْ المقال ـ بعد عنوانه الضَّخم المرعِب ، وهو (كما قُلنا) مولَعٌ بهذه العناوين فيْ كتاباته : كُتُباً ، ومقالاتٍ . . .

يُطالعنا إنكاره لوجود « المفكِّرين » ، بجرَّةِ قلمٍ ، ودون عناءٍ ، أو كلفةٍ ، حيث يقول فيْ صدر فاتحة المقال :

« والمفكِّرونَ ـ إنْ وُجِدُوْا » .

فالمفكِّرون ـ فيْ رأيه ـ على غير وجودٍ . . . !

ولا ندرِيْ هل يخصُّ إنكارَ وجودِهم بالعرب ؟ ، أم بالشرق ؟ ، أم بالغرب ؟ ، أم بالعالم كلِّه ؟ .

وهل أنَّ عدمَ وجودِهم مختصٌّ بهذا العصر ؟ أم يمتدُّ إلى الماضِيْ السَّحيق ؟ .

وهـل يندرج هـو تحت نِطاق هـذا الإنكار ؟ ، أم أنَّ القضيَّـة لا تشمل نفسَها ـ كما تقول المناطقة ؟ ! .

ونحن نستطيع أنْ نستشفَّ شيئاً ، ممَّا يُمكن أنْ يكـون جوابـه على هـذه الأسئلة ، فهو يخصُّ بهذا الإنكارِ : العربَ ، ويمتـدُّ إلى ماضيهمُ السَّحيقِ ، أيضاً ، لأنّه يحمل عقدةً نحو العرب ، ونحو ماضيهم ، بصورةٍ أخصَّ .

فهو مِمَّنْ يُحاول هدْمَ الماضِـيْ ، بكلِّ ما فيه . . . وهو مِمَّنْ يـدعو لِقـطع صلةِ الحاضر بالماضِـيْ . . .

. . . مع أنَّه لا يجهـل بأنَّ أُمَّـةً ، لا ماضِـيَ لهـا ، أُمَّةٌ بـتراءُ ، لم تثبت قـدمُها فِيْ طـريق الحياة الصُّلب الشَّـائك ، فَهِيَ فِيْ طـور الزَّحف ، دون أنْ تستطيع الوقوف ، بلْهَ السيرَ . . .

وهـو يطلب عـدمَ الإبقاء عـلى شيْءٍ قديم ، مهـما كانتْ قيمته ولونُـه وصـلاحه ؛ بـل يدعـو للتَّغيير : مجـرَّد التغيير ، حتَّى ولـو كان مِنْ صـالـحٍ لفاسدٍ . . . لا فرق ! .

إنَّه لَيَقول :

[وينشدونَ بنَفَسٍ واحدٍ ، وأُسلوبٍ
كأُسلوب الصَّلاة] .

فأُسلوب الصَّلاة ـ لديه ـ أُسلوبٌ رتيبٌ ، يجب ـ لو كان للصَّـلاة لديـه محـلٌّ للبقاء ! ـ أنْ تتبـدَّل ! أنْ تتغيَّرَ ! أنْ يُخـالف أُسلوبُها اليـوم ، أُسلوبَهـا بـالأمس ، قبْل أربعـة عشر قرنـاً ! ، وإلاَّ فَهِيَ مثالٌ ، يُضرْب لكُـلِّ جمـودٍ وتأخُّرٍ .

* * *

وإذا شئنا أنْ نبحث عنِ النُّقطة ، التي يدور حولها المقال ، وعليها يرتكز ، فإنَّها لا تعدُو الدَّعوةَ إلى التخلِّيْ عنِ القيادة ، سواءً كانتْ قيادةً : روحيَّةً دِينيَّةً ، أو ماديَّةً زمنيَّةً ، أو فكريَّةً ، أو غيرَها . . .

. . . وأنْ ليس مِنْ صائب التَّفكير عنده : أنْ تلتقِيَ الجماهير عند رأيٍ ، أو فكرةٍ ، أو مبدإ ، اسْتهواهم بِقِيَمه وحسناته ، فألَّف بينهم ، حيث كان مركزَ التَّجمُّع ، ونقطةَ الالتقاء . . .

فإنْ كان ذلك ، فما هو سوى مجرَّد التَّفكير المقلِّد ، أوِ التَّابع الآليِّ ـ كما يُعبِّر ـ حيث يتحرَّكون بالجملة ، كأنَّهم حزَمُ الحطَب .

ويعنِيْ هذا أنْ يكون كلُّ فردٍ فِيْ المجتمع ـ مهما كانتْ عقليَّته ومعرفته ، ومهما كان إدراكه واطِّلاعه ـ أنْ يكون منفردَ التَّفكير ، مستقلَّ الإرادةِ ، منعزلاً عنِ المجتمع ـ يعنِيْ : أنْ يكون غوغائيّاً ، يعيش حياةً ، أدنَى مستوىً مِنَ الحياة الحيوانيَّة . . .

ويهدف ـ مِنْ هذا ـ إلى أنْ لا يعترف فردٌ بقيادةٍ ، ولا يخضع لقانونٍ ، ولا يميل للمبدإ ، ولا يلتقِيْ مع المجموع ، فِيْ : دِيْنٍ ، أو معتقدٍ .

وحينئذٍ فقط ، يُوجد المفكِّرون ـ فِيْ رأيه ـ المستقلُّون ، ذوُوْ الإرادة النَّابعة مِنْ ضمائرهم ، والمتحرِّكون باستقلالٍ ، وبدون تتابعٍ .

وليس أصْدقَ على هذا المجتمع ـ حينئذٍ ـ مِنْ قول الشَّاعر عليٍّ الشَّرقِيِّ :

قَوْمِي رُؤُوْسٌ كُلُّهُمْ
أَرَأَيْتَ مَزْرَعَةَ الْبَصَلْ ؟

وهذه الفكرة التيْ يدعو إليها ، ممَّا ينسجم وفكرةَ الْمُسْتَعْمِرِيْنَ الأسياد :

« **فَرِّقْ تَسُــدْ** » .

سواءً فِيْ ذلك أَنْ كانتْ دعوته المفرِّقة ، على المستوى الطائِفِيِّ - فِيْ كُتُبِـهِ الأوْلى .

أو عـلى مستوى التَّمـزيق الفردِيِّ - وهِيَ هـذه - حيث يُمـزِّق المجتمـع أشلاءً متناثرةً ، لا غناء فيها ، ولا نفْعَ .

إنَّ كلَّ مجتمعٍ ، لا يجد القيادة الصَّائبة المخلِصـة ، لا يُرجى لـه نجاحٌ فِيْ مضمارٍ ، يرجو الوصول إليه . . .

وحينئذٍ ، لا يكون سـوى مجتمعٍ مفكَّـكِ العُرى ، مـوزَّعِ الأشلاء ، مشتَّتِ الأهـواء والنَّزعـات ، فَتَسوده الفـوضى ، لِيَكـون اللُّقمـةَ السَّـائغـةَ و : نُهزَةَ الطَّامعِ ، وقبْسَةَ العجلانِ ، ومـوطِـىءَ الأقدامِ - عـلى حدِّ تعبـير السَّيِّدة فاطمة ، عليها السَّـلام - سهْلَ الازدراد ، لا يُحقِّق مِنَ النَّجـاح قدْر أنْمُلةٍ . . .

نَعَمْ ! يجب أنْ تُـوفَّـر حـرِيَّـة الـرأْيِ فِيْ المجتمـع ، فِيْ ظـلِّ النُّـظُم السَّليمـة ، وتحت القيادة الصَّـائبة المخلصـة ، بحيث يشغَـل القِيـادة ، مَنْ تتوافر فيه كلُّ الميزات والخِلال الحسنة .

وأيُّ شعبٍ أو مجتمعٍ - شرقيّاً كان ، أم غربيّاً ؛ قديماً ، أم حديثاً - بَقِيَ أو نَجَحَ ، بدون زعيمٍ ، أو قائدٍ ؟ ! .

وكيف يجوز أنْ يُوجد هذا الشَّعب - بلْهَ يبقى ، أو يعيش ؟ ! .

ونحن نجد هذه الحاجة الملحَّة للقيادة ، حتَّى فِيْ المجتمعات البهيميَّة ،

فكيف بالإنسان هذه الطَّاقة الهائلة ، يبقى بدون موجِّهٍ أو قائدٍ ؟ ! .

ثمَّ هل فِيْ اتِّفاق رأْيِ النَّاس فِيْ الأشياء : إيماناً ، وكفراً ؛ تأْييداً ، ومعارضةً ـ ما يدعو للنَّقد ، فضلاً عنِ انحطاطهم عن إنسانيَّتهم ، واعتبار حركتهم كحزمة الحطب ؟ ! .

﴿ إنْ هذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [1]

وإنَّنا لَنَقف كثيراً عند هذه الفقرة مِنْ مقاله ، إذ يقول :

[إذا اخْتلف حاكمٌ ، أو زعيمٌ ، أو نبيٌّ ، أو كاهنٌ ، مع آخرين أمثالهم ، مِنَ : الحكَّام ، والزُّعماء ، والأنبياء ، والكهَّان ، والشُّيوخ ، لم يُوجد مَنْ يُفكِّرون ويرون ويحكمون فِيْ هذا الخلاف . . .

وإنَّما يُوجد أتباعٌ لهذا ، وأتباعٌ لذاك ، لا يفهمون ولا يُناقشون ، بل يمتثلون ويُؤْمنون ويهتفون . . . وأكثرهم أتباعاً ومؤيِّدين هم أقواهُمْ وأوسعهُم : نفوذاً ، ورشوةً ، ودعايةً ، وتضليلاً . . .]

---

(١) ص : ٧

إنَّه لَكفرٌ شنيعٌ بالعقل والمعرفة ، وهما مِيزة الإنسان ، التِيْ ترتفع به عن وهدة الحيوانيَّة والجمود ، إلى حيث السُّموِّ والرِّفعة . . . !

إنَّه لَيُعيد ويُكرِّر نُكرانَـه لوجـود المفكِّرين ، وأنْ ليس ـ ثمَّـة ـ مَنْ يتبَع عن معرفةٍ ودراسةٍ ، وفحصٍ وتمييزٍ ؛ بـل إنَّ الإنسان لم يتبـدَّلْ ـ لديـه ـ ولم يتغيَّرْ عن كونِه تلك الآلة المحرَّكة ، الموجَّهة بدون إرادةٍ ! .

وإنَّـه لَيضرب بجميع الـطَّبقـات ، ويحتقـر جميـع القـادة : مـادِّيِّـين ، ورُوحيِّين . . . سواءً منهمُ : الحكَّـامُ ، والزُّعـماءُ ، والأنبياءُ ، والكهَّـانُ ، والشُّيوخُ .

وهنا تظهر الرُّوحُ الملحدة الكافرة المُضلِّلة ، وظاهـرةُ الهدم للدِّين ـ أيّـاً كان ـ قويَّةً شديدةً . . . !

فهو لم يترفَّع عن حشْر الأنبياء هنا ، ولم يُفكِّر فِيْ أنَّـه تُعوزه الأدلَّـة ، إذا ما أُريد منه : أنْ يُثبت أيَّ خلافٍ ، بين : نبِيٍّ ، وآخر .

لَقَـدْ جاء الكليمُ ـ عليـه السَّلام ـ بـدِيْنٍ مِنَ الله ، وثنَّاه المسيـحُ ـ عليه السَّلام ـ فأيُّ خلافٍ كان بينهما . . . ؟ !

وجاء بعدهما نبِيُّ الإسلام ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وليس فِيْ القرآن ـ الدُّستور الإسلامِيِّ الخالد ـ سوى الثَّناء والتَّقديـر ، لكلِّ الأنبيـاء ، الذين سبقوه .

فهم كلُّهم رُسُلُ الله ، قَدْ أتَوْا بشيْءٍ منه ، يُنيرون للإنسانيَّة طـريقَها ، حيث يـدلُّون النَّـاس على الله ، ويـرتفعون بـالبشريَّـة : تهذيبـاً ، وتعليماً ، وتوجيهاً ، نحو الخير الشَّامل ، والنَّفع العميم .

وليس يختلف أيٌّ منهم عنِ الآخـر ، فِيْ : جوهـر الرِّسـالة ، وهـدفهـا الأوَّل الصَّميم : التَّوحيد ، وهداية البشـريَّة الضَّـالَّة ، لِتَخفيف آلامهـا ، وأسْوِ جُراحها ، والأخْذ بيدها مِنْ : رمضـاءِ الإلحاد ، وعـرْيِ الإباحيَّـة ، وسرابِ المبادِىءِ ، وزيْفِ تجارة الضَّمائر والأقـلام ؛ إلى : معينِ التَّـوحيد ، وسموِّ الخُلُق ، وصدْقِ الإخلاص ، فِيْ : القول ، والعمل . . .

إنَّ الجـوهـر الـرِّسـالِيَّ ـ عنـدهم جميعهم ـ لا يتبـدَّل ، وهم فِيْ سِلسلة الهدى والخير ، حلقاتٌ متناسقةٌ متتابعةٌ :

﴿ إنَّ الـدِّيْنَ عِنْـدَ الله ، الإِسْــلامُ . وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْــدِ مَـا جَــاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغيـاً بَيْنَهُمْ . وَمَنْ يَكْفُـرْ بِآيَـاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيْعُ الْـحِسَابِ ﴾[1] .

﴿ شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَـا وَصىَّ بِـهِ نـوْحـا ، وَالَّـذِيْ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ ، وَمَـا وَصَّيْنَـا بِـهِ إِبْـرَاهِيْمَ وَمُــوْسَى وَعِيْسَى : أَنْ أَقِيْـمُــوْا الــدِّيْـنَ وَلا تَتَفَـرَّقُـوْا فِيْــهِ . كَــبُرَ عَــلَى الْـمُـشْــرِكِـيْنَ مَــا تَـدْعُــوْهُمْ إِلَيْهِ ﴾[2] .

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) الشُّورى : ١٣ .

﴿ وَلكِنَّ الْـبِرَّ مَنْ آمَنَ بِـالله وَالْيَــوْمِ الآخِــرِ وَالْمَـلائِكَــةِ وَالْكِتَــابِ وَالنَّبِيِّينَ . . . ﴾ ـ الآية [1] .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْـمُؤْمِنُــونَ . كُــلٌّ آمَـنَ بِــالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؛ لاَ نُفَرِّقُ بَــيْنَ أَحَــدٍ مِـنْ رُسُـلِهِ . . . ﴾ ـ الآية [2] .

﴿ قُـوْلُـوا : آمَنَّـا بِـالله ، وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا ، وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَى إِبْـرَاهِيْمَ ، وَإِسْمَــاعِيْــلَ ، وَإِسْـــحَــاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَالأَسْبَاطِ ، وَمَـا أُوْتِيَ مُــوْسَى ، وَعِــيْسَى ، وَمَـا أُوْتِيَ النَّبِيُّـوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَـرِّقُ بَـيْنَ أَحَــدٍ مِــنْهُــمْ ، وَنَــحْــنُ لَــهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

وفِيْ القـرآن الكريم آيـاتٌ كثيرةٌ ، تُؤكِّـد على هـذه الحقيقـة ، لِتُـرَكِّـز الوحدة بين : الرَّسول ، والهدَف الرِّساليِّ . . .

---

(1) البقرة : ١٧٧ .

(2) البقرة : ٢٨٥ .

(3) البقرة : ٣٦ .

فهل يعتبر القَصيمِيُّ مِنْ أسباب الاختلاف ـ أو يعـدُّ خلافـاً ما كـان فِيْ دِيْنٍ مباحاً ، وفِيْ آخـر محظوراً ، حيث رُوعِيَ فِيْ ذلـك المستوى البشـرِيُّ ، ومـدى القابليَّـة والتَّفاعـل مع التَّشريـع ؟ ! ، وهذا ممَّـا تفـرضـه المصلحـة الإنسانيَّة ! .

وقَـدْ يحـدث هـذا فِيْ الـدِّين الـواحـد ، والملَّة الـواحـدة ، حيث تـأْتِيْ تعليماتُها تـدريجاً ريـاضيّاً ، لِتَتقبَّله العقـول الضَّيِّقة ، وتستنيم إليـه القلوب القلِقة ، وتطمَئِنَّ به النُّفوس الوالهة .

ومـاذا يعتبر ـ بعـدئذٍ ـ مِنَ الـرُّسل الثَّـلاثة ، عليهمُ السَّـلام : أقـوى وأوسع : نفوذاً ، ورشوةً ، ودعايةً ، وتضليلاً ـ وأستغفرُ الله ! .

إنَّنا إذا نظرنا لِمقياسه ، وطبَّقناه على أتباع كـلٍّ مِنَ الدِّيـانات الثَّـلاث ، فمعنى هذا أنَّ النَّتيجة الشَّوهاء ، هِيَ :

عيسى . محمَّدٌ . موسى .

وأنَّ أتباع عيسى ، هُمُ الأكثر انْخداعاً بالتَّضليل والدِّعايـة ، وخضوعـاً للنُّفوذ ، والأشدُّ انْسياقاً نحو الرِّشوة . . .

ولا ندرِيْ ما هذه الرِّشوة ، التِيْ يُقدِّمها هؤُلاء الرُّسل ، للمضلَّلِين مِنَ الأتباع ؟ ! .

فهل هِيَ على شكلِ هباتٍ ومعوناتٍ . . . ؟ ! ، أم على شكل رواتبَ ومخصَّصاتٍ . . . ؟ !

وعلى أيٍّ : فالقَصيمِيُّ عنـده ـ بهذا ـ العِلْمُ التَّجـريبِيُّ ، وعلى صعيـد الواقع المُعاش . . . !

. . . وأنَّ اليهود ، همْ ـ على هذا الرأيِ ـ أقلُّ الأمم الثَّلاث ، نصيباً مِنْ ذلك ، لأنَّ نصيب موسى أقلُّ مِنْ أخويه ، مِنْ أسباب جَمْع الأتباع .

وإنَّ مِنَ الدِّعاية والتَّضليل ـ لديه طبْعاً ـ هذه الوفْرة مِنَ التَّعاليم ، التِيْ شُحنتْ بها الدِّيانتان : الإسلاميَّة ، والمسيحيَّة ، مِنَ الدَّعوة إلى : المحبَّة ، والإخاء ، والتَّسامح ، والإلفة ، والتَّودُّد ، ونبْذِ الخصام والحروب ، والدَّعوة للسِّلم ، وغيرِ هذا وذاك ، مِنَ التَّعاليم الإنسانيَّة الرَّفيعة .

وهو لو أمْعَنَ النَّظر ، ورَفَعَ الغشاوة عن عينيه . . . واسْتطاع أنْ يُفكِّر بعقله ، لا عاطفته ، تفكيراً غيرَ آليٍّ ، واسْتطاع التَّخلِّيَ لوقتٍ مَّا ، عنِ الخضوع لِحُكْم رِدَّة الفعل ـ لَوَجَدَ : أنَّ الإسلام ـ مثلاً ـ لا يرضى مِنْ أتباعه بمجرَّد التَّبعيَّة . . .

بل إنَّه لَيَنْعَى أشدَّ النَّعْيِ ، وينتقد أقسى النَّقد : أُولئك المؤْمنين بالتَّبعيَّة والانسياق :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ . . . ﴾[(١)] .

. . . فهو لا يجبر إنساناً على الإيمان به ، إنْ لم يكون منبثقاً عن إرادته ، متفاعلاً مع طبيعتِه ، يُمِدُّه عقلُه ، وتهديه إليه معرفتُه .

والآياتُ فِيْ القرآنِ الكريم ـ على ذلك ـ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصى ، حيث أوْدَعَ الله فِيْ المرء طاقةَ المعرفةِ والعقلِ ، وأعطاه ـ إلى ذلك ـ الإرادةَ المطلَقة ، فِيْ أنْ يستعملها فِيْ ما يُريد : إيماناً ، وكفراً ؛ تأييداً ، ومعارَضةً ؛ بناءً ، وهدْماً ؛ هدْياً وتضليلاً ؛ عدلاً ، وجوراً ؛ وعلى هذه

---

(١) الزخرف : ٢٢ و ٢٣ .

النَّتائج بُنِيَ الجزاءُ : ثواباً ، وعِقاباً ؛ مدحاً وذمّاً .

* * *

وهـو ـ القَصيمِيُّ ـ يمضِـيْ فِيْ هذا التَّجنِّيْ الآثم عـلى الإنسان ، منكـراً حريَّتَه ، وقدرتَه على التَّفكير ، والعمل الإرادِيِّ ، والاختيار فِيْ كـلِّ شيْءٍ ، حتَّى فِيْ : المـذاهبِ ، والآلهَةِ ـ ولا يعـرف عددَهم عنـد القصيمِيِّ ، سوى الله ، حيث إنَّـه يدعـو كـلَّ فـردٍ لِيَكـون إلـهـاً ـ والأفكـارِ ، والأخـلاقِ ، والأصدقاءِ ، والأعداءِ ، إلَّا :

[مِنْ خِلال أحقاد الحكَّام والزُّعماء والدُّعاة الرُّوحانيِّين] .

فأيَّةُ قيمةٍ ـ يا تُرى ! ـ بقيتْ لهذا الكائن الحَيِّ ؟ ! .

وأيُّ معنىً لـوجـوده ، والآلـةُ الصمَّاءُ خـيرٌ منـه ، لأنَّها لم تملكِ العقـلَ والتَّفكير ، ولم تنعمْ بالإرادة والحريَّة ، حين ما اسْتُخدمتْ ووُجِّهت ؟ ! .

والإنسان هذا الذِيْ عَطَّلَ عقلَه ، وأبْـطَلَ معرفتَـه ، وشلَّ إرادتـه ـ فِيْ نَظَر القَصيمِيِّ ـ هو الجانِيْ فِيْ حقِّ نفسه ، حين ما خَضَـعَ لإرادةِ موجِّـهٍ ، أو قيادةِ زعيمٍ ، أو آمَنَ بدِينٍ ومعتقـدٍ ، أو دان بإلـهٍ ، حيث اهْتـدى إلى ذلك بعقله ، ومجرَّد إرادته ، وعفو تفكيره .

وليس يبقى ـ لـديه ـ مِنْ مفكِّـر ، سوى بعضٍ مِنْ حكَّـامٍ وزعـماءٍ ، ادعـاةٍ رُوحانيِّـين ـ كالأنبيـاء ـ إلَّا أنّـه تفكـيرٌ نفعِيٌّ ، يهـدف للنُّفـوذ وكَـثْرة الأتباع ، فَيَتسابقون فِيْ أسباب ذلك : رشوةً ، ودِعايةً ، وتضليلاً .

* * *

وهـو لم ينتهِ مِنْ حملته الشَّعواء عـلى الإنسان ، وقـادته ومفكِّـريه ، إلاَّ لِيُواصل حملتَه على الإنسان ، فِيْ تحكيمه عقلَه ، حيث فَرَضَ عليه الخضـوعَ لإلـٰهٍ ، يُسيِّر هذه الطَّاقة الموجودة فِيْ الكون ، بعد أنْ أوجدها ، وأودَعَ فيهـا الحياة .

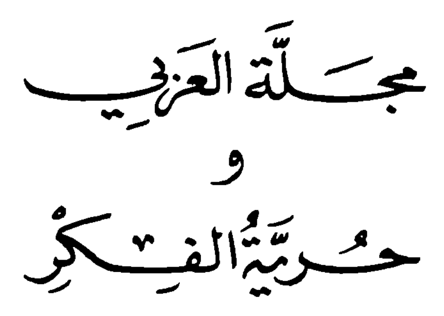
ولسنا نجد الحاجةَ للنِّقاش حولَ هذه الفكرة المعتوهة ، أوِ المهـاجمة التِيْ لا ترتكز عـلى عقلٍ ومعـرفةٍ ، حيثُ إنَّ القـارىء البسيط ، سوف يكتشف ما تحتويه مِنْ شحنةِ : تزويرٍ ، وتضليلٍ ، افْتئاتٍ .

وما الدِّفاع عن وجود إلـٰهٍ ، إلاَّ تحصيلُ حاصلٍ ! .

ولكنَّنا نُردِّد معه جملةً فِيْ مقاله ، ما دام هو أحد مصاديقها :

[ودَعـارةُ الـرأيِ والضَّمـير والقلَم
والمـذهب والعقيـدة ، شرُّ أنـواع
الدَّعارات .
وهؤُلاء الـذين يفسقـون بعقـائـد
الـنَّـاس ، ومـذاهـبـهـم
وأفكـارهم وأقـلامهم ، هم
أفْسقُ الفاسقين] .

القطيف : ٢٥/٠٦/١٣٧٩ هـ
٢٦/١٢/١٩٥٩ م



مجلة العرب
و
حرية الفكر

- ١ -

إنَّه لَمَّا يتنافى ، وحريَّة الفكر ، وينحرف برسالة الصَّحافة ، عن مِهيع الطَّريق ، هذه الصَّنميَّة ـ النَّظر إلى القائل ، دون القول ـ بحيث تكون هِيَ المقياس ، الذِيْ يُقاس به هذا الأثر ، أو ذاك . . .

فالْحَسَنُ الذِيْ تفتح له المجلَّةُ صدرَها ، بل وتدفع عليه الثَّمنَ ، متى احتاجتْ لذلك ، هو ما كان مذيَّلاً بتوقيعٍ له شهرةٌ . . . ولا سيَّما إذا كان مقدَّماً بلقبٍ ، كالدَّكتور ـ مثلاً .

ولا يهمُّ بعْد ذلك أنْ يكون مِنْ : سقط القول ، أو سفاسف الحديث . . . !

ولكنَّ ما تضيق عنه المجلَّة ، وتزوِيْ عنه النظرَ ، وترميه فِيْ سلَّة الإهمال ، هو ما يُوقِّعه مَنْ لا يحمل اللَّقب ، أو لا يعتمد على فارغ الشُّهرة ؛ بل يُقدِّم عصارةَ فكره ، ونتاجَ عقله ، غذاءً فكريّاً ، لأجْل الفنِّ ، الذِيْ يُجنِّد نفسَه فِيْ خدمتهِ . . .

فهذا أثرٌ ـ لدى المجلَّات الصَّنميَّة ـ لا يجد له فِيْ صدرها مكاناً ، مهما كانتْ درجتُه مِنَ الكمال ، ومهما كان حظُّه مِنَ الفنِّ ، ومهما كان نصيبُه مِنَ التَّجويد والإبداع ! .

إنَّها لَتَنظر إلى قائل الأثر ، لا إلى الأثر . . . !

وقَدْ تبتلِيْ بعض هذه المجلاَّت ببليَّةٍ أُخرى ، فتُضيف - إلى بليَّتها تلك - بعضَ الظِّلال الثَّقيلة ، مِنَ الرُّوح الطَّائفيَّة الهدَّامة ، التِيْ تجتثُّ أُصول الوَحدة ، وتُزعزع تماسك الصَّفِّ ، وتزرع بُذور الفرْقة والبِعاد ، بدلاً مِن : اجْتثاث رُوحها الكريهة ؛ واسْتئصال جذورها الخبيثة ؛ والقضاء على ثمارها البشعةِ المرارة . . .

* * *

وعنْدما طلعتْ مجلَّة « العربِيِّ » - الكويتيَّة - برئاسة الدَّكتور أحمد زكِيْ ، رأيْنا فيها - أوِ الأصحُّ : تمَّنيناها أنْ تكون قبَساً ، يُضيْءُ فِيْ العتمة ، ويهدِيْ فِيْ دياجِيْ الظُّلَم . . .

وظنناها أبْعد ما تكون عن هاتين الظَّاهرتين الخبيثتين ، وكلِّ ما يمتُّ لهما بسببٍ قريبٍ ، أوبعيدٍ . . . !

ولكنْ - ولَعَنَ الله لكنْ ! - ما برحنا أنْ وجدنا آثاراً تطلع على صفحاتها . . .

وقَدْ وجدها غيرنا ، فَكَتَبَ لها ، وكان جوابُها عليه ، ملبَّساً بمغالطةٍ ، ولفٍّ ودورانٍ .

أمَّا ما وجدناه نحن منْها ، فإنَّ الدَّليل عليه هذا الذِيْ نُقدِّمه :

* * *

نشرتْ فِيْ العدد الخامس عشر مقالاً ، للأستاذ زهدِيْ يكن ، تحت عنوان « فِقه الشِّيعة » ، وكانتْ هِيَ التِيْ طلبتْ منه ، أنْ يكتب لها عن هذا الموضوع .

وقَدْ دَفَعَنَا هذا المقالُ ، لأنْ نكتب حوله مقالاً ، عنونـاه : « حَوْلَ فِقْـه الشِّيعـة »[1] . . . حيث نـاقشنـا فيـه الكـاتب ، حـولَ بعض النِّقــاط ، وأوضحنا البعض الآخر منها .

وبعثنا به للمجلَّة ، فإذا بها ، تمَسَخ منه سطوراً ، وتُحرِّفها كما شاءتْ ، أو شاء القلم النَّاشِـىءُ المبتدِيءُ ، وتنشر هذه السُّطورَ ، التِيْ اقتصرتْ عـلى تحـريفهـا ، مِنْ بـين خمس ِ صفحـاتٍ ، مِنَ الحجم الكبـير[2] - فِيْ جـزئهـا السَّابع عشر .

وقَدْ رأيتُ أنْ أبعث لها بـرسالـةٍ ، تحمل النَّقـد العاتب ، وطلبتُ منهـا نشْرَها فِيْ المجلَّة ، وذلك أقلُّ ما يُوجبه الواجب .

وها هِيَ ذِيْ الرِّسالة :

---

(١) راجعه في الجزء الأوَّل - « نسيمٌ » - مِنْ هذه المجموعة ، ص ٢٢٠ .

(٢) أو ثلاثين صفحةً ، مِنْ حجم هذا الكتاب .

ـ ٢ ـ

القطيف : ١٣٧٩/٩/٢٥ هـ ـ ١٩٦٠/٣/٢٣ م

حضرة الأستاذ السيِّد رئيس تحرير « العربيِّ » ـ المحترم

تحيَّةً عربيَّةً .

أخبرنِيْ صديقٌ عزيزٌ ، وعلاماتُ الاستغراب ظاهـرةٌ عليه ، إذ لم يفهم شيئاً ـ كما قـال ـ ممَّا كتبتُـه فِيْ العربيِّ ج ١٧ ، حـول مقال الأستـاذ « زهدِيْ يكن » عن « فِقه الشِّيعة » ، وعجبَ أنْ يجد لِيْ شيئاً مِنْ هذا النَّوع ! .

ولكنِّيْ عجبتُ ـ أشدَّ منه ! ـ لأنِّيْ لا أتَّهمه فِيْ فهمه ، فهو على قسطٍ مِنَ الـذَّكاء والمعـرفـة ، رغم أنَّ المقـال ، الـذِيْ بعثتُ بـه للعـربيِّ ، كـان ملمّاً بالموضوع ، قدْرَ الاستطاعة ! .

ولكنَّ هذا العجب ـ ويا لَلأسف المرير ! ، ويا لَلخيبـة الكاسحـة ! ـ ازْداد عمقُـه وشمولُـه ، بعْد أنِ استلمْتُ العـربيَّ ، فقرأْتُ مـا نَسَبَتْه لِيْ مِنْ نتفٍ مفكَّكـةٍ ، غـير مـربـوطـةٍ ، وأُسلوبٍ مـريضٍ ، متهـرٍّ ! ، فعجبتُ وعجبتُ ! ، وأسفتُ وأسفتُ ! .

عجبتُ لـلأمانـةِ ، التِيْ كنَّـا نـظنُّهـا فِيْ العـربيِّ ، عـلى جـانبٍ وفـيرٍ ؛ والضَّمير الـحَيِّ ، الذِيْ كنَّا نعقد عليـه الأملَ ؛ ورسـالةِ الصَّحـافة ، التِيْ يجب أداؤُها كاملةً .

كيف يجوز ـ بالله ! ـ أنْ يعمل قلم المسْخ والتَّشويه ، فِيْ هذا المقال البنَّاء ، عملَه المُشينَ المخزِيَ هذا ؟ ! .

وهل يبقى ـ بعدئذٍ ـ ذرَّةٌ مِنَ الواقع : أنْ يُنسب هذا الحكيُ لِيْ ، وأنْ يُذيَّل بتوقيعِي المحرَّف . . . ؟ !

ولا يكتفِيْ هذا القلم الماسِخ ، حتَّى يُضيف إلى العنوان ـ مِنْ عنده ـ كلمة « الأحساء » ؛ كأنَّ « القطيف » إحدى قرى « الأحساء » ؟ ! .

فهل يليق هذا الجهْل الفظيع ، بالوَطن العربيِّ الكبير ، والذِيْ يرمز اسْمُ المجلَّة إليه . . . ؟ !

كان واجب « العربيِّ » : نشْر المقال ، بقضِّه وقضيضه ـ كما يقولون .

وهِيَ ـ بعْد ذلك ـ تستطيع أنْ تُفسح مجال النِّقاش ، وتفتح باب الرَّدِّ ، إنْ رأتْ لذلك حاجةً . . .

وهذا ما يفرضه على المجلَّة : الواجبُ الإنسانِيُّ ، والضَّمير الحَيُّ ، وحريَّةُ الرأيِ ، ووَحدة الصفِّ ؛ لأنَّ المقال يدور حول طائفةٍ كبيرةٍ ، لها شأنها وخطَرها ، وهو يُحاول التَّوضيحَ ، بأُسلوبٍ نزيهٍ منصفٍ ، يدعو للوَحدة ، ويهدف للحقِّ ، باستدلالٍ عِلميٍّ ، وبروحٍ متفهِّمةٍ .

أمَّا إنْ كان ليس مِنْ رسالة المجلَّة : توضيحُ ما يغمض مِنْ : رأيٍ ، أو فكرةٍ ـ فكان عليها : أنْ تطوِيَ المقال ، وتلفَّه بالنِّسيان ، أوِ الإهمال . . .

. . . لا أنْ تعمل فيه هذا المسْخ المشوِّه المزرِيَ ، ثمَّ تُذيِّله بتوقيع ،

أبْعد ما يكون عن صاحبه . . . ! وما نِسبتُه إليه ، إلَّا كنِسبة دَمِ ابن يعقوبَ للذِّئب .

وبهذا تُسيْءُ للكاتب ، وتُظهره بهذا المظهر المزرِيْ ، وبأُسلوبٍ تترفَّع عنه أقلام النَّاشئة ، التِيْ تُحاول أنْ تحبوَ للحياة الأدبيَّة ، وهِيَ فِيْ السنِّ المبكِّر .

وتزداد هذه الإساءة ، عند مَنْ قرأ للكاتبِ ، مِنْ قبْل ، وعَرَفَهُ ؛ فإذا به يقع اليوم ـ فِيْ نظره ـ مِنَ الشَّاهق ، إلى السَّفح . . .

وليس العيبِ فِيْ نظر هذا ، فِيْ ما رأى ؛ لأنَّه رأى مشهداً ، لم يعرفْ فيه « الخِدعة السينمائيَّة » ، التِيْ قامتْ بها المجلَّة . . . !

يُؤْسفنِيْ جدّاً أنْ أحتاج لهذه الرِّسالة العاتبة ـ وإنْ قسَتْ ، فالصَّراحة دِيْنِيْ ـ أو أُضطرَّ لتوجيهها ، لمجلَّةٍ ، أضمُّ لها التَّقديرَ ، وأُعلِّق عليها الأمل . . . !

ولكن هذا ما كان ، وهو ما يُؤْلم ويُمضُّ ! .

بَقِيَ أنْ أرجوَ نشْرَ هذه الرِّسالة . وعلى المجلَّة أنْ لا تضنَّ به ، دون أنْ يعمل فيها قلَمُ المسْخ والبَتر .

وخيرُ ما تُكفِّر به ـ عن هذا الخطإِ ، الذِيْ نربأُ بالعربيِّ عنِ الوقوع فيه ـ هو : نشْرُ المقال ، لِتَنوير القرَّاء ـ فهل هِيَ فاعلةٌ ؟ .

أرجو أنْ لا يخيب الأمل . ولكُمُ الشُّكر مقدَّماً .

- ٣ -

ولَقَدْ كان مفروضاً ومحتوماً ، أنْ تنشر « العربيُّ » هذه الرِّسالـة ، وذلك ـ كما قُلنا ـ أقلُّ ما يُوجبه الـواجب ؛ ولكنَّها لم تفعـلْ ! ؛ بل حتَّى لم تُشر لهـا إشارةً ، ولو مِنْ بعيدٍ .

بـل أمعنتْ فِيْ صنميَّتهـا ، وتغلغلتْ فِيْ طـائفيَّتهـا ، حيث نشـرتْ فِيْ العـدد الـ ١٩ ما كـان قَدْ ردَّ بـه الأستاذ زهـدِيْ يكن ، على مـا مسختْه مِنْ سطورٍ مِنْ مقالِيْ ذاك ، فوجدتُها فرصةً أُخرى . . .

فَقَدْ دفعتنِيْ لأنْ أكتب حول ذلك بعضَ السُّطور ، وضمَّنْتُها ما كـان قَدْ حَـدَثَ منها ، وأعـدتُ النَّقد العـاتب عليها ، ولا سيَّما بعْـد أنْ نشـرتْ ردَّ الكاتب ، دون أنْ تُشِير لرسالتِيْ تلك بشيْءٍ ، ودون أنْ تُوضح الحقيقة :

- ٤ -

حَوْلَ فقهِ الشيعة - أيضًا

قرأتُ بالعدد التَّاسع عشر ، ما كان قَدْ ردَّ به الأستاذ زهدِيْ يكن ، على ما أوحتْ لِيْ به مقالته « فقه الشِّيعة » ، مِنْ مقالٍ ، كنتُ أردتُ منه ، توضيحَ بعض النِّقاط ، التِيْ عَرَضَ لها الكاتبُ ، فِيْ مقالته ، ونقاشَ بعضها الآخر .

وقَدْ كان المقال مِنْ خمس صفحاتٍ ، مِنَ الحجم الكبير ، إلاَّ أنَّ قلَمَ أحد محرِّرِيْ العربيِّ ، كان شديدَ القَسوة . . .

وكان يُحاول أنْ يتمرَّن فِيْ التَّشذيب - وهو حديثُ عهدٍ به ، كما يظهر ، لم ينشَطْ ، فيستقوِيَ بعْد - فَقَطَعَ كلَّ غصنٍ نضيرٍ ، وزهرةٍ يانعةٍ ، وهو يظنُّها ذابلَ الغُصون ، وميِّت الأزهار .

وقَدْ كان نتيجةَ ذلك أنِ اختصر المقال - فِيْ صفحاته الخمس - بنسبةٍ ، لا ترضاها النِّسبة التَّعادليَّة .

وقَدْ عتبتُ على العربيِّ ، وانتقدتُها نقداً بنَّاءً ، ورجوتُها إعادة نشْر المقال ، لِتَوضيح ما شُوِّه ، وإظهار ما خفِيَ مِنْ « بركة » البَتْر ؛ ولكنَّها لم تُشر لذلك بشيْءٍ - وهذا ما سبَّب للأستاذ أنْ يردَّ بما ردَّ به .

وقَدْ أوضحتُ فِيْ المقال رأْيَ الشِّيعة ، حول جميع النِّقاط ، التِيْ أشار إليها الكاتبْ فِيْ ردِّه . . .

فأوضحتُ ـ بشيْءٍ مِنْ تبسيطٍ ـ رأْيَها حول الزَّواج بالكتابيَّات ، وذكرتُ آراء بعضِ مراجع الشِّيعة ـ فِيْ التقليد ـ فِيْ الموضوع ، ومنها أقوالُ بعضِهُم المحلِّلة لذلك ، لأنَّ لفقهاء الشيعة ـ حول هذا ـ آراءً ثلاثةً . . .

ولكنْ كان البتر مِنْ نصيبها ، أيضاً .

لَقَدْ أسفتُ كثيراً لِمَا فعلتْه العربِيُّ ، وودِدتُ أنْ لا يقع هذا ، مِنْ مجلَّةٍ ، تتَّجه إليها أنظار العرب ، فِيْ جميع أجزاء الوطن الأكبر ، وترى فيها مجالاً للنِّقاش الفكرِيِّ ، برائد إحقاقِ الحقِّ ، وتوضيح الحقيقة .

ولكنْ حَدَثَ ما حَدَثَ ، ويا لَلأسف المكرور . . . !

وأُعيدَ الرَّجاءَ لها ، بإعادة نشْر المقال ، تنويراً لرأْيِ القرَّاء ، وتساندا وتجاوباً مع ما تبثُّه للعالَمِ ، مِنْ توضيحِ الآراء والمعتقدات ـ فهل تستجيب ، يا تُرى ؟ ! .

ولَقَدْ كان عليها ـ أيضاً ـ أنْ تُشير ، عند نشْرها لردِّ الكاتب ، لِمَا كان منها ، وأنْ لا تُغفل ذلك ! .

ولا أعلَمُ ماذا مَنَعَهَا عن هذا ـ أيضاً ـ وعن نشْر ما لاحظتُه فِيْ حينه ، وما سجَّلتُه عليها مِنْ نقدٍ نزيهٍ ؟ ! .

وإِنِّيْ أضَع هذه السُّطورَ الموجزةَ أمانةً لديها ، فأرجو أنْ تعمل نحوها ما يُمليه الواجب ! .

وللأستاذ منِّيْ خالصُ الاحترام ـ والله الموفِّقُ .

القطيف : ١٣٧٩/١٢/٠٤ هـ
١٩٦٠/٠٥/٣٠ م

ـ ٥ ـ

ويُؤْسفنا جدّاً أنَّ هـذه الأمانـةَ ، ضاعتْ تحت أقـدام الصَّنميَّـة ـ مـرَّةً أُخرى . . . !

وإنَّنـا لَنَبتَهـل إلى الله فيْ أنْ يُقيِّض لنـا صحفيِّـين أحـراراً ، وصحـافـةً نزيهةً ، تعمل مِنْ أجْل الحقِّ ، على أنْ يكون ـ لـديها ـ التَّقـويمُ ، مِنْ زاويةِ النَّظر للأثر ، دون ملاحظةِ قائله ! .

القطيف

آثار المؤلِّف

(أ) المطبوع :

١ ـ ذكرى الإمام الخُنيزِيِّ .

ترجمةٌ لحياة والده ، وباكورة إنتاجه ـ المطبعة الحيدريَّة ـ النجف الأشرف : ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

٢ ـ ذكرى الزَّعيم الخُنيزِيِّ .

ترجمةٌ لحياة ابن عمه ـ المطبعة العلميَّة ـ النَّجف الأشرف : ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٣ ـ أبو طالبٍ مؤمِنُ قريشٍ ـ (دراسةٌ وتحليلٌ) .

(أ) الطَّبعة الأوْلى ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت : ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

(ب) الطَّبعة الثَّانية ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت : ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م .

(ج) الطَّبعة الثَّالثة ـ منشورات المؤسَّسة الثقافيَّة للنشر والتأْليف : ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

وقَدْ ذُكر أنَّ هذه الطَّبعة الثَّانية ـ وهِيَ الثَّالثة . والطَّبعتان الأخيرتان بدون إذْن المؤلِّف .

وقَدْ تُرجم لـلأوردو ـ منشورات مكتبـة تعمير أدب پـوسط بكس ٢٤٥ ـ لاهور ـ [بدون إذْن المؤلِّف ، أيضاً] .

كما طبع ـ بعد هذا ـ عدَّة مرَّاتٍ ، لا تُحصى ، وبدون إذنٍ .

هذا فِيْ حدود ما وقف عليه المؤلِّف ، مِنْ : إعادة طبعٍ ، وترجمةٍ .

٤ ـ أدْواؤُنـا ـ منشورات مكتبـة الأنجلو المصريَّـة بالقـاهـرة ـ مـطبعـة الكيلاني ـ عام ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٥ ـ ضـوءٌ فِيْ الظِّلِّ ـ منشـورات مكتبة الأنجلو المصـريَّـة ـ بـالقـاهـرة ـ مطبعة الكيلاني ـ عام ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٦ ـ نسيمٌ وزوبعةٌ . [هذا الكتاب] .

(ب) **المخطوط المعدُّ للطَّبع** :

٧ ـ زهراتٌ / مجموعةٌ شعريَّةٌ ، وشعرٌ منثورٌ .

٨ ـ مجموعةٌ قصصيَّة .

٩ ـ صُوَرٌ مِنَ الحياة ـ كلماتٌ قِصارٌ .

(ج) **المخطوط قيْد الإكمال** :

١٠ ـ ابْنُ المقرَّب : الشَّاعر الثورِيُّ .

١١ ـ الحركات الفكريَّة فِيْ القطيف .

١٢ ـ لا إكراه . . .

١٣ ـ المرأةُ بنظرةٍ إسلاميَّةٍ .

١٤ ـ مجمـوعة دِراسـاتٍ ومقالاتٍ متنـوِّعة ، لم يُجمـع شتـاتهـا فِيْ عِقْـدٍ ـ بعْدُ .

عـدا تحقيق بعض مؤلَّفات والـده ـ كـ « دلائـل الأحكـام » : الـدَّورة الفقهيَّة فِيْ شرح « شرائع الإسلام » .

وعدا فكرة وضْع كتابٍ ، عن (قيس بن سعد) ، وضَعَ مقـدِّمتَه منـذ أعوامٍ ، وصُرف عنه .

وقـد لحق ذلك مؤلَّفـاتٌ أُخر ، طُبـع بعضها ـ كـما امتدَّت يـدٌ أمينةٌ ، فأفقدت بعضاً مِنَ : السَّابق ، واللاَّحق ! .

المحتوى

الموضوع	صفحة

الموضوع صفحة

هـذا الكتـاب

ليس يعني العنـوان : اجتماع الضـدَّين ، على صعيـدٍ . أي : لا يوحي العنـوان بأنَّ النسيم يُداعب الورد ، في الحين الذي تكسر فيه العاصفة القصبة .

ولكنـه يعني أنَّ النسمة النـديانـة ، تطوف عـلى بعض الصفحات ، لِتُودع فيهـا : النبضـة الهادئةَ ، والخلجةَ اللينةَ ، واللمسةَ الرقيقة والمداعبةَ الناعمةَ فهي تشبه ـ في طوافها هذا ـ طواف نسمـة الفجر النـاعمة ، عـلى فم الزهـرةِ الضحوك لِتُقبِّل فمَهَـا المبسـامَ ، وتحمـل منهـا العبقَ الفوّاح . . .

ثمّ تُعقب ذلـك وقـد تـلاشتِ النسمـة ـ زوبعـةٌ نكـراءُ ، لِتَطبـع عـلى بعض الصحفـات الأُخـرى : أثراً ممـَّا تحمله العاصفـةُ ، مِنَ القـوةِ والبـطش . . . فهي تشبـه ـ في ذلـك ـ عصف الزوبعة ، إذ تمرُّ على القصبـة المزهـوَّة ، فتكسر منها هـذا الشموخ المـدلَّ . والخُيلاءَ المتعـاليةَ ، والغرورَ النَّزِقَ . . . والاسم يعني ـ في عبارةٍ أُخرى ـ أنَّ بين ما تضمُّه الدِّفتـان : مواضِيـعَ فيها من اللين ، ما يشبه النسمة في رخاوتها ورقّتها ، ومواضيع فيها مِنَ الشدة ، ما يشبه الـزوبعة في القوةِ والبطشِ . . .

أمَّا النسمةُ ، فهي : المواضيعُ ، التي كتبتها ، بعد ما أقرأ ما يَطبـع في نفسيَ الرضـا والقبـول لأُسجِّل هذه الخلجةَ الحية ، والنشوةَ الطيبة والرعشةَ اللذيذةَ . . .

فالنسمةُ ، هنا ، تعني أنّها ـ بذلك ـ تنقل الأرج المِعطار ، مثل مـا تنقله النسمة النـديانـة ، من صميم الزهرة المتفتِّحة . . .

وأمَّا الزوبعة : فمواضيعُ نقديَّـةٌ ، فيها قـوّةٌ ، وصراحةٌ وجرأةٌ كَتبتُها على إثر مـا أقرأُ من آثار ، لاتنال مني الرضا ، أو أكون وما تهـدف إليه عـلى خلافٍ . . . فمـواضيعُ الكتـاب ، هي مـزيـجٌ من : تقـريظٍ ونقـدٍ . . . وليس في تقـريـظي ، ومـدحي هـذا : شيءٌ من تـزلُّفٍ ، أو مجاملةٍ . . . كما أنّه ليس في نَقدي : قصدٌ لتجريح ، أو تشهيرٍ . . . بـل شئت ـ في النوعـين ـ أن يكون خالياً من العاطفة المسيرَّة أوِ الجموح ، وما قصـدتُ به سـوى وجه الحق وحـده . . فأجلو وجه الحقيقة ، حسب ما يبدُوْ لي وحسْب ما أراه الحقُّ . . .

في اسم الكتاب

المقدمة